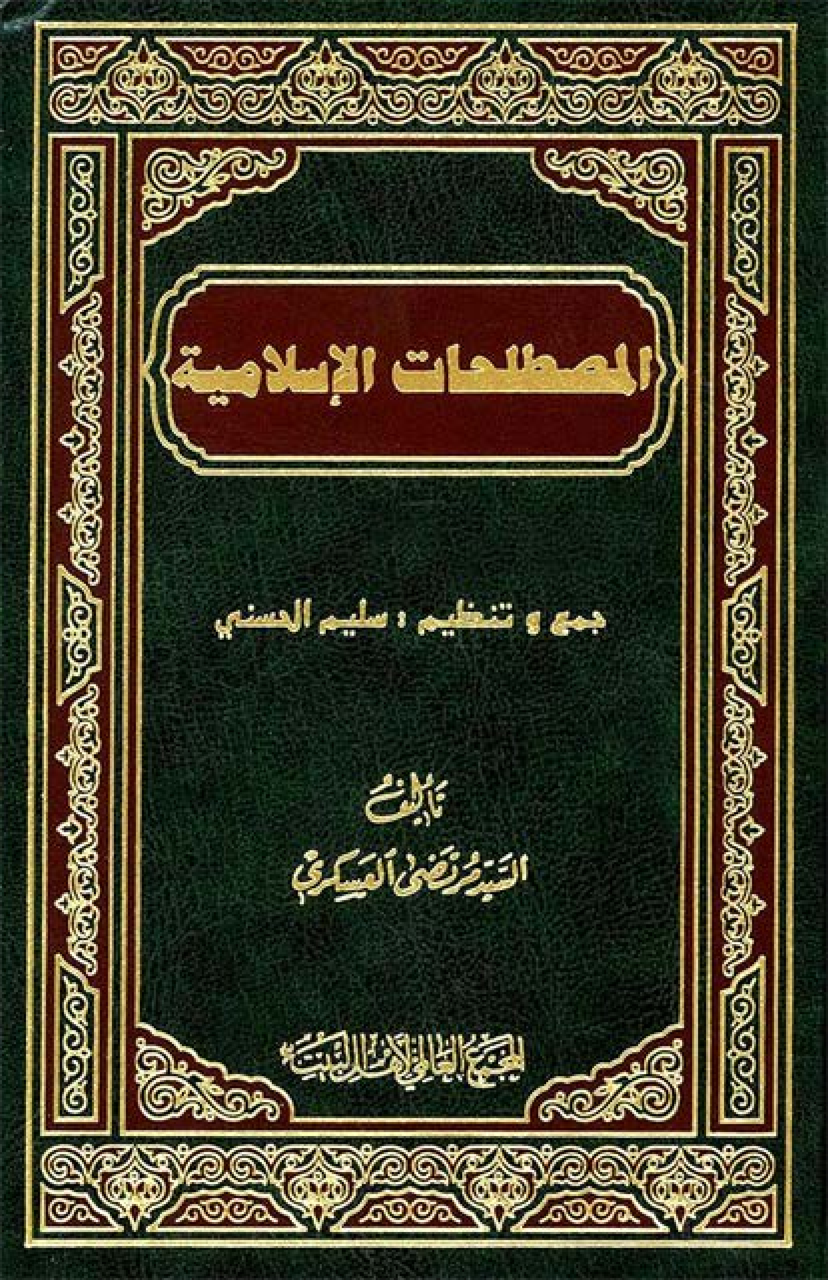


المصطلحات الإسلامية
جمع و تنظيم : سليم الحسني
تأليف
السيد مرتضى العسكري
المجمع العالمي لأهل البيت

المصطلحات الإسلاميّة

السيد مرتضى العسكري

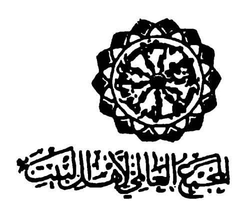
المصطلحات الإسلامية

جمع و تنظيم : سليم الحسني



المجمع العالمي لأهل البيت

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م



العنوان: بيروت - حارة حريك - شارع دكاش - بناية الحسنين
ت: ٠٠٩٦١١٢٧١٩٠٧ - ٠٠٩٦١٣٨٢٣٦٢٠
المستودع: حارة حريك - خلف كنيسة مار يوسف - بناية دار الزهراء

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

عند دراسة النتاج الضخم لسماحة آية الله العلّامة مرتضى العسكري، نكتشف منذ الوهلة الأولى إهتمامه بدراسة وتعريف المصطلحات في كل حقل من حقول البحث الّتي يتناولها في دراساته. فالمصطلح عند السيّد العلّامة ضرورة من ضرورات البحث، ومقدّمة أساسيّة لا يمكن تجاوزها من أجل الوصول إلى النتائج العلميّة الموثقة المطابقة لحقيقة الفكر الإسلامي.

وعلى هذا فان دراسة المصطلح وتقديم مفهومه الصحيح، يمثل منهجاً ثابتاً في المشروع الفكري للسيّد العسكري، والّذي يهدف فيه إلى إعادة الأصالة إلى التراث الإسلامي، وتصحيح المفاهيم والعقائد والآراء الّتي لحق بها التحريف والتشويه.

إنّ أهميّة المصطلح كما يراها العلّامة العسكري، جعلته يبذل جهوداً علميّة كبيرة في دراسة وتعريف المصطلحات بشكل موضوعي دقيق، بحيث شكلت دراساته في هذا الخصوص مادّة ثقافيّة موثقة تساهم بشكل أكيد في فهم

وتوجيه الدراسات العقائديّة والتاريخيّة وغيرها من حقول المعرفة الإسلاميّة. وهو بذلك يسجّل سبقاً آخر في الدراسات العلميّة يضاف إلى جهوده الرائدة في مجالات العقيدة والتاريخ والحديث وعلوم القرآن.

نظريّة العلّامة العسكري في المصطلحات

قد يتصوّر البعض أن المصطلح له أهميّته في مجالات محدودة من حقول المعرفة فحسب، ولا يمكن تعميم هذه الأهميّة على كل مجالات الثقافة. لكن السيّد العلّامة يرفض هذا الرأي بشكل قاطع، ويؤكد على أن المصطلح له أهميّته في كل الحقول المعرفية، وينطلق في ذلك من مرتكزين أساسيين:

الأوّل: انّ الإسلام عقيدة متكاملة غير قابلة للتجزئة والتفكيك، وأن لكل مدرسة فكريّة وعقائديّة مصطلحاتها وللإسلام مصطلحاته الخاصّة، وانّ هذه المصطلحات أساس ثابت من مفاهيمه وثقافته. والتراث الإسلامي لا يعاني من أي نقص في هذا المجال، فهو غني بالمصطلحات سواء المصطلحات الإسلاميّة الشرعيّة الّتي جاءت في القرآن الكريم وحديث الرّسول (ص)، أو مصطلحات المتشرّعة الّتي أطلقها علماء المسلمين في مختلف العصور.

الثاني: ان فهم الإسلام الأصيل لا يمكن أن يتحقق إلّا من خلال فهم الأُصول العقائديّة التي جاءت في القرآن الكريم وسنّة الرّسول (ص). وأن هذه الأُصول مصطلحاتها الخاصّة الّتي عن طريق فهم معانيها الحقيقية يتسنى لنا فهم واستيعاب عقائد الإسلام ومفاهيمه على النحو السليم بعيداً عن التشويه والخلل. وهذا ما يمكن إكتشافه في بحوث العلّامة العسكري في المواضيع الّتي بحثها في مجالات العقيدة والتاريخ وعلوم القرآن وغيرها من

مجالات المعرفة الّتي نشأ الخلاف حولها بين المسلمين.

إنّ نظريّة العلّامة العسكري حول المصطلحات يمكن أن نطلق عليها تسمية (وثائقيّة المصطلح)، وخلاصتها أنه جعل من المصطلح أداة للتوثيق في مجالات العقيدة والمفاهيم والأحكام الاسلامية. حيث يدرس سماحته تاريخ المصطلح من الناحية الزمنيّة وفترات استخدامه، وتطوّر دلالاته ومعانيه.

كما أنه يدرس دائرة استخدام المصطلح الجغرافيّة، ويؤكد على ضرورة التمييز بين هذه المصطلحات بحسب البلدان المتداولّة فيها، ويضع سماحته ضابطة جغرافيّة لمثل هذه المصطلحات، حتى لا تكون مطلقة غير مقيّدة، فهي ليست من اصطلاح المسلمين أو عرف المتشرعة، بل هي خاصّة ببلد معيّن، مما يستدعي ذكر الاصطلاح مقروناً بإسم البلد.

وفي هذا السياق أيضاً يرى العلّامة العسكري ضرورة التمييز بين الاصطلاحات المتداولّة لدى مذهب من المذاهب الإسلاميّة أو لدى فرقة تنتمي إلى الإسلام، فهناك تسميات خاصّة بها، وهي ليست من اصطلاح المسلمين، بل أن لها معنى يختلف تماماً عن المعنى المتعارف عليه عند غيرهم من المسلمين. الأمر الّذي يتطلب التعامل مع كل لفظ من هذه الألفاظ بالمعنى المستخدم عند المذهب أو الفرقة المتداول لديها. وهنا يرى سماحة العلّامة ضرورة تسمية مثل هذه الاصطلاحات مقرونةً بـاسم المذهب والفرقة، فيقال: (هذا اصطلاح مدرسة أهل البيت)، و(هذا اصطلاح مدرسة الخلفاء)، و(هذا اصطلاح الخوارج).

إن هذا المنهج الّذي أسّسه العلّامة الكبير مرتضى العسكري في دراسة المصطلحات، منهج رائد، وإبداع كبير تفرد به في مجال التوثيق التاريخي يضاف إلى إبداعاته المشهودة منذ أكثر من نصف قرن من الزمن.

ولقد قدّم العلّامة العسكري في ضوء هذا المنهج، المفاهيم الأصيلة للعقيدة الإسلاميّة، كما يجدها الباحث والقارئ في كتابه (عقائد الإسلام من القرآن الكريم) الذي صدر منه إلى الآن الجزءان الأوّل والثّاني. في هذا الكتاب قدّم السيّد العلّامة دراسة موسعة، عرّف فيها المصطلحات بشكل دقيق، بحيث شكّلت مقدّمة علميّة لها أهميّتها الكبيرة في تعريف عقائد الإسلام كما وردت في القرآن الكريم.

والأمر نفسه يجده الباحث والقارئ في كتاب سماحته (القرآن الكريم وروايات المدرستين) حيث برهن السيّد العلّامة من خلال دراسة المصطلحات القرآنيّة في مجلده الأوّل وبمنطق علمي لا يقبل الشك، مدى الخطأ الكبير الّذي وقع فيه قسم من المسلمين في علوم القرآن، وأثر ذلك في مجال العقيدة، نتيجة تغيير معاني بعض المصطلحات عما كانت عليه في عصر الرّسول (ص) والصحابة وأئمّة أهل البيت (ع).

فعلى سبيل المثال ناقش سماحته في المجلد الثاني من هذا الكتاب، روايات مدرسة الخلفاء الّتي أسندت إلى الرّسول (ص) أنه أجاز تبديل أسماء الله في القرآن الكريم بعضها ببعض. فعقد العلّامة العسكري دراسة مقارنة بين موارد استعمال اسمي (الإله) و(الربّ) وأثبت مبلغ بعد هذا القول عن الصواب، وعدم صحّة نسبة تلك الروايات إلى رسول الله (ص) وصحابته.

إنّ هذا النموذج الّذي ذكرناه عن منهج البحث عند العلّامة العسكري في خصوص المصطلحات يكشف لنا أن قسماً كبيراً منها لم يستوعب بشكلها الصحيح، ولنا أن نقدّر حجم الخلل في هذا المجال إذا ما عرفنا أن هناك الكثير من المصطلحات المتداولة بين المسلمين قد تبدّلت معانيها إلى معان أُخرى.

وفي كتاب (معالم المدرستين) بإجزائه الثلاثة، درس العلّامة العسكري

ضمن المنهج نفسه، الكثير من المصطلحات المتداولة في التراث الإسلامي، وبرهن على الخطأ الّذي وقع فيه علماء مدرسة الخلفاء في عدد من الأحكام والمفاهيم الإسلاميّة، كالخمس والغنيمة والصحبة والاجتهاد وغير ذلك من المصطلحات الّتي تتأسّس عليها الكثير من المفاهيم والعقائد والأحكام الشرعيّة.

لقد أثبت العلّامة العسكري بما لا يقبل الشّك، وبمنطق البحث العلمي الموضوعي أن دراسة المصطلحات الإسلاميّة، تمثل ضرورة من ضرورات البحث العلمي، وأنها المقدّمة الأساسيّة لفهم عقائد الإسلام ومفاهيمه فهماً أصيلاً، إضافة إلى دور المصطلح في عمليّة التوثيق التاريخي، وهو ما يحتاج إلى دراسة خاصّة حول نظريّة العلّامة العسكري في التوثيق التاريخي من خلال دراسة المصطلحات.

وانطلاقاً من أهميّة فهم المصطلحات الإسلاميّة فهماً صحيحاً كما قدّمها العلّامة الكبير حفظه الله، قمنا بمراجعة نتاج سماحته، حيث إستخرجنا منها بحوثه حول المصطلحات الإسلاميّة، من أجل أن تكون في متناول أبناء الأُمّة الإسلاميّة، والباحثين الإسلاميين، فهي تمثل قيمة علميّة كبيرة، وحصيلة جهد علمي طويل زاد على نصف قرن من الزمن.

نسأل الله تعالى أن يحقق بهذا الكتاب الفائدة المرجوّة وأن يتقبّل منّا هذا المجهود الضئيل، انّه نعم المولى ونعم النصير.

سليم الحسني

٢١ رمضان ١٤١٨ هـ ق

مخطّط بحوث الكتاب

اللّغة العربيّة والمصطلحات الإسلاميّة

مصطلحات الأُلوهيّة والربوبيّة

الإسم ـ الإله ـ الربّ ـ ذو العرش وربّ العرش ـ الكرسيّ ـ الله ـ القيّوم ـ الرّحمٰن الرّحيم ـ العبادة.

مصطلحات النّبوّة

الوحي ـ النّبيّ ـ الرّسول ـ خليفة الله ـ الأئمّة المبلغون ـ الصحابي والصاحب.

المصطلحات القرآنيّة

القرآن ـ الكتاب ـ المصحف ـ السورة والآية ـ الجزء والحزب ـ التلاوة والقراءة والإقراء ـ النسخ.

مصطلحات عقائد الإسلام من القرآن الكريم

مشيئة الله ـ البداء ـ الجبر والتفويض ـ القضاء والقدر ـ الدِّين والإسلام ـ الإيمان والمؤمن ـ النِّفاق والمنافق.

مصطلحات الإمامة والخلافة

الخليفة والخلافة ـ أمير المؤمنين ـ الإمام ـ الأمر وأُولو الأمر ـ الشورىٰ ـ البيعة ـ أهل البيت (ع) ـ السنّة والشيعة أو مدرسة الخلفاء ومدرسة أهل البيت.

مصطلحات الفقه

الفقه ـ الاجتهاد ـ السنّة ـ البدعة ـ الزّكاة ـ الصّدقة ـ الفيء ـ الصفي ـ الأنفال ـ الغنيمة والمغنم ـ الخمس.

اللّغة العربيّة
والمُصطلحات الإسلاميّة


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أوّلاً ـ تعريف المُصْطلحات وهي:

أ ـ لغة العرب.

ب ـ المصطلح الشرعيّ أو المصطلح الإسلامي.

ج ـ مصطلح المتشرّعة أو مصطلح المسلمين.

د ـ الحقيقة والمجاز.

ونسمّي الأوّل أحياناً بـ (تسمية العرب)، والثاني بـ (تسمية الشارع) والثالث بـ (تسمية المسلمين) ونقول:

أ ـ لغة العرب:

إنّما نتحدّث عن لغة العرب، لأنّ القرآن نزل بلغتهم، فنقول:

إنّ جلّ الألفاظ العربيّة الّتي نستعملها اليوم، كانت شائعة في معانيها قبل الإسلام وبعد الإسلام حتّى اليوم، مثل: الأكل والنوم واللّيل والنهار.

ومن تلكم الألفاظ ما ورد في لغة العرب في معان متعدّدة، مثل لفظ: (غنم) الّذي كان في البدء بمعنى كسب الغنم، ثمّ استعمل أيضاً في لغة العرب بمعنى الفوز بالشيء بلا مشقّة، ثمّ استعمل في الإسلام في الفوز بالشيء مطلقاً، سواء أكان الفوز بمشقّة أم دون مشقّة.

وقد يرد لفظ عند قبيلة بمعنى، وعند أخرى بمعنى آخر، مثل (الأثلب) فإنّه في لغة أهل الحجاز: الحجر، وفي لغة تميم: التراب[1].

وفي عصرنا يستعمل لفظ: (المبسوط) ويراد به عند العراقيين: المضروب، ولدى الشاميّين واللّبنانيّين: المسرور، وفي مثل هذه الحالة يجب أن نقول مثلاً: (الأثلب) في لغة تميم بمعنى كذا، وفي لغة الحجازيين بمعنى كذا، وكذلك الأمر في (المبسوط).

ب ـ المصطلح الشرعي أو «المصطلح الإسلامي»:

عندما بعث الله خاتم أنبيائه (ص) استعمل بعض الألفاظ العربيّة في غير معانيها الشّائعة لدى العرب، مثل: (الصلاة) الّتي كانت تستعمل في مطلق (الدعاء) واستعملها رسول الله (ص) في عبادة خاصّة لها قراءات خاصّة مقارنة بأفعال خاصّة من قيام وركوع وسجود، ممّا لم تكن معروفة لدى العرب. وهذا ما نسمّيه بـ(المصطلح الشرعي أو الإسلامي) سواء في ذلك أغُيّر المعنى اللّغوي للّفظ مثل (الصّلاة) أم جاء الشّارع الإسلاميّ بلفظ جديد في معنى جديد، مثل: (الرّحمٰن) صفة لله تعالى.

ويعرف (المصطلح الشرعي) بورود اللّفظ في معناه في القرآن الكريم أو الحديث النبويّ الشريف، وبدون ذلك لا يوجد المصطلح الشرعي.

إذاً فالمصطلح الشرعيّ: ما آستعمله الشارع في معنى خاصّ وبلّغ الرسول (ص) ذلك.

---

(١) تهذيب اللّغة للأزهري (١٥/ ٩١)، ط. القاهرة، سنة ١٣٨٤ هـ.

ج ـ مصطلح المتشرِّعة أو «تسمية المسلمين»:

من الألفاظ ما هي شائعة في معان خاصّة بها لدى المسلمين عامّة مثل: (الاجتهاد) و(المجتهد) الشائعَين لدى عامّة المسلمين في الفقه والفقيه، وكان اللّفظان في لغة العرب بمعنىً بذل الجهد في طلب الأمر[1]، وباذل الجهد، وأستعملا بنفس المعنى اللّغوي في حديث الرسول (ص) كما روي عن رسول الله (ص) أنه قال:

«فضل العالم على المجتهد مائة درجة»، أي على المجتهد في العبادة[2].

وفي ما روي عن سيرته (ص) وقيل:

كان رسول الله يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره[3].

ولم يرد (الاجتهاد) و(المجتهد) بمعنى: الفقه والفقيه، في القرآن الكريم ولا الحديث النبويّ الشريف، ونسمّي هذا النوع من التسمية بـ(عرف المتشرِّعة) و(تسمية المسلمين).

ومن هذا النوع من التسمية ما لا يكون شائعاً لدى عامّة المسلمين، بل يكون شائعاً لدى بعضهم، مثل كلمة: (صوم زكريّا) المستعمل لدى بعض المسلمين في الصّوم مع الالتزام بالصّمت والامتناع عن التكلّم. وهذا النوع من المصطلح ينبغي أن نسمّيه باسم البلد الشائع فيه، فنقول: هذا اصطلاح المسلمين من أهل بغداد، أو اصطلاح المسلمين في القاهرة مثلاً، ولا يصحّ أن نسمّيه بـ(اصطلاح المسلمين) أو (عرف المتشرّعة) أو (تسمية المسلمين)

---

(١) مادّة: (جهد) من نهاية اللغة لابن الأثير.

(٢) مقدّمة سنن الدارمي (/ ١٠٠)، باب فضل العلم والعالم، ح ٣٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان، ح ١١٧٥.

مطلقاً وبدون تقييد.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى التسمية الشائعة لدى أهل مذهب من المذاهب الإسلاميّة أو لدى فرقة تنتمي إلى الإسلام.

مثل: (الشاري) و(المشرك) لدى الخوارج؛ فـ(الشاري) عندهم بمثابة المجاهد عند كافّة المسلمين، و(المشرك) عندهم: جميع المسلمين وكلّ من لا ينتمي إلى الخوارج.

ومثل (الرافضي) الّذي ينبز به بعض أتباع مدرسة الخلفاء بعض أتباع مدرسة أهل البيت (ع).

و(الناصبيّ) عند أتباع مدرسة أهل البيت (ع) الّذي يسمّون به: كل من يبغض الأئمّة من أهل البيت (ع).

وفي مثل هذه الحالة، نسمّي الأول بـ(اصطلاح الخوارج) والثاني بـ(اصطلاح مدرسة الخلفاء) والثالث بـ(اصطلاح مدرسة أهل البيت).

وبناءً على ما ذكرنا، فإذا ورد لفظ (الناصبيّ) لدى أتباع مدرسة الخلفاء لا ينبغي أن نفهم منه أعداء أهل البيت (ع). وكذلك إذا ورد لفظ (الشاري) عند غير الخوارج لا نفهم منه ما اصطلح عليه الخوارج.

د ـ الحقيقة والمجاز:

إذا شاع استعمال اللّفظ في معناه، بحيث لم يتبادر إلى ذهن السّامع عند استماع الكلمة غير ذلك المعنى، مثل لفظ: (الأسد) الّذي يفهم منه: الحيوان المفترس، لا غيره. ومثل لفظ: (الصلاة) الّتي لا يفهم منها لدى المسلمين غير: القيام بالأعمال الخاصّة المقرونة بأذكار خاصّة.

في مثل هذه الحالة، يوصف (الأسد) بأنّه حقيقة في الحيوان المفترس،

و(الصلاة) بأنّها حقيقة في الأعمال المخصوصة، ويسمّى الأول بـ(الحقيقة اللغوية) والثاني بـ(الحقيقة الشرعيّة).

وقد يستعمل لفظ (الأسد) ويقصد به: الرجل الشجاع، ويقال: رأيت أسداً يتكلّم في المسجد. وهذا الاستعمال يسمّى استعمالاً مجازياً ويقال: استعمل (الأسد) مجازاً في الرجل الشّجاع. ولابدَّ عند ذلك من وجود قرينة في الكلام أو في المقام، تدلّ على أنّه لم يقصد من (الأسد) المعنى الحقيقي، مثل قولك هنا: (يتكلّم في المسجد) فإنّ الأسد لا يتكلّم، وهذه قرينة على أنّ القائل لم يقصد الحيوان المفترس، وإنّما قصد رجلاً شجاعاً.

ثانياً ـ كيفيّة تأليف مجاميع اللّغة العربيّة:

عندما قام علماء اللّغة العربيّة بتدوين اللّغة العربيّة في القرنين الثاني والثالث الهجريّين، سجّلوا أمام كلّ لفظ ما وجدوا له من معنى، منذ العصر الجاهليّ إلى زمانهم، سواء أكان ذلك المعنى شائعاً عند أهل اللغة أم في الشرع الإسلامي، أو لدى المسلمين، غير أنَّ فقهاء المسلمين بذلوا جهداً مشكوراً مدى القرون في تحديد المصطلحات الإسلاميّة الفقهيّة وتعريفها، مثل مصطلح الصلاة والصّوم والحجّ وغيرها، فأصبحت المصطلحات الإسلاميّة الفقهية معروفة لدى جميع المسلمين. ولـمّا لم يبذل نظير ذلك الجهد في تعريف المصطلحات الإسلاميّة غير الفقهية، أصبح بعض المصطلحات غير معروف لدى المسلمين، أهي من نوع الاصطلاح الشرعيّ؟ أم من نوع تسمية المسلمين واصطلاح المتشرّعة. وأدّى ذلك إلى اللّبس والغموض في إدراك المفاهيم الإسلاميّة، وأحياناً في معرفة بعض الأحكام الشرعية، نظير ما وقع في لفظَي الصحابيّ، والصحابة.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مُصطلحات الأُلوهيّة والربوبيّة

- الإسم
- الإله
- الرّبّ
- ذو العرش وربّ العرش
- الكرسيّ
- الله
- القيّوم
- الرّحمٰن الرّحيم
- العِبادة

الإسْمُ

للإسم في لغة العرب معنيان:

أ ـ اللّفظ الذي يدلُّ على مسمّى به يُمَيَّزُ ويعرف. مثل: مَكَّةَ علمٌ للبلد الذي فيه ٱلْكَعْبَةُ بَيْتُ ٱللهِ ٱلْحَرَامِ، وأسماء الأشخاص في عصرنا: كَيُوسُفَ وَفَيْصَلٍ وَعَبَّاسٍ... الخ.

ب ـ اللّفظ الذي يدلُّ على حقيقة المسمَّىٰ أو صفته. مثل: (اسم) في قوله تعالى:

﴿سَبِّحِ ٱسمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ﴾. (الأعلىٰ / ١)

إذ ليس معنى (اسْم رَبِّك) هاهنا لفظ رَبِّكَ فيكون المعنى: سبِّح لفظ ربِّك، وإنَّما معناه صفة رَبِّكَ فيكون المعنى، سبِّح صفة رَبِّكَ، أي نَزِّه رُبُوبِيَّةَ رَبِّكَ ٱلأَعْلَى عمّا لا يليق بذكره.

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّها﴾. (البقرة / ٣١)

وليس معنى الأسماء التي علّمها اللهُ لآدَمَ خَليفَتِهِ أسماء عواصم البلدان: بَغْداد وطَهْرَان ولَنْدَن، وأعضاء جسد الإنسان: العَيْن وٱلرَّأس والرَّقَبَة، وأسماء الفواكه: التِّين والزَّيتون والرمَّان، والأحجار: الياقُوت وٱلدُّرّ وٱلزَّبَرْجَد، والمعادن: الذَّهَب والفِضَّة والنُّحاس والحَديد... إلى ما لا يحصى من الألفاظ التي سمّىٰ البشر بها الأشياء بلغاتهم، وإنَّما ٱلقصد أنّه علّمه صفات الأشياء وحقائقها.

الإله

أوّلاً ـ في معاجم اللّغة:

موجز ما في المعاجم حول الـ «إله»:

«إله» على وزن كتاب من مادة أَلِهَ يألَه بمعنى عبد، يعبد، عبادة: أي أطاع إطاعة بتذلّل وخضوع، ثمّ إنّ لفظ «إله» كـ«كتاب» مصدر واسم مفعول معاً، فكما أنّ الكتاب مكتوب، فإنّ الذي جاء بمعنى «مألوه» يأتي أيضاً بمعنى: معبود أو مُطاع.

إذاً إله في اللّغة يعني:

١ ـ العبادة، أي: الإطاعة المطلقة بتذلّل وخضوع.

٢ ـ المعبود والمُطاع.

كان ذلكم معنى (إله) في اللّغة.

ثانياً ـ في محاورات العرب:

جاء الإله في محاورات العرب بمعنيين:

١ ـ أَلِهَ: أي أجرى للمعبود العبادات الدينية مثل: الصّلاة والدّعاء وتقديم القرابين. و(إلاهاً) على وزن كتاباً: بمعنى المألوه أي المعبود الذي يُعبَد وتُجرى له الطقوس الدينية كما أن الكتاب يرد بمعنى المكتوب. والعرب تسمّي كل ما يُعبد: (إلهاً)، وجمعها: (الآلهة) خالقاً كان ذلك الإله أو مخلوقاً، مثل الأصنام والتماثيل والشمس والقمر والأبقار التي يعبدها الهنود.

٢ ـ يأتي الإله أحياناً بمعنى المُطاع[١] كما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى:

أ ـ في سورة الفرقان:

﴿أرأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلهَهُ هَواهُ أفأنتَ تكُونُ عليهِ وَكيلاً﴾ (الآية ٤٣).

ب ـ في سورة الجاثية:

﴿أفَرَأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلهَهُ هَوَاهُ وَأضَلَّهُ اللهُ علىٰ عِلْمٍ﴾ (الآية ٢٣).

والمعنى في الآيتين: ﴿أرَأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلهَهُ هَوَاه﴾: أي أطاع هوى نفسه، ويدل على ذلك قوله تعالى في سورة القصص:

﴿وَمَن أضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيرِ هُدىً مِنَ اللهِ﴾ (الآية ٥٠).

ج ـ في سورة الشعراء في حكاية قول فرعون لموسى (ع):

﴿لَئِن اتَّخَذتَ إلهاً غَيرِي لأجعَلَنَّكَ مِنَ المسجُونين﴾ (الآية ٢٩).

ويدلّ على ذلك (أي على أنّ فرعون وقومه كانت لهم آلهة يعبدونها) ما حكىٰ عنهم سبحانه وتعالى في سورة الأعراف فقال:

﴿وَقَالَ المَلأُ مِن قَومِ فِرعَونَ أتَذَرُ مُوسىٰ وَقَومَهُ لِيُفسِدُوا في الأرضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ (الآية ١٢٧).

إنّ الآلهة التي ذكرت هنا كانت معبودات فرعون وقومه، يقرّبون لها القرابين ويُجرون لها الطقوس الدينيّة. أمّا فرعون نفسه فقد كان إلهاً، أي مُطاعاً.

ومن المحتمل أنّ فرعون ـ أيضاً ـ كان يدَّعي لنفسه الألوهيّة بالمعنى الأوّل، كما جاء عن بعض الأقوام أنهم كانوا يزعمون انّ ملوكهم من سلالة الآلهة (شمساً كانت أو غيرها)، ويجرون لهم بعض الطقوس العباديّة.

---

(١) راجع مادّة: (ألَهَ) في مفردات الراغب. وكتاب «التحقيق في كلمات القرآن».

ثالثاً: في القرآن الكريم:

بالإضافة إلى ما ذكرناه نجد أنّ صفة الخالقيّة أبرز صفةٍ للإله في القرآن الكريم، ولذا نجدهُ بعد قوله تعالى:

﴿ما خَلَقْنَا السَّمٰواتِ والأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلَّا بالحَقِّ﴾.

يسأل الكفّارَ ويقول:

﴿قُلْ أرَأيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دونِ ٱللهِ أروني ماذا خَلَقوا مِنَ الأرْضِ أمْ لَهُمْ شِرْكٌ في ٱلسَّمٰواتِ ٱئتوني بِكتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أوْ أثـارةٍ مِـنْ عِـلْمٍ إنْ كُـنْتُمْ صَادِقِين﴾. (الأحقاف / ٤)

وكذلك الأمر في قوله تعالى:

أ ـ ﴿واتَّخَذوا مِنْ دونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. (الفرقان/٣)

ب ـ ﴿أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أفَلا تَذَكَّرُون﴾. (النحل / ١٧)

ج ـ ﴿والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

(النحل / ٢٠)

د ـ ﴿أيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُون﴾. (الأعراف / ١٩١)

هـ ـ ﴿أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ ٱلخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلوَاحِدُ ٱلقَهَّار﴾. (الرّعد / ١٦)

و ـ ﴿أرُوني مَاذَا خَلَقوا مِنَ ٱلأرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ في ٱلسَّمٰوات﴾.

(فاطر / ٤٠)

ز ـ ﴿إنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَإنْ يَسْلُبهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلمَطْلُوب﴾.

(الحج / ٧٣)

في كل هذه الآيات نرى الله سبحانه وتعالى يتحدّى المشركين في خالقيّة آلهتهم ويؤكّد سبحانه أنّ تلك الآلهة لم تخلق شيئاً بنفسها منفردة ولم تشترك مع الله في خلق شيء.

ويسأل ٱللهُ جلَّ شأنه في الآيتين هـ ـ و الماضيتين عمّا خلقت تلكم الأصنام ٱلتي يدعونها بالآلهة من مخلوقات الأرض:

هل كانوا شركاء في خلق السّمٰوات؟

هل ٱتّخذ المشركون للهِ شريكاً، خلق مثل خلق الله، فاشتبه الأمر عليهم في الأُلوهيّة؟

ويسأل في الآيات الأُخرى:

هل الذي يخلق ـ وهو الله سبحانه وتعالى ـ كمن لا يخلق ـ كالأصنام ٱلتي يعبدونها ـ على حدٍّ سواء؟

ويصل التحدّي إلى مداه في الآية الأخيرة حين يقول:

إنّ الذين ٱتّخذتموهم آلهة من دون الله ضعفاء إلى حدٍّ أنّهم لا يستطيعون أن يخلقوا الذّباب ذلك المخلوق المهين، بل إنّ عجزهم أكبر من ذلك، فإنّ ذلك المخلوق الضعيف المهين إن سلبهم شيئاً لا يستطيعون إنقاذ حقّهم منه.

ونستنتج من كل ذلك أنّ القرآن الكريم قد حصر (الأُلُوهيّة) بالله سبحانه، وٱستدلّ على ذلك بأنّ كل ما يُتَّخَذُ من دون الله من آلهة لا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً.

إذاً يتّضح أن أبرز صفة في (الإله) هي: (الخالِقيّةُ).

ويزيد الأمر وضوحاً الآيات التالية:

﴿ذٰلِكُمُ ٱللهُ رَبُّكُم لا إلٰهَ إلّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوه﴾. (الأنعام / ١٠٢)

هكذا ينحصر خلق كلّ شيءٍ بالله، فلا إله إلّا هو، وينحصر كلّ إيجادٍ به أيضاً، كما قال سبحانه:

أ ـ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾. (القصص / ٧١، ٧٢)

وكذلك يسخر القرآن من عقائد من اتّخذ إلٰهاً غير الله لينفعه في جانب ما في الكون كما يأتي:

ب ـ ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾. (يس / ٧٤)

ج ـ ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾. (مريم / ٨١)

د ـ ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾. (الأنبياء / ٢١)

هـ ـ ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا﴾. (الأنبياء / ٤٣)

و ـ ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

(هود / ١٠١)

ز ـ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ إِذاً لابْتَغَوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلا﴾.

(الإسراء / ٤٢)

والأنبياء كانوا يقولون:

﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لاتُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ﴾. (يس / ٢٣)

كان ذلكم منطق القرآن ومنطق الأنبياء في شأن الآلهة؛ ولكن الكفّار كانوا يعتقدون أنّ آلهتهم تؤثّر في الكون ويطلبون منها إنزال المطر وإنبات النبات

وشفاء المرضى والإغناء من الفقر والنصرة على الأعداء، ويتقرّبون إليها بتقديم القرابين وإجراء بعض الطقوس الدينية لها. وخاطب بعضهم هوداً وقال له:

﴿إنْ نَقُولُ إلّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوء﴾. (هود / ٥٤)

وتعدّدت الآلهة لدى بعض الأمم: فللمطر إله وللرّياح إله وللنبات إله، وهكذا لغيرها آلهة في ما يعتقدون. ولكن القُرآنَ الكَريمَ يقيم الدليل تلو الدليل على بُطلان تعدّد الآلهة ويقول:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إذاً لابْتَغَوا إلىٰ ذي العَرْشِ سَبيلا﴾.

(الإسراء / ٤٢)

أي لشاركوا اللهَ في تدبير أمر العالم من خلق الخلق و... و... و...

ولمّا لم يفعل أيٌّ من الآلِهَةِ شيئاً من ذلك علمنا أنّ الله واحدٌ، أحدٌ، صمدٌ، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

إذ لو كان له ولد أو صاحبة لشاركاه في شيء من القدرة إلى حدٍّ ما، وصدق الله حيث يقول:

﴿إنّما اللهُ إلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾. (النّساء / ١٧١)

ويقول:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الّذينَ قالُوا إنّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثةٍ وما مِن إلهٍ إلّا إلهٌ واحِد﴾.

(المائدة / ٧٣)

ويقول:

﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إله﴾. (المؤمنون / ٩١)

﴿وإذْ قَالَ اللهُ يا عيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أأنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتَّخِذُوني وَأُمّيَ إلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ الله﴾. (المائدة / ١١٦)

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لا تَتَّخِذوا إِلٰهَين ٱثنَينِ إِنَّما هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ﴾.   (النّحل / ٥١)

◈ ◈ ◈

ونلخِّص ما تقدّم بالقول:

إنّ الإله في المصطلح الإسلامي من أسماء الله الحسنى، ومعناه: المعبود، وخالق الخلق. وقد جاء في القرآن الكريم بالمعنى اللغوي مع وجود قرينة تدلّ على أنَّ المقصود معناه اللغوي، مثل قوله تعالى في سورة الحجر:

﴿ٱلّذينَ يَجعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ﴾ (الآية ٩٦).

فإنّ لفظي: (آخر) و(مع الله) في الآية يدلّان على أن المقصود من الإله: معناه اللغوي: المطاع والمعبود، وجاء مطلقاً في معناه الاصطلاحي في آيات كثيرة أُخرى من القرآن الكريم، والتي تحصر الأُلوهيّة في الله سبحانه.

واجمع القول في معنى الإله ما نقله ابن منظور في مادة (إلـه) مـن لسـان العرب عن أبي الهيثم أنه قال:

قال الله عزّ وجلّ: ما اتَّخذَ اللهُ من وَلَدٍ وما كان معه من إلٰهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلٰهٍ بما خَلَقَ. قال: ولا يكون إلٰهاً حتى يكون مَعْبُوداً، وحتى يكونَ لعـابده خالقاً ورازقاً ومُدبِّراً، وعليه مقتدراً، فمن لم يكن كذلك فليس بإله، وإن عُبِدَ ظُلْماً، بل هو مخلوق ومُتَعَبَّد.

الرَّبُّ

أَلرَّبُّ: من أهم المصطلحات الإسلاميّة، وفهمه ضروري لفهم كثير من الآيات القرآنيّة التي يدور البحث فيها حول الربوبيّة وما يتّصل بها.

ونحن المسلمون نكرّر تلاوة الآية الشريفة: ﴿الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العَالَمِين﴾ يومياً مع غفلة عن معناها، ولا يتّضح لنا معناها ومعنى كثير من الآيات القرآنية أمثالها ما لم يتّضح لنا معنى الرَّبّ، وعلى فهم معنى مصطلح (الرَّبّ) تتوقّف ـ أيضاً ـ معرفة توحيد ألله ومعرفة ألرَّسول (ص) وألوصِيّ (ع) وأمثالها من مصطلحات عقائد الإسلام.

الرَّبُّ في اللّغة:

قال ألرَّاغِبُ (ت: ٥٠٢ هـ):

أَلرَّبُّ في الأصل التربية: وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام.

فمن مارس أمر تربية حيوان أو إنسان ـ منذ بداية وجودهما حتّى يبلغا درجة الكمال في وجودهما ـ كان مربّياً لهما، وأضاف أكثر علماء اللّغة إلى معنى المربّي معنى التملّك، أي إنّ الرَّبَّ يملك المربوب[1].

---

(١) ربّ كلّ شيء: مالكه. الصّحاح، للجوهريّ (ت: ٣٩٣ هـ) مادّة: (ربّ)، (١ / ١٣٠).

ربّ كلّ شيء: مالكه ومستحقّه: أي صاحبه، القاموس، للفيروزآبادي (ت: ٨١٧ هـ)، (١ / ٧٣).

الرَّبُّ: المالك، تفسير الكشاف (١ / ٥٣).

←

وقال ٱلرّاغِب: إنّ العرب ٱستعاروا لفظة الرَّبّ ـ المصدر ـ وٱستعملوها في اسم الفاعل[1]، وبناءً على ما ذكرناه فإن ربّ الشيء: هو المالك المدبّر المربّي له[2].

وربُّ الدَّجاج مالكه ومن يرعى بيض الدَّجاج في الحقل حتّى تفرخ، ثمّ يطعم الفراخ ويسقيها ويكافح أمراضها حتّى تبلغ درجة الكمال في وجودها وتصبح كلٌّ منها دجاجة بالغة.

وكذلك يسمّى مالك البيت ربَّ البيت ويسمّى ـ أيضاً ـ المدبِّرُ لكلِّ أُمور البيت: ربَّ البيت، ويقال لمربّي كلّ شيءٍ: ربُّ ذلك الشيء.

وبناءً على ما ذكرنا يكون معنى ﴿ٱلحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلعَالَمِين﴾ في سورة الفاتحة: الحمدُ لِلَّهِ مالك جميع أفراد الخلق ومربّيها حتّى يبلغ كلّ فرد منها

ـ ويُطلق (الرَّبُّ) على مالك الشيء، المصباح المنير، لأحمد بن محمّد الفيّومي (ت: ٧٧٠ هـ) (١ / ٢٥٩)، وأيضاً راجع لسان العرب، لابن منظور (ت: ٧١١ هـ)، والقاموس المحيط، وتاج العروس، للزّبيدي (ت: ١٢٠٥ هـ)... الخ، وأحياناً تستعمل لفظة الرّبّ في جزء المعنى كاستعمالها في المالك فقط، أو المدبِّر فقط، وهذا استعمال مجازي.

(١) المفردات: مادّة: (ربّ)، ص: ١٨٢، ط. طهران.

واللّغويّون الآخرون ذكروا كلام الرّاغب المفصّل بشكل مختصر، أو بألفاظ أُخر، فالجوهريُّ استخدم لفظة الإصلاح والتربية: (ربَّ الضيعة: أي أصلحها وأتمّها، وربَّ فلان ولده: أي ربّاه) الصّحاح (١ / ١٣٠)، والفيّوميّ استخدم لفظة السياسة والقيام بالتدبير: «ربَّ زيد الأمر ربّاً، من باب قتل، إذا ساسه وقام بتدبيره» المصباح المنير (١ / ٢٥٩).

(٢) راجع أيضاً تفسير الآية ٢ من السورة الأُولى من القرآن الكريم، وكذلك مجمع البيان، للطّبرسي (ت: ٥٤٨ هـ)، (١ / ٢١) في تفسير هذه الآية، وجوامع الجامع (١ / ٦)، وتفسير الكشّاف، للزّمخشري (ت: ٥٣٨ هـ)، (١ / ٨) ط. مصر، سنة: ١٣٧٣ هـ، والتّسهيل لعلوم التّنزيل (١ / ٣٣).

درجة كمال وجوده.

ويضاف الرَّبُّ إلى مربوبيه في الكلام في ما عدا الله، ويقال: رَبّ الفرس، وربّ الدجاج، وربّ البيت. وإذا ورد لفظ الرَّبّ في الكلام غير مضاف إلى شيءٍ مثل قوله تعالى: ﴿بلدةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (سبأ / ١٥)، أُريد بـ(الرَّبّ) عندئذ: الله وحده جلّ اسمه.

وقال الرّاغِبُ:

إذا كان لمعنى اللّفظ جزءان، استعمل تارة في الجزأين معاً، وأُخرى في أحدهما منفرداً، مثل: المائدة، إسماً للخُوان والطّعام الذي عليه، فإنّه يستعمل تارة في: الخُوان والطعام الذي عليه وأخرى في الخُوان وحده، أو في الطّعام وحده[1].

وفي ما نحن فيه يستعمل الرَّبّ تارة في المالك المربّي، وأُخرى في المربّي وحده، وأحياناً في المالك وحده.

ومع ملاحظة معنى الرَّبّ وموارد استعماله في كلام العرب يتيسّر لنا أن نعي معارك الأنبياء مع أُممهم في ما يأتي.

ويظهر من أخبار الرُّسل مع أُممهم في القرآن أنّ جُلّ الأُمم وطواغيتها كانوا يؤمنون بأنّ الله جلّ اسمه هو خالق الخلق جميعاً، وإنّما كان الخلاف في حصر الرُّبوبية في الله سبحانه.

وإنّما حكى الله مواجهة الأنبياء لأُممهم وطواغيت زمانهم في الربوبية لندرك الصراع المماثل لها في عصر خاتم الأنبياء (ص)، فقد روى المفسّرون

---

(١) راجع لمعرفة القاعدة المذكورة، مادّة: (قُرْء) في مفردات الرّاغب، ولمعنى المائدة المصدر نفسه، وسائر معاجم اللّغة العربيّة.

عن عَدِيِّ بنِ حاتم (ت: ٦٨ هـ) قال: أتيتُ رسول ٱلله (ص) وفي عنق صليب من ذهب فقال لي: يا عَدِيُّ! إطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته ثمّ انتهيت إليه وهو يقرأ من سورة براءة هذه الآية: ﴿إِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْباباً مِنْ دُونِ ٱللهِ﴾ حتّى فرغ منها، فقلت له: إنّا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرّمون ما أحلَّ ٱللهُ فتحرّمونه، ويحلّون ما حرَّم ٱللهُ فتستحلّونه؟ قال قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم[1].

وبناءً على ما ذكرناه فإنّ أبرز معنى للرَّبّ في القرآن الكريم إنّما هو صفة تشريع الدِّين.

۞ ۞ ۞

بعد فهم معنى ٱلرَّبّ وموارد استعماله في الكلام، ندرس في ما يأتي بحوله تعالى أخبار صراع الأنبياء مع أممهم ونقدّم خبر صراع الكليم مع جبّار عصره فرعون لوضوح كيفيّة الصراع بينهما وتنوّعه.

أخبار الكليم موسى (ع) مع فرعون:

إنّ فرعون مصر في تلك الأيّام كان مالكاً لمصر وجميع ما في مصر، وكان أيُّ عامل في أيِّ عمل إنّما يعمل لفرعون وأجيراً لفرعون.

وبناءً على ذلك اجتمعت لفرعون جميع لوازم ٱلرُّبوبيّة في ظاهر الأمر؛ فهو المنعم على جميع أهل مصر ما يحتاجون في حياتهم من المسكن والمأكل والملبس والحاجات الأُخرى.

ومن أجل ذلك كان هو وأهل مصر معه يرون لفرعون ٱلرُّبوبيّة عليهم،

---

(١) مجمع البيان (١ / ٢٣ ـ ٢٤)، وتفسير البرهان للسيّد هاشم البحراني (ت: ١١٠٧ هـ)، (٢ / ١٢١)، والدُّرُّ المنثور للسيوطيّ (ت: ٩١١ هـ)، (٣ / ٢٣٠ ـ ٢٣١).

وحقّ تشريع القوانين لجميع من يعيش في مصر، ويرون أنّ على الجميع أن يطيعوا أوامره، ويدينوا بما يضع لهم من أنظمة لحياتهم[1]. وبناءً على ذلك إذا أمر باسترقاق بني إسرائيل لأهل مصر وذبح أبنائهم وآستحياء نسائهم، وأنّهم الأراذل في ذلك النظام الطبقي وأهل مصر الأقباط هم الأشراف كان. ذلك حقّاً وديناً يجب أن يعملوا به تديّناً. إذاً فإنّ آلرُّبوبيّة ألتي كان يدَّعيها فرعون مصر لم تكن آدِّعاءً بالألوهيّة، بمعنى أنّه خالق السّمٰوات والأرض وما على الأرض، وإنّما كان يدَّعي ربوبيّة مصر وحدها.

أخبرنا آلله تعالى عن ذلك بقوله جلّ شأنه لموسى وأخيه هارون:

﴿إذْهَبَا إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ * قَالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافا إِنَّني مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ * فَأْتياهُ فَقُولا إِنَّا رُسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيْ إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَٱلسَّلامُ عَلىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ الْهُدَىٰ * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾. (طه / ٤٣ ـ ٤٨)

ومن الطبيعي أنّ فرعون الذي لم يقبل بوجود ربّ له لا يقبل منهما هذا الكلام، فسألهما عن ربّهما وقال: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسىٰ﴾ أي أنتما اللّذان لم تقبلا ربوبيّتي واعتبرتما غيري ربّاً تأخذون منه القوانين فمن هو هذا الرّبّ؟ فـ﴿قالا رَبُّنَا ٱلَّذي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه / ٥٠).

---

(١) فإنّه إذا كان للدّواجن بمصر ربٌّ يملكها ويربّيها ويطعمها ويضع نظام إعاشتها لتسير في حياتها نحو كمال وجودها، وكذلك للمزارع والحقول أرباب ولمختلف المصانع أرباب، فإنّ فرعون الذي له ملك مصر وتجري الأنهار من تحته، هو فوق جميع أُولئك الأرباب وربّهم الأعلى، فكيف واجه الكليم هذا الطّاغوت؟ وبأيّ منطق قابل تلكم الإدّعاءات الطويلة العريضة؟

أي: إنّ ربّنا هو الذي خلق جميع الخلق ثمّ تكفّل ربوبيّتها وهداها جميعاً بربوبيّته.

ولمّا رأى فرعون أنّ كلام موسى (ع) أدحض كل ما تشبّث به من الحجج أمام قومه وخشي أن يقع كلام موسى في قلوب قومه، بادر بإلقاء الشبهات في أذهانهم وقال: ﴿فَمَا بالُ القرونِ الأُولىٰ﴾ (طه / ٥١). فأجاب موسى (ع) وركّز في الإجابة على ربوبيّة الخالق وقال: ﴿عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ﴾ (طه / ٥٢).

وتتابعت الحوادث ولجأ فرعون إلى حيلة أُخرى لتحطيم منطق موسى (ع) وسعى لتأليب الرأي العام وتهييج عواطف النّاس ضدّه وخاطبه قائلاً: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنا مِنْ أرْضِنَا بِسِحْرِكَ يا مُوسىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ (طه / ٥٧، ٥٨). وجُمِعَ السّحرة بأمر فرعون وأمرهم فرعون أن يواجهوا موسى (ع)، ولمّا جابهوه بما عندهم من سحر إتّضحت قدرة ربّ العالمين وأُبطل سحر السّحرة، ولمّا كان أُولئكم السحرة أعلم بالسحر وحقيقته من سائر النّاس، سجدوا عند رؤية القدرة الإلهيّة وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسىٰ﴾ (طه / ٧٠)، وحينما هدّدهم فرعون وخوّفهم، جابهوه وأعلنوا إيمانهم وقالوا:

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطايانا وَمَا أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَٱللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾. (طه / ٧٣)

في هذه القصّة نجد لفظ الرّبّ يتكرّر عدّة مرّات، والطرفان يتحدّثان عن الرّبّ فيذكره موسى ويؤمن به السحرة ويرفضه فرعون.

وبذلك يتّضح أنّ الصراع بين جبهة ٱلشّيطان وجبهة ٱلرّحمٰن، بين محبّي الله وأعدائه، بين ٱلأنبياء والطّواغيت، غالباً ما كان حول الرّبوبية وحول من له

تشريع القوانين والحكم، كما نجد ذلك الصراع قبل موسى (ع) في سيرة ٱلنبي إبراهيم (ع)، كما أخبر سبحانه عنه وقال:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلىٰ ٱلَّذي حاجَّ إبراهيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ ٱللهُ ٱلْمُلْكَ﴾. (البقرة / ٢٥٨)

وسبب الصراع بين إبراهيم ونمرود؛ هو أنّ ٱلله سبحانه كان قد أعطى نمرود ملكاً وسلطاناً عظيمين ودفعته هذه القدرة الكبرى إلى الطغيان والكفر بربوبيّة الله عزّ وجلّ، والصراع مع نبيّ الله، إذ قال له ٱلنبيّ إبراهيم (ع) كما حكى سبحانه وتعالى عن ذلك وقال:

﴿إِذْ قَالَ إِبراهِيمُ رَبِّيَ ٱلَّذي يُحْيِي وَيُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيت﴾ (البقرة / ٢٥٨)، عندما أطلق نمرود سراح من حكم عليه بالإعدام واعتبره إحياءً للميّت، وأتى بآخر يمشي في السوق فأعدمه من غير ذنب، وبذلك القى الشبهة في قلوب الحاضرين بأنّ البريء كان حيّاً فقتله وأماته، إذن فإن كان ٱلرَّبُّ هو الذي يحيي ويميت فإنّ نمرود أيضاً يحيي ويميت، وأوشكت تلك الشبهة أن تنطلي على الجاهل ويصدّق زعم نمرود ولكن النبيّ إبراهيم (ع) عرض فوراً استدلالاً آخر كما حكى ٱلله وقال:

﴿قَالَ إِبراهيمُ فإِنَّ ٱللهَ يأتي بالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ ٱلمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذي كَفَرَ وٱللهُ لا يَهْدِي ٱلقَوْمَ ٱلظَّالِمِين﴾. (البقرة / ٢٥٨)

فبهت نمرود ولم يحر جواباً.

كان ذلك نموذجاً من جهاد بطل التوحيد إبراهيم ٱلخليل (ع).

وفي سبيل مجاهدة عبدة الكواكب والشمس والقمر، حضر إلى ناديهم وناقشهم وفق منطقهم منطلقاً في حديثه من الأمور ٱلتي يؤمنون بها وبأسلوب يفهمون معه الحقّ وتتمزّق عنهم حجب الجهل، وكان الوقت ليلاً إذ رأى إبراهيم (ع) كوكباً ساطعاً ممّا يعبدون فنظر إليه وقال: كما حكى ذلك

سبحانه وتعالى وقال:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱللَّيْلُ رأىٰ كَوْكَباً قَالَ هٰذا رَبِّي﴾. (الأنعام / ٧٦)

ومرّ الوقت وغاب الكوكب فقال إبراهيم كما حكى سبحانه عنه:

﴿فلَمَّا أفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِين﴾. (الأنعام / ٧٦)

وتكرّر الأمر مع القمر كما قال سبحانه:

﴿فَلَمَّا رَأىٰ القَمَرَ بَازِغَاً قَالَ هٰذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ ٱلقَوْمِ ٱلضَّالِّين﴾. (الأنعام / ٧٧)

وكذلك تدرّج في إفهامهم كما حكى ٱلله عنه ـ أيضاً ـ وقال سبحانه:

﴿فَلَمَّا رَأىٰ ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذا رَبِّي هذا أكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُون﴾. (الأنعام / ٧٨)

وهكذا رفض إبراهيم (ع) ربوبيّة كلّ آفل، ولم يترك إبراهيم (ع) النّاس وشأنهم بل ٱستمرّ الحوار بين الجانبين وأخبر ٱللهُ عن ذلك وقال تعالى:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي ٱللهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُون﴾. (الأنعام/٨٠)

من الواضح أنّ قوم إبراهيم كانوا يعرفون الله ولكنّهم كانوا يعتقدون أنّ لله شركاء في ربوبيّته وكان إبراهيم (ع) يجادلهم في شركهم بالله، وفي واقعة أُخرى واجه إبراهيم (ع) قومه عبدة الأصنام في ناديهم وخاطبهم قائلاً:

﴿... ما هٰذِهِ ٱلتَّماثِيلُ ٱلَّتِي أَنْتُم لَهَا عَاكِفونَ * قَالوا وَجَدْنا آبَاءَنا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآباؤكُم فِي ضَلَالٍ مُبينٍ * قالوا أَجِئْتَنَا بِالحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّاعِبِين﴾. (الأنبياء / ٥٢ ـ ٥٥)

وردّ عليهم إبراهيم قائلاً:

﴿بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمٰوٰاتِ والأرْضِ ٱلَّذي فَطَرَهُنَّ وَأنا عَلىٰ ذٰلِكُمْ مِنَ ٱلشَّاهِدين﴾. (الأنبياء / ٥٦)

ولمّا كانت عبادة قومه (أهل بابل) للكواكب والشمس والقمر نتيجة لاعتقادهم بتأثيرها في حياتهم، وأنّ بيد تلكم الموجودات تحديد المصير، الحسن أو السيّئ للإنسان، اعتقدوا بأنّها أرباب مدبّرة للعالم واتّجهوا لعبادتها، أي إنّهم اتّصفوا بنوعين من الشرك، شرك في الرُّبوبيّة، وشرك في الأُلوهيّة، والنبيّ إبراهيم (ع) إستناداً إلى اعترافهم بخالقيّة الله تعالى ردَّ شركهم في الرُّبوبيّة والأُلوهيّة.

وفي قصّة أصحاب ٱلكهف: كانوا فتية آمنوا بربّهم في العصور الغابرة، ونهضوا في وجه طاغوت عصرهم، ولهجت ألسنتهم بربوبيّة الله خالق السّمٰوات والأرض كما حكى ٱللهُ سبحانه وتعالى عنهم وقال:

﴿وَرَبَطْنَا عَلىٰ قُلُوبِهِم إذْ قَامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّمٰواتِ والأرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إلٰهاً...﴾. (الكهف / ١٤)

كان منطق الفتية المؤمنين أنّ هذا الشخص الذي ادّعى الربوبيّة وفرض على النّاس طاعته والنظام الذي سنَّه لحياتهم ليس بربّنا وليس لهذا الطاغوت حق التقنين وسنّ نظام لحياة النّاس، بل إنّ ذلك لله ربّ السّماوات والأرض.

وعند دخول الإسلام إلى إيران حدثت مثل تلكم المواجهة فإنّ إيران كانت نموذجاً واضحاً لقيام ملوكها بسنّ القوانين وتشريع النظام لحياة البشر، وإنّ ٱلرَّسول ٱلأكرم (ص) واجههم وأعلن أنّ التقنين وتعيين النظام للمجتمع البشري خاصّان بمقام الرُّبوبيَّة ولا رَبَّ إلّا الله ربّ السّماوات والأرض، وحتّى هو (نبيُّ الإسلام) ليس له ذلك، بل هو مطيع مطلق لله تعالى، ومبلِّغ

لتشريعه ؛ كما يتّضح ذلك من الخبر الآتي:

أرسل الرسول (ص) كتاباً إلى ملك فارس [كسرى خسرو پرويز (ت: ٦٢٨ م)] فلمّا قرأ الكتاب شقّه ثمّ كتب كسرى إلى واليه على اليمن أن ٱبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به. فأرسل الوالي ممثلين إلى الحجاز. فلمّا بلغا مدينة الرّسول (ص) دخلا على الرّسول (ص) وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فكره النظر إليهما ثمّ أقبل عليهما فقال: ويلكما من أمركما بهذا؟ قالا أمرنا بهذا ربّنا ـ يعنيان كسرى ـ فقال رسول الله (ص) : لكن ربّي قد أمرني بإعفاء لحيتي وقصّ شاربي[1].

نلاحظ هنا أنّ للرُّبوبيّة دخلاً حتّى في هذه المسألة من التشريع.

۞ ۞ ۞

كانت تلكم نماذج من تاريخ الرسالات السماويّة التي تبيّن حقيقة الأمر في مواجهة الأنبياء (ع) لطواغيت عصرهم وعلّة الصراع بين أولياء ٱلله وحزبه والأحزاب المخالفة لهم. فالربَّانيُّون ـ من جهة ـ يقولون: ليس هناك غير الله مَن يستطيع أن يسنّ نظاماً لحياة الإنسان. فلا ربَّ للإنسان سواه وهو ربّ العالمين. والطواغيت ـ من جهة أُخرى ـ يدَّعون أنّ لهم حق سنّ القوانين المنظّمة لأُمور البشر. وكانت تلكم النماذج كلّها تبيّن مواجهة الرُّسل والربّانيين لطواغيت عصورهم في شأن الرُّبوبيّة. وفي ما يأتي نورد نوعاً آخر من صراع الأنبياء حول الرُّبوبيّة. وذلك في مواجهتهم للأحبار والرُّهبان الذين كان لهم حق التمثيل الدِّيني عند النّاس. والأنبياءُ هنا أيضاً يجاهدون بالعزم والتصميم السابقين في كشف زيفهم وتدخّلهم الباطل في تغيير الأحكام

---

(١) الطبريّ (ت: ٣١٠ هـ) (٢ / ٦٥٥، ٦٥٦).

وتبديلها، وأنّهم بذلك قد جعلوا أنفسهم أرباباً من دون آلله، وقد تحدّث آلقرآن الكريم عن ذلك وقال:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ آللهِ﴾. (التوبة / ٣١)

أوضحت الروايات التي وردت عن رسول آلله (ص) وأهل البيت (ع) القصد من اتّخاذ النّاس للأحبار والرّهبان أرباباً من دون الله، كما أوردناه في خبر عديّ بن حاتم مع رسول الله (ص) آنفاً والذي بيّن فيه رسول الله (ص) كيفيّة تدخّل رجال الدّين في الشريعة حينما وضعوا قوانين بشريّة قائمة على الأهواء مكان الشرائع التي وضعها ربّ العالمين للبشر.

وهذه الحقيقة موجودة بين النّصارى حتّى اليوم: فالبابا (القائد الدّيني للمسيحيين) له حق تغيير تشريعات المذهب الكاثُوليكي وهم يقبلون ذلك منه بدون تأمّل، وتدّعي الكنيسةُ ـ على أساس الإنجيل الموجود ـ أنّ لها حق التشريع ويكون ما تصوّبه الكنيسة في الأرض مقبولاً في السّماء، كما نقرأ ذلك في إنجيل متّى حيث يقول:

(أنت بطرس، وعلى هذه الصّخرة ابن كنيستي، وأبواب آلجيم لن تقوى عليها، وأُعطيك مفاتيح ملكوت السّموات، فكلّ ما تعقده على الأرض معقود في السّموات، وما تحلّه في الأرض فهو حلال في السّماء)[1].

وإنّما سمّى آلقرآن أحبار النّصارى ورهبانهم أرباباً لأنّهم كانوا يشرّعون النظام لحياة البشر؛ فيُحلّون ما حرّم الله ويحرّمون ما أحلّ. بينما كان جهاد آلأنبياء في سبيل أن يخضع البشر لربوبيّة الله وحده ولا يقبلون إلّا أوامره ويأخذون منه الحلال والحرام وهذه هي حقيقة الدِّين.

---

(١) إنجيل متّى، الإصحاح ١٦، عدد: ١٨ ـ ١٩.

وإنّ الإنسان الذي أُجبر على أخذ حكم من جبّار خلافاً لأحكام الله وعمل به وهو لا يعتقد به، في مثل هذه الحال لم يتّخذ هذا الإنسان ذلك الجبّار ربّاً له، وإنّ ٱتّخاذ بعض العباد بعضهم الآخر أرباباً لا يصدق إلّا مع ٱختيار الإنسان في أخذ الأنظمة من الطاغية والعمل بها خلافاً لتشريع الله عزّ وجلّ، وفي مثل هذه الحال يكون الإنسان قد ٱتّخذ المشرِّع رَبّاً، ومن باب المثال نجد كبير أساقفة المسيحية «بولِسَ» يقول: «أنا بولسُ أقول لكم: إذا اختتنتم لا ينفعكم ٱلمسيحُ في شيء»[1]، وقَبِلَ ٱلنَّصارى منه ذلك بإختيارهم ولم يختنوا أولادهم، وكان يقول: إشربوا الخمر فهو جائز لكم وإنّ الدِّين يسمح لكم، وَقَبِلَ ٱلنَّصارى منه ذلك مختارين، ففي مثل هذه الحال كانوا قد اتخذوا القسس أرباباً لهم.

---

(١) قاموس كتاب مقدّس، فارسي، مادّة: (ختنه)، ص: ٣٤٣ عمود رقم: ٢، ورسالة بولس إلى أهل غلاطية، الإصحاح ٦، العدد: ١٥.

التّوراة تذكر الختن كحكم ديني. راجع التوراة سفر لاويين، الإصحاح ١٢، العدد: ١ ـ ٤. وٱلمسيحيّة هي استمرار لليهوديّة، إذن هذا الحكم كان موجوداً في المسيحيّة الأُولى غير المحرّفة وأُزيل بعد ذلك على يد بولس.

ذو العَرْشِ ورَبُّ العَرْش

ممّا جاء فيه ذكر عرش الله في القرآن الكريم المواضع التالية:

أ ـ في سورة هود:

﴿وَهُوَ الَّذي خلق السَّمٰواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ وكان عرشُهُ على ٱلماءِ لِيَبلُوَكُم أَيُّكُم أَحسَنُ عَملاً...﴾ (الآية ٧).

ب ـ في سورة يونس:

﴿إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ استَوىٰ على العَرشِ يُدَبِّرُ الأمرَ...﴾ (الآية ٣).

ج ـ في سورة الفرقان:

﴿الّذي خلق السَّمٰوات والأرضَ وَما بينهما في سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ استَوىٰ عَلى العَرشِ الرَّحمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾[1] (الآية ٥٩).

د ـ في سورة غافر:

﴿... ٱلَّذينَ يَحملونَ العَرشَ ومَن حَولهُ يُسبِّحونَ بِحَمْدِ رَبِّهم وَيُؤمنونَ بِهِ ويَستغفرونَ لِلَّذينَ آمَنوا رَبَّنا وَسِعتَ كُلَّ شَيءٍ رحمةً وعِلْماً فَاغفِرْ لِلَّذينَ تابُوا وٱتَّبَعوا سَبيلكَ وقِهِم عَذابَ الجَحِيمِ﴾ (الآية ٧).

هـ ـ في سورة الزمر:

﴿وتَرى المَلائِكَةَ حافِّينَ مِن حَولِ العَرشِ يُسبِّحونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم وقُضِيَ

---

(١) ورد نظيرها في سورة الأعراف (٥٤) والحديد (٤) والسجدة (٥).

بَيْنَهُم بِالحقِّ وقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمين ﴾ (الآية ٧٥).

و ـ في سورة الحاقّة:

﴿ويَحْمِلُ عَرشَ رَبِّكَ فوقهم يَومئذٍ ثَمانِية ﴾ (الآية ١٧).

الرَّحمٰن:

قال سبحانه:

أ ـ في سورة طٰه:

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحمٰنُ ﴾ (الآية ٩٠).

ب ـ في سورة الأنبياء:

﴿وَرَبُّنا الرَّحمٰن ﴾ (الآية ١١٢).

ج ـ في سورة النبأ:

﴿رَبُّ السّمٰواتِ والأرض وَما بينهما الرَّحمٰن ﴾ (الآية ٣٧).

الرّحيم:

أ ـ قال سبحانه في سورة (يس):

﴿سَلامٌ قولاً مِنْ ربٍّ رَحيم ﴾ (الآية ٨٥).

ب ـ في سورة الشعراء:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ العَزيزُ الرّحيم ﴾ (الآيات ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١).

ج ـ وجاء الإسمان كلاهما جميعاً في سورة الفاتحة في قوله تعالى:

﴿... ربِّ العالَمِينَ ۞ الرّحمٰنِ الرّحيم ﴾ (الآيتان ٢ و ٣).

شرح الكلمات:

أ ـ العَرْش:

العرش، في اللّغة شيء مُسَقَّف، وجمعه عروش، وسمّي مجلس السلطان: عَرشاً، اعتباراً بعلوّه، وكُنّي به عن العِزّ، والسُّلطانِ، والمملكة، في لسان العرب: ثلّ اللهُ عَرْشَهُمْ أيْ هَدَمَ مُلْكَهُمْ[1].

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

إذا ما بنوا مروان ثُلّتْ عروشهم وأودتْ كما أودت إيادٌ وحِمْيرَ

أراد إذا ما بنو مروان هلك ملكهم وبادوا[2].

ب ـ استوى:

جاء في مادّة (سوى) بكلّ من:

أ) كتاب (التحقيق في كلمات القرآن)[3]:

الإستواء يختلف باختلاف المواضع، ففي كل موضع بحسبه وعلى ما يقتضيه.

ب) مفردات الراغب:

استوى فلان على عمالته، واستوى أمر فلان، ومتى عُدِّيَ بعلى اقتضى معنى الاستيلاء كقوله:

﴿الرَّحمٰنُ عَلىٰ العَرْشِ استَوىٰ﴾. (طه / ٥)

---

(١) مادّة: (العرش) من مفردات الراغب، والمعجم الوسيط، ومادّة: (ثَلَلَ) من لسان العرب.

(٢) البحار (٥٨ / ٧).

(٣) كتاب «التحقيق في كلمات القرآن»: تأليف الأُستاذ حسن المصطفوي، ط. طهران ١٤٠٠ هـ.

ج) المعجم الوسيط :

يقال استوىٰ على سرير المُلك، أو على العرش: تولّى المُلك.

كما قال الأخطل في مدح بشر بن مروان الأمويّ:

قد استوىٰ بِشرٌ علىٰ العراق　　　من غيرِ سيفٍ أو دمٍ مهراق[1]

---

(١) بشر بن مروان، أخو الخليفة الأمويّ عبدالملك بن مروان، وواليه على العراق سنة: ٧٤ هجرية، توفّي في البصرة.

راجع ترجمته في تاريخ دمشق لابن عساكر.

وذكر شعره:

القاضي عبدالجبار في كتاب: تنزيه القرآن، ط. القاهرة ١٣٢٩ هـ، ص: ١٥٧ و ١٥٩.

وعبدالرحمٰن الأيجي (ت: ٧٥٦ هـ) في كتابه: المواقف، ط. القاهرة ١٣٥٧ هـ، ص: ٢٩٧، وفيه ورد: عمرو بدل بشر.

الكرسيّ

الكرسيُّ في اللّغة: السرير والعِلم.

روى الطبري والقرطبي وابن كثير عن ابن عباس واللّفظ من الطبري بإيجاز انّه قال كرسيّه عِلْمُهُ.

قال الطبري: كما أخبر عن ملائكته أنّهم قالوا في دعائهم: رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فأخبر تعالى ذكره أنَّ علمه وسع كل شيء، فكذلك قوله وسع كرسيّه السّموات والأرض، قال: وأصل الكرسي العلم، ومنه قيل للصحيفة يكون فيها علم مكتوب: كراسة.

ومنه يقال للعلماء الكراسي.

ومنه قول الرّاجز: (حتّى إذا ما احتازها تكرّسا) يعني: علم.

ومنه قول الشاعر:

تحف بهم بيض الوجوه وعصبة   كراسيّ بالأحداث حين تنوب

يعني بذلك علماء بحوادث الأمور ـ انتهى ما نقلناه عن الطبري.

وحكى الله عن إبراهيم (ع) انّه قال لقومه:

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شيءٍ عِلْماً أفلا تَتَذَكَّرون﴾. (الأنعام / ٨٠)

وعن شعيب (ع) انّه قال لقومه:

﴿وَسِعَ ربُّنا كُلَّ شيءٍ عِلماً﴾. (الأعراف / ٨٩)

وعن موسى (ع) انّه قا للسّامري:

﴿إنَّما إلهُكُمُ اللهُ الذي لا إله إلّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيءٍ عِلماً﴾. (طه / ٩٨)

وقال الإمام الصادق (ع) السادس من أوصياء الرّسول (ص) في جواب من سأله عن قوله تعالى:

﴿وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّمٰواتِ والأرض﴾. (البقرة / ٢٥٥)

قال: علمه[1].

وانّ الكرسيَّ جاء في القرآن الكريم ـ أيضاً ـ بمعنيين:

أ ـ بمعنى السّرير، كما جاء في قوله تعالى في قصّة سليمان:

﴿وألقينا على كرسيّه جسداً﴾.

ب ـ بمعنى العلم، كما جاء في قوله تعالى:

﴿يَعلمُ ما بَينَ أَيديهِم وَما خلفهم وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِن عَلمِه إلاّ بِما شاءَ وَسِعَ كُرسِيّهُ السَّمٰواتِ وَالأرض...﴾. (البقرة / ٢٥٥)

ومجيئه في هذه الجملة بعد علمه يدلّ على أنّ المقصود من كرسيّه، علمه تعالى. ويكون معنى الجملة عندئذ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلاّ بما شاء وسع علمه السّمٰوات والأرض.

وعلى هذا فإنّ معنى بعض الروايات انّ (كلَّ شيءٍ في الكرسي) أي إنّ كل شيءٍ في علم الله.

---

(١) توحيد الصدوق، ص ٣٢٧، باب معنى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وسع كرسيّه السّمٰوات والأرض﴾

اللهُ (جَلَّ جَلالُهُ)

اللهُ جلَّ جلاله، اسم للإِله الخالق، والرَّبُّ المربِّي والرَّحمٰن الرَّحيم، والحيُّ القيّومُ إلى آخر أسماء الله الحسنى. وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَآءُ الحُسْنىٰ﴾. (الأعراف / ١٨٠)

وبناءً على ذلك فعندما نقول:

(لا إله إلّا الله).

نعني:

أنّ لا خالق ولا معبود إلّا الذي هو ربٌّ ورحمٰنٌ ورحيمٌ وَحَيٌّ وقيُّومٌ إلى آخر أسماء الله الحُسنى.

وأخطأ من علماء اللّغة العربيّة من زعم أنّ (الله) أصله (إله) الذي هو إسم جنس للآلهة، ودخلت عليها الألف واللّام للتعريف وصار (الإِلٰه) ثمّ حذفت الألف وأُدغم اللّامان فصار (الله)[1]. وعندئذ يكون (إله) و(الله) مثل (رجل) و(الرجل) الأوّلان منهما إسماً جنس لكلُّ ٱلآلهة ولكلّ الرِّجال، والثانيان منهما عُرِّفا بالألف واللّام وبهما شُخِّصَ الرّجل المقصود وٱلإِله المقصود. وعليه فإنّ معنى (لا إله إلّا الله) يكون: لا إله إلّا الإله الذي أقصده وأعنيه.

لقد أخطأ القائلون بهذا القول، فإنّ لفظ (الله) علم مرتجل بإصطلاح

---

(١) راجع مادّة: (أَلَه) من لسان العرب لابن منظور (ت: ٧١١ هـ)، و«التحقيق في ألفاظ القرآن الكريم» لحسن المصطفوي المعاصر، وتفسير البسملة من تفسير الميزان للسيّد الطباطبائي (ت: ١٤٠٤ هـ).

النحويين سمّي به الذات الذي صفاته جميع الأسماء الحسنى، ولا يشاركه في التسمية غيره، كما لا يشاركه غيره في الألوهيّة والرُّبوبيّة.

وكذلك الأمر في اللّغة العبريّة، فإنّ (يهوه) إسم لله وحده، و(إلٰهَ) بمعنى (إله) و(إلوهيم) بمعنى الآلهة[1].

وعلى ما تقدّم من بحث يكون معنى (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ):

أ ـ (بِسْمِ) أي: بحقيقة، بصفات.

ب ـ (اللهِ) ذاتُ الباري المتّصف بجميع أسماء الله الحسنى.

ج ـ (الرَّحْمٰنِ والرَّحيم) خُصّصا بالذكر من صفات ربوبيّة الله.

إذاً، يكون المعنى: أستعين في تلاوة السورة برحمانيّة الله الرَّبِّ ورحيميّته..

وفي إيراد البَسْمَلَةِ أوائل السور براعة استهلال، لأنّ جميع السور القرآنيّة تشرح جوانب من ربوبيّة الله الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وتبيّنها، عدا سورةِ براءة التي لم يُبدأ فيها بالبَسْمَلَةِ.

---

(١) راجع استعمالات الكلمات في التّوراة العبريّة، ومادّة: (يهوه) في: «قاموس ـ كتاب مقدّس» (فارسي).

القيّوم

من أسماء الله الحسنى ولا يوصف به سوى الله ومعناه: القائم الحافظ لكلّ شيء والمعطي له ما به قوامه.

الرَّحْمٰنُ وَالرَّحِيم

الرّحمٰن من الإنسان: رقَّةُ قلب وتَعَطُّفٌ على المرحوم، ومن الله: إنعام وإفضال عليه.

والرّحيم يدلُّ على دوام اتّصام الرَّاحِم بالرَّحمة، ويوصفُ ٱلباريُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بالرَّحيم لاستمرار صدور ٱلرَّحْمَةِ منه، ويوصف بها ٱلإنسانُ الذي يرقُّ قلبه على الدوام.

وٱلرَّحْمٰنُ يدلُّ على كثرة صدور ٱلرَّحْمَةِ من ٱلرَّاحِمِ ولا يطلق إلّا على الله، لأنّ معناه لا يصحّ إلّا له، إذ هو الذي وسع كلّ شيءٍ رحمة، وعمَّت رحمته في الدّنيا المؤمن والكافر وجميع الخلق، ودامت رحمته بالمؤمنين خاصَّةً يوم القيامة، فهو رحمٰن الدّنيا ورحيمٌ بالمؤمنين في الآخرة.

وبما أنّه ربُّ العالمين ومربّي العالمين ومدبِّر أمرهم في الدّنيا؛ فهو رحمٰن الدّنيا، وبما أنّه يجزي المؤمنين بحسنات أعمالهم في الآخرة فهو رحيم بالمؤمنين في الآخرة.

إذاً فإنّ ٱلرَّحْمٰنَ وٱلرَّحِيم هما من صفات ٱلرَّبِّ وهما والرَّبُّ والإلٰه من صفات الله جلَّ ٱسمه.

العِبادَةُ

في مفردات ٱلقُرآن للرّاغب: ٱلعُبُودِيَّةُ: إظهار التذلُّل، والعبادة أبلغ منها.

وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي: عبد عبادة وعبودة وعبوديَّة: أطاع.

وفي ٱلصِّحاح للجوهريّ: أصل العبوديّة: الخضوع والتذلُّل والعبادة والطاعة.

بناءً على ما ذكروا يكون لـ «عبد عبادةً» معنيان:

أ ـ خضع وتذلَّل وأجرى الطقوس الدينيّة.

ب ـ أطاع.

وبالمعنى الثاني ورد في حديث ٱلإمام ٱلصّادق (ع)، (ت: ١٤٨ هـ) في قوله:

«من أطاع رجلاً فقد عبده»[1].

وفي رواية ٱلإمام ٱلرّضا (ع)، (ت: ٢٠٣ هـ) عن جدّه ٱلرّسول (ص) أنّه قال:

«من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان النّاطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان النّاطق عن إبليس فقد عبد إبليس»[2].

---

(١) أصول الكافي، للكليني (ت: ٣٢٩ هـ)، (٢ / ٣٩٨).

(٢) عيون أخبار الرّضا (١ / ٣٠٣)، ووسائل الشّيعة للحرّ العاملي (ت: ١١٠٤ هـ)، (١٨ / ٩٢) الحديث ١٣.

وعلى هذا يكون معنى:

عبادة الإله الخالق جلّ وعلا: إجراء الطّقوس الدّينية له مثل إقامة الصّلاة وأداء مناسك ٱلحجّ وصيام شهر رمضان. وعبادة الأصنام: إجراء الطّقوس الدّينية لها.

وعبادة ٱلرَّبّ: إطاعة الرَّبّ، لأنّ الرَّبّ هو المربّي الذي يسنّ نظام الحياة لمن يُربّيه. فمعنى قولنا لربّ ٱلعالمين: «إِيّاكَ نَعْبُدُ»: نطيع أوامرك لهدايتنا إلى ٱلصّراط المستقيم.



مُصْطلحات النّبوّة

- الوَحي
- النّبيّ
- الرّسول
- خليفة الله
- الأئمّة المُبَلِّغون
- الصّحابيّ والصّاحب

الوَحي ونزوله

أ ـ الوحي في اللّغة والمصطلح الإسلامي:

في اللّغة:

أوحى إليه وله: أشار وأومأ، وكلّمه بكلام خفي يخفى على غيره، وأمره، وألهمه، وأوحى فلان الكلام إلى فلان: ألقاه إليه [1].

في المصطلح الإسلامي:

الكلمة الإلٰهيّة التي يلقيها إلى أنبيائه ورسله بواسطة ملك يشاهده الرّسول ويسمع كلامه، كتبليغ جبرئيل لخاتم الأنبياء (ص) أو سماع كلام الله من غير معاينة، كسماع موسى كلام الله.

أو بالرؤيا في المنام كما أخبر الله عن قول إبراهيم لابنه إسماعيل في سورة الصّافّات:

﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي ٱلْـمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ (الآية ١٠٢).

أو بأنواع أُخرى من الوحي يعلّمه الله وتدركه رسله صلوات الله عليهم أجمعين.

ومن موارد استعماله في المصطلح الإسلامي في القرآن الكريم قوله تعالى:

---

(١) مصدرنا في ما نذكر من معاني المصطلحات:
أ ـ مفردات القرآن للأصبهاني. ب ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم.

أ ـ في سورة النّساء:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ (الآية ١٦٣).

ب ـ في سورة الشورى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الآية ٧).

ج ـ في سورة المؤمنون:

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا﴾ (الآية ٢٧).

د ـ في سورة الأعراف:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (الآية ١١٧).

﴿... وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ ٱسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ ٱضْرِب بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ...﴾ (الآية ١٦٠).

ب ـ نزول الوحي وتنزيله:

١ ـ نزل نزولاً: انحطّ من علّو إلى سفل مكاناً أو معنى. ونزول الكتب السماويّة بلوغها إلى من أُنزِلَت عليه.

٢ ـ تنزّل تنزّلاً: نزل في تمهّل وتدرّج.

٣ ـ أنزله نزولاً ونزّله تنزيلاً: جعله ينزل، والفرق بين الإنزال والتنزيل في وصف القرآن والملائكة انّ التنزيل يختصّ بالموضع الذي يشير إلى إنزاله ويكون التنزيل تدريجياً بينما الإنزال عامّ.

ومثال النزول من الأعلى مكاناً إلى الأسفل قوله ـ تعالى ـ في سورة النحل:

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ (الآية ٦٥).

ومثال النزول المعنوي وبلوغ الكتب السماويّة إلى من أُنزِلَت عليه قوله تعالى:

أ ـ في سورة الشعراء:

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ (الآيتان ١٩٣ و ١٩٤).

ب ـ في سورة طٰه:

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ (الآية ٢).

ومثال التنزّل في تمهّل وتدرّج قوله تعالى في سورة فصّلت:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ (الآية ٣٠).

ومثال الاختصاص بالموضع الذي يشير إلى إنزاله قوله تعالى: .

أ ـ في سورة الأنعام:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الآية ٧).

ب ـ في سورة الأنعام:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةَ...﴾ (الآية ١١١).

ومثال الانزال التدريجي قوله تعالى في سورة الإسراء:

﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ (الآية ١٠٦).

وجاء في القرآن نزل وأنزل بمعنى أوحى في قوله تعالى:

أ ـ في سورة البقرة:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (الآية ٤).

ب ـ في سورة آل عمران:

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدىً وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ (الآيتان ٣ و ٤).

ج ـ في سورة يوسف:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ﴾ (الآية ٢).

د ـ في سورة الإنسان:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ تَنزِيلاً﴾ (الآية ٢٣).

هـ ـ و (نزل به) في قوله تعالى في سورة الشعراء:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الآيات ١٩٢ ـ ١٩٥).

كما جاء أوحى بمعنى نزل وأنزل في قوله تعالى:

أ ـ في سورة الشورى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الآية ٧).

ب ـ في سورة الأنعام:

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ (الآية ١٩).

والوحي والإنزال من الله قد يكون معناه ولفظه وكتابته من الله سبحانه وينزله الله مرّة واحدة على رسوله كما كان شأن التوراة حيث قال الله سبحانه في سورة الأعراف:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾.

وقد يكون لفظه ومعناه من الله وينزل متدرِّجاً على الرّسول (ص) كما قال سبحانه في وصف القرآن:

أ ـ في سورة المزمل:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيكَ قَولاً ثَقِيلاً﴾.

ب ـ في سورة الإسراء:

﴿وَقرآناً فَرقناهُ لِتَقرأَهُ عَلىٰ ٱلناسِ عَلىٰ مُكثٍ وَنَزَّلناهُ تَنزيلاً﴾.

وقد يوحي الله المعنى إلى رسوله ويبلغ الرّسول (ص) المعنى بلفظه وهو بعض من سنّة الرّسول أي حديثه كما روى الدارمي بسنده وقال:

«كان جبريل ينزل على رسول الله بالسنّة كما ينزل بالقرآن»[1].

وكذلك كان الله يوحي إلى الرّسول (ص) ببيان الآيات مع إنزال الآيات كما أخبر الله تعالى عن ذلك في سورة القيامة حيث قال تعالى:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فإذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

خلاصة البحث:

أوّلاً ـ الوحي:

الوحي في المصطلح الإسلامي كلمة الله ـ جلّ اسمه ـ التي يلقيها إلى أنبيائه ورسله بسماع كلام الله ـ جلّ جلاله ـ دونما رؤية الله ـ سبحانه ـ مثل تكليمه موسى بن عمران (ع)، أو بنزول ملك يشاهده الرّسول ويسمعه مثل تبليغ جبرائيل (ع) لخاتم الأنبياء (ص)، أو بالرؤيا في المنام مثل رؤيا إبراهيم (ع) في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل (ع)، أو بأنواع أُخرى لا يبلغ إدراكها علمنا.

---

(١) سنن الدارمي (١ / ١٤٥)، المقدّمة، باب السنّة قاضية على القرآن.

ثانياً ـ نزول الوحي:

أنزل الله وحيه وكتابه ونزّله: جعله ينزل.

وإنزال القرآن والملائكة إلى محل نزوله مثل قلب النبي، والتنزيل: إنـزال تدريجي للوحي أو الكتاب والإنزال عامّ.

والتنزّل: نزول في تمهّل وتدرّج.

واستعمل نزل وأنزل في القرآن الكريم بمعنى أوحاه، وكذلك العكس.

ثالثاً ـ ما أوحى الله إلى رسله:

ينقسم ما أوحى الله إلى رسله إلى قسمين:

أ ـ ما أوحي إليهم لفظه ومعناه وكان ذلك شأن كتبه التي أنزلها إلى رسله وآخرها القرآن الكريم.

ب ـ ما أنزل الله المعنىٰ وبلّغته رسله بلفظهم وهذا ما يسمّىٰ بـالمصطلح الإسلامي سنّة الرّسول ومن جملتها أحاديث الرّسول (ص) في تـفسير آي القرآن وبيان مجملها ومتشابهها.

النّبيّ والنّبوّة

النّبوّة في اللّغة: الرفعة وعلوّ المنزلة، وورد النبيُّ في قوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿ما كانَ لِبشر أَنْ يُؤتيَهُ اللهُ الكتابَ وَالحُكمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنّاسِ كُونُوا عِباداً لي مِن دُونِ اَللهِ...﴾ (الآية ٧٩).

نظيراً لمن آتاه الله الكتاب والحكم وقسيماً لهما.

إذاً فالنُّبُوَّةُ مَنْزِلَةٌ خَاصَّةٌ فُضِّلَ النبيُّ بِها بِما آتاهُ اللهُ مِنَ العِلْمِ وقُرْبِ المنزلةِ مِنَ اللهِ، وعليه فإنَّ النبيَّ من أُوتِيَ تلك المنزلة، وهي المقصودة في خطابه تعالى لنبيّه وقوله في سورة الأحزاب:

﴿يا أيُّها النَّبيُّ إنّا أرسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً ونَذيراً وَداعياً إلىٰ اللهِ بِإذنِهِ وَسِراجاً مُنيراً﴾ (الآية ٤٥).

فإنّ المعنى: يا ذا المنزلة الرفيعة، إنّا أرسلناك ... الخ.

وكذلك في قوله تعالى في سورة الأحزاب:

﴿ألنَّبِيُّ أولىٰ بِالمؤمنينَ مِن أَنفسِهِم﴾ (الآية ٦).

والنبي يُوحى إليه، كما قال سبحانه وتعالى في سورة النّساء:

﴿إنّا أَوْحَيْنا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنَّبيِّينَ مِن بعدِه...﴾ (الآية ١٦٦).

إذاً فالنبي مصطلح إسلامي بمعنى: إنسان ذي منزلة رفيعة عند الله يوحى إليه وقد يبعث الله الربُّ النبيِّين رُسلاً مبشِّرين ومنذِرين لهداية النّاس، كما قال سبحانه وتعالى في سورة البقرة:

﴿كانَ النّاسُ أُمّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيّينَ مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتاب﴾ (الآية ٢١٣).

وَأَنزَلَ معهم الكتابَ أي: إنّ الله الربّ أنزل الكتب مع من كان من النبيّين، وليس المقصود أنّ الربّ أنزل مع كل نبيٍّ كتاباً.

ثمّ إنّ الربَّ فضّل النبيّين على بعض كما قال سبحانه في سورة الإسراء:

﴿ولَقَد فضَّلنا بَعضَ ٱلنَّبِيِّينَ علىٰ بَعض﴾ (الآية ٥٥).

وأرسل رسله إلى النّاس من النبيّين كالآتي بيانه.

الرّسول

الرّسول: حامل الرّسالة، وهو وسيلة هداية الربِّ للنّاس، وله شرف الوساطة بين الربِّ والمربوبين من البشر، ومرسل برسالة خاصّة إليهم، ويختاره الله ممَّن أُرْسِلَ إليهم ومن أهل لغتهم كما قال سبحانه وتعالى في سورة إبراهيم:

﴿وَما أَرسَلنا مِن رَسولٍ إلّا بِلِسانِ قَومِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم...﴾ (الآية ٥).

وفي قوله تعالى:

﴿وَإِلىٰ عادٍ أَخاهُم هُوداً﴾ (في سورتي الأعراف ٦٥، وهود ٤٥).

وفي قوله تعالى:

﴿وَإِلىٰ ثَمُودَ أَخاهُم صالِحاً﴾ (في سور: الأعراف ٧٣، وهود ٦١، والنمل ٤٥).

وفي قوله تعالى:

﴿وَإِلىٰ مَديَنَ أَخاهُم شُعَيباً﴾ (في سور: الأعراف ٨٥، وهود ٨٤، والعنكبوت ٣٦).

وانّ الحكمة في ذلك واضحة: ليتقوّىٰ برهطه في أداء التبليغ كما حكى الله تعالى في سورة هود عن قوم شعيب أنهم قالوا لشعيب:

﴿وَلَولا رَهطُكَ لَرَجَمناك﴾ (الآية ٩١).

ويرسل الربُّ الرّسل لهداية النّاس وإتماماً للحجّة عليهم كما قال سبحانه في سورة النّساء:

﴿ورُسُلاً مُبَشِّرينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلىٰ ٱللهِ حُجَّةٌ بَعدَ ٱلرُّسُل﴾ (الآية ١٦٥).

وقال تعالى في سورة الإسراء:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبعثَ رَسُولاً﴾ (الآية ١٥).

وقال عزّ اسمه في سورة يونس:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فإذا جاءَ رَسُولُهُم قُضِيَ بَيْنَهُم بِالقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمون﴾ (الآية ٤٧).

وتستحق الأُمم التي تعصي الرّسول عذاب الدّنيا والآخرة كما أخبر سبحانه عن فرعون ومن قبله وقال في سورة الحاقة:

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِم فَأَخَذَهُم أَخذَةً رابِيةً﴾ (الآية ١٠).

وتكون معصية الرّسول معصية الله الربّ، كما قال سبحانه في سورة الجن:

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خَالدينَ فِيها أبداً﴾ (الآية ٢٣).

واختار الله الرّسل من الأنبياء، وكان عدد الرّسل أقلَّ من عدد الأنبياء كما ورد ذلك في ما رواه أبوذر وقال:

[... فقلت: يا رسول الله (ص)! كم هي عدّة الأنبياء؟

قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرّسل من ذلك: ثلاثمائة وخمسة عشر، جمّاً غفيراً»][1].

وبناءً على ما ذكرناه فإنَّ كلَّ رسول نبيٌّ، وليس كل نبيّ رسولاً مثل اليسَعَ (ع) فإنَّه كان نبيّاً ووصيّاً للكليم موسى بن عمران (ع).

ومن الرّسل من جاء بشريعة ناسخة لبعض ما في الشريعة السابقة من المناسك، كما كان شأن شريعة موسى (ع) بالنسبة إلى الشرائع السابقة على

---

(١) مسند أحمد: (٥ / ٢٦٥ و ٢٦٦)، وبتفصيل أوفى في معاني الأخبار للصدوق ص: ٩٥، والخصال للصّدوق (٢ / ١٠٤)، والبحار (١١ / ٣٢ ح ٢٤)، واللفظ لأحمد.

شريعته، ومنهم من جاء بشريعة متمّمة ومجدِّدة للشريعة السابقة كما كان شأن شريعة خاتم الأنبياء (ص) بالنسبة إلى حنيفية إبراهيم الخليل (ع) كما قال سبحانه وتعالى في سورة النحل:

﴿ثُمَّ أوحَينا إليكَ أنِ ٱتَّبِع مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفَاً...﴾ (الآية ١٢٣).

وقال تعالى في سورة المائدة:

﴿أَليومَ أكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم وَأتمَمْتُ عليكمْ نِعْمَتي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلإسلامَ دِيناً﴾ (الآية ٣).

خليفة الله في الأرض

١ ـ في المصطلح الإسلامي:

ورد «خليفة الله في الأرض» في المصطلح الإسلامي بمعنى من أصطفاه الله من البشر وجعله إماماً للنّاس وحاكماً.

وقد ورد بهذا المعنى في قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة...﴾ (الآية ٣٠).

وفسّر بعضهم الآية بأنَّ الله تعالى جعل آدم (ع) خليفته في الأرض؛ وفسّرها آخرون بأنّ الله تعالى جعل نوع الإنسان خليفته في الأرض، ويؤيد التفسير الأوّل قوله تعالى في سورة (ص):

﴿يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين النّاس...﴾ (الآية ٢٦).

فإنّه لو كان معنى الآية الأولى: إنّ الله جعل نوع الإنسان خليفته في الأرض فلا معنى عندئذ لتخصيص داود (ع) بجعله خليفة الله في الأرض من بين نوعه الإنساني الذي كان الله قد جعله خليفته في الأرض قبل داود (ع) ومع داود (ع) وبعده.

وقد أستعمل خليفة الله بهذا المعنى في روايات أئمّة أهل البيت (ع)[1].

جعل الله خلفاءه أئمّة للنّاس:

وقد جعل الله تعالى خلفاءه في الأرض أئمّة للنّاس وآتاهم الكتاب

---

(١) راجع البحار (٢٦ / ٢٦٣) الحديث (٤٧) نقلاً عن كنز الفوائد للكراجكي، والكافي (١ / ٢٠٠)، ومن لا يحضره الفقيه (٢ / ٣٦٩ و ٣٧١).

والنّبوّة، كما أخبر الله تعالى عن إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب في سورة الأنبياء وقال:

﴿... وكلاً جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا وأوْحينا إلَيْهم فعلَ الخَيْرات وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وكانوا لنا عابدين﴾ (الآيتان ٧٢ و٧٣).

وقال جلّ ذكره في سورة الأنعام:

﴿وتلك حُجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه ووهبنا له إسحق ويعقوب كُلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريّته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسىٰ وهارون... * وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس... * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكُلاً فضّلنا على العالمين *... واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مُستقيم *... أُولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنّبوّة﴾ (الآيات ٨٣ - ٨٩).

إذاً فإنّ من جعله الله خليفة في الأرض يحكم بين النّاس، جعله - أيضاً - إماماً لهم يهديهم بكتاب الله ويبلغهم شريعته. وبناءً على ذلك يكون أهم وظائف خلفاء الله التبليغ. كما ورد التصريح بذلك في قوله تعالى:

أ - في سورة النحل:

﴿فهل على الرّسل إلّا البلاغ المبين﴾ (الآية ٣٥).

ب - في سورة النور (الآية ٥٤) وسورة العنكبوت (الآية ١٨):

﴿وما على الرّسول إلّا البلاغ المبين﴾.

ج - وأمثالها في سور:

آل عمران (الآية ٢٠)، والمائدة (الآيتان ٩٢، ٩٩)، والرعد (الآية ٤٠)، وإبراهيم (الآية ٥٢)، والنحل (الآية ٣٥)، والشورى (الآية ٤٨)، والأحقاف (الآية ٣٥)، والتغابن (الآية ١٢).

ثمّ إنه لا يبلّغ عن الله عزّ وجلّ إلّا رسول يوحى إليه، أو وصيّ عيّنه الله لذلك. كما نجد مثالاً له في خبر تبليغ الآيات العشر الأُولى من سورة براءة كالآتي تفصيله.

أ ـ في مسند أحمد وغيره واللفظ لمسند أحمد قال:

«عن علي قال:

لمّا نزلت عشر آيات من براءة على النبيّ (ص) دعا النبيُّ (ص) أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكّة، ثمّ دعاني النبيُّ (ص) فقال لي:

أدرك أبا بكر، فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب به إلى أهل مكّة فاقرأه عليهم، فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر إلى النبيّ (ص) فقال: يا رسول الله! نزل فيَّ شيءٌ؟ قال: لا. ولكن جبرئيل جاءني فقال: لن يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك»[1].

ب ـ في تفسير السيوطي عن أبي رافع قال:

بعث رسول الله (ص) أبا بكر (رض) ببراءة إلى الموسم، فأتى جبرئيل (ع) فقال: إنّه لن يؤدّيها عنك إلّا أنت أو رجل منك، فبعث عليّاً (رض) على أثره حتّى لحقه بين مكّة والمدينة فأخذها فقرأها على النّاس في الموسم[2].

ج ـ وفي رواية أُخرى عن سعد بن أبي وقاص قال:

«إنّ رسول الله (ص) بعث أبا بكر (رض) ببراءة إلى أهل مكّة، ثمّ بعث عليّاً (رض) على أثره فأخذها منه. فكأنّ أبا بكر (رض) وجد في نفسه فقال

---

(١) مسند أحمد (١/ ١٥١)، وتحقيق أحمد محمّد شاكر (٢/ ٣٢٢) الحديث ١٢٩٦، وفي الدرّ المنثور للسيوطي (٣/ ٢٠٩)، وفيه عن أنس بن مالك وسعد بن أبي وقاص، وجاء في لفظ سعد: «... فكأنّ أبا بكر (رض) وجد في نفسه فقال النبيّ (ص) يا أبا بكر! إنّه لا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو رجل منّي».

(٢) تفسير الدرّ المنثور للسيوطي (٣/ ٢١٠).

النبيّ (ص) يا أبا بكر! إنّه لا يؤدِّي عنِّي إلّا أنا أو رجل منِّي»[1].

في هذا الخبر أرسل الرّسول (ص) صحابيَّهُ أبا بكر لتبليغ عشر آيات من صدر البراءة إلى المشركين في حجّ العام التاسع للهجرة، فأتاه جبرئيل ـ أمين وحي الله ـ وقال له: إنّه لن يؤدِّيها عنك إلّا أنت أو رجل منك. أي إن تبليغ عشر آيات من سورة البراءة للمخاطبين بها مباشرة وظيفة تبليغية خاصّة بالرّسول، ولن يؤدي هذه الوظيفة عن الرّسول إلّا هو أو رجل منه وهو عليّ ابن أبي طالب وصيّه على شريعته. كما ستأتي الروايات في تعيين الوصيّ للرسول (ص) في بحث الوصيّة إن شاء الله تعالى، ومن ثمّ ندرك أنّ التبليغ عن الله مباشرة وظيفة وولاية للرّسول ووصيّه.

يؤتي الله خلفاءه ما يعجز عنه البشر

أحياناً تقتضي حكمة الله أن يأتي خليفته ـ الذي جعله إماماً للنّاس ومبلِّغاً لكتابه وشريعته ـ بآية تدلُّ على صدقه في ما يبلِّغ عن الله، وتسمّى تلك الآية في العرف الإسلامي بالمعجزة؛ لعجز البشر عن الإتيان بمثلها.

كما أخبر الله تعالى عن بعض ما أتى به رسولاه موسى وعيسى (ع) وقال في خبر ما أتى به كليمه موسى (ع):

أ ـ في سورة الأعراف:

﴿فألقى عصاه فإذا هي ثُعبان مبين﴾ (الآية ١٠٧).

﴿ونزَع يدَه فإذا هي بيضاءُ للناظرين﴾ (الآية ١٠٨).

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألقِ عصاكَ فإذا هي تلقفُ ما يأفكون﴾ (الآية ١١٧).

---

(١) تفسير الدرّ المنثور للسيوطي (٣ / ٢٠٩).

﴿وأوحينا إلى موسىٰ إذ آستسقاهُ قومُه أنِ آضْرِبْ بِعَصاكَ الحَجرَ فانبجست منهُ آثنتا عشَرَةَ عَيْناً قد عَلمَ كلّ أُناسٍ مشربهم﴾ (الآية ١٦٠).

ب ـ في سورة الشعراء:

﴿فألقى عصاهُ فإذا هي ثُعبان مبين﴾ (الآية ٣٢).

﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ (الآية ٤٥).

﴿فأوحينا إلى موسى أن آضرب بعصاك الحجرَ فانفلقَ فكان كل فِرقٍ كالطود العظيم﴾ (الآية ٦٣).

وأخبر جلّ ذكره عما آتى رسوله عيسى بن مريم (ع) في سورة المائدة، فقال تعالى:

﴿... إذ أيّدتك بروحِ القدس تكلِّم النّاس في المهدِ وكَهْلاً وإذ علَّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطِّين كهيئةِ الطَّير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئُ الأكمهَ والأبرصَ بإذني وإذ تُخْرِج الموتىٰ بإذني...﴾ (الآية ١١٠).

وفي سورة آل عمران حكى عن عيسى (ع) أنّه قال:

﴿... وأُحيي الموتىٰ بإذنِ الله وأُنبئكم بما تأكلون وما تدَّخرون في بيوتكم...﴾ (الآية ٤٩).

وأخبر تعالى عن ما آتى داود وسليمان الوصيين على شريعته في سورة الأنبياء وقال عزّ آسمه:

﴿وسخّرنا مع داودَ الجبال يُسبِّحْنَ والطَّيْر...﴾ (الآية ٧٩).

﴿ولسليمانَ الريحَ عاصفة تجري بأمره... * ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك...﴾ (الآيتان ٨١ و ٨٢).

وليس من الضروري أن يؤتي الله جميع الأئمة جميع المعجزات كما لم يذكر

سبحانه عن هود ولوط وشعيب أنّه آتاهم معجزات موسى وعيسى وداود وسليمان صلوات الله عليهم أجمعين، وكذلك لم يمكّنِ النّاس بعض الرّسل من أن يحكموا بينهم بالعدل، كذلك لم يتسنَّ للرسول موسى (ع) ولخاتم الرّسل محمّد (ص) أن يحكما بين النّاس في أوّل أمرهما. بينما هم أئمّة خلفاء منذ بدء تكليفهم بالتبليغ. إذاً فإنّ الخلافة والإمامة ملازمتان لتعيين الله صفيّاً من أصفيائه لتبليغ كتابه ودينه، وليستا ملازمين للحكم بين النّاس وإتيان المعجزات. وبناءً على ذلك فإنّ خليفة الله هو المبلّغ عن الله.

كان ذلكم معنى خليفة الله في كتاب الله.

وورد معنى خليفة الرّسول (ص) في حديث الرّسول (ص) كالآتي: «اللّهمّ آرحم خلفائي، اللّهمّ آرحم خلفائي، اللّهمّ آرحم خلفائي».

قيه له: يا رسول الله! من خلفاؤك؟

قال: «الذين يأتون من بعدي يروون حديثي وسنّتي»[1].

إذاً فإن خليفة الله هو الذي عيّنه الله لتبليغ شريعته، وخليفة الرّسول هو الذي يقوم بتبليغ حديث الرّسول وسنّته من تلقاء نفسه.

كذلك آستعمل مصطلحا خليفة الله وخليفة الرّسول في الكتاب والسنّة واستعملا في مصطلح المسلمين كالآتي بيانه:

٢ ـ الخليفة وخليفة الله في مصطلح المسلمين:

مرّ بنا في بحث معنى الخليفة اللغوي أنّ أبا بكر كان يسمّى بخليفة رسول الله (ص) وعمر بخليفة خليفة رسول الله (ص)، وأنّه سُمّي بعد ذلك بأمير المؤمنين، وبقي ذلك متداولاً إلى آخر الخلفاء العثمانيين، وإلى جانب ذلك سُمّي الحاكم الإسلامي الأعلى بما يأتي:

---

(١) راجع مصادره في المجلد الثاني من معالم المدرستين، ط ٣، ص ٥٨ ـ ٥٩.

أ ـ في العصر الأموي والعباسي:

تعارف أتباع مدرسة الخلفاء منذ العصر الأموي وإلى العصر العباسي على تسمية الحاكم الأعلى بخليفة الله.

فقد قال الحجاج في خطبة صلاة الجمعة:

فاسمعوا وأطيعوا لخليفة الله وصفيّه عبدالملك بن مروان[1].

ولمّا قيل في مجلس المهديّ العباسيّ: إنّ الخليفة الأموي الوليد كان زنديقاً، قال المهدي:

خلافة الله عنده أجلُّ من أن يجعلها في زنديق[2].

واُشتهر ذلك على لسانهم في العصر الأموي والعصر العباسي، وورد ذكره في شعر الشعراء، كما قال جرير في قصيدة أنشدها في الخليفة عمر بن عبدالعزيز وقال:

خليفة الله ماذا تأمرون بنا | لسنا إليكم ولا في دار منتظر[3]

وإنّ عمر بن عبدالعزيز مع اُشتهاره بالتديُّن لم ينكر ذلك من قول جرير.

وقال ـ أيضاً ـ مروان بن أبي حفصة (ت: ١٨٢ هـ) في الخليفة أبي جعفر المنصور في قصيدته التي مدح بها معن بن زائدة الشيباني (ت: ١٥١ هـ) حيث قال:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً | بالسيف دون خليفة الرّحمٰن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه | من وقع كلِّ مهنَّد وسنان[4]

---

(١) سنن أبي داود (٢ / ٢١٠)، ح ٤٦٤٥ باب في الخلفاء.

(٢) تاريخ ابن الأثير (١٠ / ٧ ـ ٨).

(٣) شرح شواهد المغني للسيوطي، ط. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (١ / ١٩٧).

(٤) الكنى والألقاب للقمّي (١ / ٢٥٢).

ب ـ في العصر العثماني:

في عصر العثمانيّين أستعمل لفظ الخليفة أسماً لسلطان المسلمين الأعظم[١].
بدون إضافة إلى (الله) أو (الرّسول).

ج ـ في عصرنا:

اشتهر في عصرنا أنّ المقصود في قوله تعالى للملائكة: ﴿إنّي جاعلٌ في الأرضِ خليفة﴾ أنّ الله تعالى جعل نوع الإنسان خليفته في الأرض[٢]. وبناءً عليه يكون معنى (خليفة الله في الأرض) نوع الإنسان، ومعنى (استخلف) و(يستخلف) وغيرهما ممّا ورد من مادّة (خلف) استخلاف نوع الإنسان، وأشتهر ـ أيضاً ـ أن المقصود في تسمية الحاكم الأعلى للمسلمين بالخليفة إلى آخر عصر الخلافة العثمانية أنّه خليفة رسول الله (ص) في الحكم على المسلمين. وعليه يكون معنى (الخليفة) خليفة رسول الله (ص)، ويصفون الخلفاء الأربعة بعد رسول الله (ص) بالراشدين دون من جاء بعدهم إلى آخر العثمانيين، واشتهرت هذه التسمية بين المسلمين حتى اليوم.

---

(١) راجع المعجم الوسيط، مادّة: (خلف).

(٢) قال سيّد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة﴾.

(وإذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلّم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض وتطلق فيها يده... وإذن فهذه منزلة عظيمة، منزله هذا الإنسان في نظام هذا الوجود على هذه الأرض الفسيحة). تفسير في ظلال القرآن (١ / ٦٥، ٦٦).

ويرى مؤلّف كتاب (خليفة وسلطان) و. و. پارتولد، ترجمة ايزدي، ط. طهران ١٣٥٨، ص١٦. أنّ هذا المعنى قد تسرّب إلى المجتمعات الاسلامية من أفكار أهل الكتاب.

انتقال مصطلح الخليفة من مدرسة الخلفاء إلى أتباع مدرسة أهل البيت (ع)

جرى بعد الرّسول (ص) كل ذلك التبديل لمعنى (الخليفة) و(خليفة الله في الأرض) في مدرسة الخلفاء.

وفي مدرسة أهل البيت (ع) ورد لفظ (خليفة الله في الأرض) في روايات أئمّة أهل البيت (ع) بمعنى المصطلح الإسلامي كما أشرنا إليه.

وانتقل مصطلح (الخليفة) بمعنى: خليفة رسول الله (ص) من مدرسة الخلفاء إلى أتباع مدرسة أهل البيت (ع) منذ القرن الخامس الهجري وحتى اليوم. واستندت مدرسة الخلفاء إلى عدم ورود (الخليفة) بالمعنى الذي استحدثوه بعد الرّسول (ص) في حديث الرّسول (ص)، وقالوا: إنّ الرّسول (ص) ترك أُمّته هملاً ولم يعين المرجع من بعده.

وفي مقام الردّ عليهم استند أتباع مدرسة أهل البيت (ع) إلى ما ورد عن الرّسول (ص) في تعيين الإمام عليّ وصيّاً من بعده وقالوا: إنّ الرّسول (ص) عيّنه خليفة من بعده بالمعنى الذي استحدث للخليفة بعد الرّسول (ص) ولم يترك أُمّته هملاً[1].

جرى كل ذلك من أتباع المدرستين غفلة منهم عن أن المصطلح الذي أحدثته مدرسة الخلفاء بعد الرّسول (ص) لم يكن ليرد في حديث الرّسول (ص).

الخلاصة:

أ ـ خليفة الشخص في اللّغة: من يقوم بعمله في غيابه، وقد ورد بالمعنى اللغوي في القرآن وحديث الرّسول (ص) ومحاورات الصحابة.

---

(١) نجد بعض تلك الأدلّة في كتاب (الألفين) للعلّامة الحلّي (ره).

ب ـ خليفة الله في الأرض في المصطلح الإسلامي: من يعيِّنه الله تعالى لتبليغ شريعته آخذاً من الوحي أو من الرّسول (ص)، وللحكم بين النّاس، ويؤتي بعضهم ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله، وقد ورد بهذا المعنى في القرآن وروايات أئمّة أهل البيت (ع).

ج ـ خليفة الرّسول في حديث الرّسول (ص) : من يقوم بتبليغ حديثه وسنّته.

د ـ في مصطلح المسلمين سُمّي أبو بكر بخليفة رسول الله (ص)، وسُمّي عمر بخليفة خليفة رسول الله، ثمّ سُمّي عمر بأمير المؤمنين وبقيت هذه التسمية للحاكم الإسلامي الأعلى إلى آخر الخلفاء العثمانيين، وفي العهدين الأموي والعباسي أُضيف إلى ذلك تسميته بخليفة الله، وإلى جانب ذين الاسمين اشتهرت تسمية الحاكم الأعلى في العهد العثماني بـ(الخليفة) أي خليفة الرّسول، وانتشرت هذه التسمية لدى المسلمين بعد العهد العثماني حتى اليوم، وقيل لجميع من ولي الحكم بعد الرّسول (ص) إلى العثمانيين بـ (الخليفة) أي خليفة الرّسول (ص)، وسُمّي الخلفاء الأربعة بعد الرّسول (ص) بـ(الخلفاء الرّاشدين)، وانتقل مصطلح (الخليفة) إلى أتباع مدرسة أهل البيت (ع)، وقد أدّت الغفلة عن هذا الأمر إلى التشويش على المسلمين فاشتهر لدى مدرسة الخلفاء أنّ الرسول (ص) ترك أُمّته هملاً ولم يعيِّن المرجع من بعده لأن المصطلح الذي استحدثوه بعد الرّسول (ص) لم يرد في حديث الرّسول (ص)، واستند أتباع مدرسة أهل البيت إلى ما ورد عن الرّسول (ص) في تعيين الإمام عليّ وصيّاً بعده، وقالوا: إن الرّسول (ص) عيّنه خليفة للمسلمين بالمعنى الذي استحدثه المسلمون للخليفة بعد الرّسول (ص)، واشتدّ الخلاف بين المسلمين في هذا الأمر.

الأئمّة المُبَلِّغُون

اَلإمامُ في اللّغة: الإنسـان الذي يُؤْتَمُّ به ويُقْتدىٰ بقوله أو فعله مُحِقّاً كان أو مُبْطِلاً[1].

فمن الأوّل ما ورد في قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَـمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ للنّاسِ إماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِمِين﴾. (الآية / ١٢٤)

ومن الثاني ما ورد ذكره في قوله تعالى:

﴿فقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُون﴾. (التوبة / ١٢)

والإمام في الإسلام هو الهادي إلى سبيل الله بأمر من الله؛ إنساناً كان، كما ورد ذكره في قوله تعالى:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَـمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ للنَّاسِ إماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي ٱلظّالِمِين﴾. (البقرة / ١٢٤)

وقوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا...﴾. (الأنبياء / ٧٣)

أو كان كتاباً كما ورد ذكره في قوله تعالى:

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسىٰ إماماً وَرَحْمَةً﴾. (هود / ١٧)

وندرك من فحوى الآيات المذكورة أعلاه أنّ شرط الإمام في الإسلام إن

---

(١) راجع مادّة: (أمَّ) في معاجم اللّغة.

كان كتاباً أن يكون منزّلاً من قِبَل الله على رسوله لهداية النّاس كما كان شأن كتاب محمّدٍ (ص) : القرآن الكريم، ومن قبله كتاب موسى: التّوراة، وكذلك شأن سائر الأنبياء.

وإن كان إنساناً؛ أن يكون معيّناً من قِبَلِ اللهِ، لقوله تعالى.

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً﴾ و ﴿عَهْدِي﴾.

وأن يكون غير ظالم لنفسه ولا لغيره أي غير عاص لله، لقوله تعالى:

﴿لا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِين﴾.

في ضوء ما سبق يتّضح أنّ الإمام في الإصطلاح الإسلامي هو:

أ ـ الكتاب المنزل من قِبَلِ الله على رسوله لهداية النّاس.

ب ـ الإنسان المعيّن من قِبَلِ الله لهداية النّاس وأن يكون معصوماً من الذنوب.

ثمّ إنّ الإمام المعيَّن من قِبَلِ الله تعالى لهدايةَ النّاس إمّا أن يكون رسولاً صاحب شريعة، أو وصيّه على شريعته. وستأتي دراسة مصطلح (الوصيّ) في فصل الإمامة بعونه تعالىٰ.

الصّحابيُّ والصّاحِب

في اللّغة:

الصاحب (وجمعه: صحب وأصحاب وصحاب وصحابة): المعاشر[1] والملازم[2]. ولا يقال إلّا لمن كثرت ملازمته[3]، وإن المصاحبة تقتضي طول لبثه[4].

وبما أنّ الصحبة تكون بين آثنين؛ فقد لزم إضافة [(صاحب) وجمعه الصحب و...] إلى آسم آخر في الكلام. كما ورد في قوله تعالى في سورة آلشُّعراء: ﴿قالَ أصحابُ مُوسىٰ﴾ (الآية ٦١).

تعريف الصّحابيّ لدى المدرستين

تعريف الصّحابيّ في مدرسة الخلفاء

قال آبن حجر في مقدّمة الإصابة، الفصل الأوّل في تعريف الصحابيّ:

الصحابيّ من لقي النبيّ (ص) مؤمناً به، ومات على الإسلام. فيدخل في من لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى[5].

---

(١) لسان العرب، مادّة: (صحب).

(٢) مفردات الرّاغب، مادّة: (صحب).

(٣)، (٤) المصدر السابق.

(٥) الإصابة (١ / ١٠).

وهذا القول بمدرسة الخلفاء هو مصدر الشهيد الثاني حين قال في كتابه الدراية: الباب

وذكر في (ضابط يستفاد من معرفته صحبة جمع كثير) وقال: (إنّهم كانوا في الفتوح لا يؤمّرون إلّا الصحابة).

(وانّه لم يبق بمكّة ولا الطّائف أحد في سنة عشر إلّا أسلم وشهد مع النبيّ حجّة الوداع) و(أنّه لم يبق في الأوس والخزرج أحد في آخر عهد النبي (ص) إلّا دخل في الإسلام) و(ما مات النبيّ (ص) وأحد منهم يظهر الكفر)[1].

وإذا راجع باحث أجزاء كتابنا (خمسون ومائة صحابيّ مختلق) يرى مدى تسامحهم في ذلك ومبلغ ضرره على الحديث.

تعريف الصّحابيّ بمدرسة أهل البيت (ع)

إنّ مدرسة أهل البيت ترى أنّ تعريف الصحابي: هو ما ورد في قواميس اللّغة العربية كالآتي:

الصاحب وجمعه: صَحب، وأصحاب، وصِحاب، وصَحابة[2] و(الصاحب: المعاشر[3] والملازم[4])، (ولا يقال إلّا لمن كثرت ملازمته)[5]، (وانّ المصاحبة تقتضي طول لبثه)[6].

وبما أنّ الصُّحبة تكون بين اثنين، يتّضح لنا أنّه لا بدّ أن يضاف لفظ (الصاحب) وجمعه (الصَحب و...) إلى اسمٍ ما في الكلام، وكذلك ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿يا صاحبي السّجن﴾ و﴿أصحاب موسى﴾، وكان يقال في عصر الرّسول (ص): (صاحب رسول الله) و(أصحاب رسول الله)

الرابع في بعض المصطلحات في أسماء الرجال وطبقاتهم: (الصحابيّ) من لقي النبيّ مؤمناً به ومات على الإسلام.

(١) المصدر السابق ص ١٦ وقبله ص ١٣.

(٢)، (٣) راجع لسان العرب، مادّة: (صحب).

(٤)، (٥)، (٦) مفردات الراغب: مادّة: (صحب).

مـضافاً إلى رسـول الله (ص) كـما كـان يـقال: (أصـحاب بـيعة الشّـجرة) و(أصحاب الصّفّة) مضافاً إلى غيره، ولم يكن لفظ الصاحب والأصحاب يوم ذاك أسماءً لأصحاب الرّسول (ص) ولكنّ المسلمين من أصـحاب مـدرسة الخلافة تدرّجوا بعد ذلك في تسمية أصحاب رسـول الله (ص) بـالصحابيّ والأصحاب، وعلى هذا فإنّ هـذه التسـمية مـن نـوع (تسـمية المسـلمين) و(مصطلح المتشرّعة).

مُصْطلحات قرآنيّة

- القُرْآن
- الكتاب
- المصحف
- السّورة والآية
- الجزء والحزب
- التلاوة والقراءة والإقراء
- النّسْخ

القُـرْآن

القرآن: هو كلام الله الذي نزّله نجوماً ـ في أوقاتها المعيّنة لانزالها ـ على خاتم أنبيائه محمّد (ص)، بلغة العرب ولهجة قريش منهم، ويـقابله الشـعر والنثر في الكلام العربي.

وعليه فإنّ الكلام العربي ينقسم إلى قرآن وشعر ونثر.

وكما أنّه يقال لديوان الشاعر: «شعر»، وللقصيدة في الديوان: «شـعر»، وللبيت الواحد فيه: «شعر» وللشطر الواحد أيضاً: «شـعر»، كـذلك يـقال لجميع القرآن: «قـرآن»، وللسـورة الواحـدة: «قـرآن»، وللآيـة الواحـدة: «قرآن»، وأحياناً لبعض الآية: «قرآن»، مثل ﴿وَمِمَّا رَزَقْـنَاهُمْ﴾ في الآيـة الثالثة من سورة البقرة. والقرآن بهـذا المـعنى، مـصطلح إسـلامي وحـقيقة شرعيّة. إنّ منشأ هذه الاستعمالات مجيئه في القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف.

أسماء أُخرى للقرآن[1]:

أستخرج العلماء من القرآن أسماء أُخرى للقرآن الكريم مثل: (الكـتاب) و(النور) و(الموعظة) و(كريم).

١ ـ الكتاب: لقوله تعالى في سورة البقرة:

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (ت: ٩٧٤ هـ) ط. القاهرة. النوع الخامس عشر: معرفة أسمائه (١ / ٢٧٣ و ٢٧٦).

﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٢ ـ النّور: لقوله تعالى في سورة النّساء:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ (الآية ١٧٤).

٣ ـ الموعظة: لقوله تعالى في سورة يونس:

﴿... قَدْ جَاءَتكُم مَوعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ (الآية ٥٧).

٤ ـ كريم: لقوله تعالى في سورة الواقعة:

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كريمٌ﴾ (الآية ٧٧).

وندرس من الأسماء الآنفة الكتاب فيما يأتي.

الكـتاب

يظهر بأدنى تدبّر في موارد استعمال الكتاب في القرآن الكريم بانها جاءت هي ونظائرها وصفاً للقرآن الكريم، وليست أسماء له، ما عدا الكتاب الذي ليس واضحاً أنه ليس اسماً للقرآن الكريم، ومن ثمّ ندرس موارد استعمال لفظ (الكتاب) في اللغة والقرآن الكريم في ما يأتي بإذنه تعالى:

جاء استعمال الكتاب في اللّغة والقرآن لمعان متعددة منها:

أوّلاً ـ في اللّغة:

أ ـ كتب الكتاب كتباً وكتاباً.

أي دوّن حروف الهجاء على أشكال تكون فيها الكلمات والجمل مثل قوله ـ تعالى ـ في سورة البقرة:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُم مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ (الآية ٧٩).

ب ـ جاء الكتاب مصدراً سمّي به المكتوب فيه، مثل قوله تعالى في حكاية قول بلقيس في سورة النمل:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (الآيتان ٢٩ و ٣٠).

ثانياً ـ في القرآن الكريم:

أُطلِقَ الكتاب في القرآن على التوراة والإنجيل والقرآن وكلّ كتاب أنزله الله على رسله مثل قوله ـ تعالى ـ في سورة البقرة:

١ ـ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ (الآية ٨٧) للتوراة.

٢ ـ ﴿... وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ﴾ (الآية ١١٣) للإنجيل.

٣ ـ ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الآيتان ١، ٢) للقرآن الكريم.

٤ ـ ﴿... فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ...﴾ (الآية ٢١٣) أي أنزل مع كلٍّ منهم كتاباً.

وسمّى اليهود والنصارى أهل الكتاب في قوله تعالى في سورة المائدة:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ﴾ (الآية ٦٨).

❁ ❁ ❁

كان هذا معنى الكتاب الذي يساوي المصحف في المعنى في اللّغة والقرآن الكريم واشتهر عند النحويين كتاب سيبويه في النحو بـ(الكتاب).

قال حاجي خليفة في باب الكتاب من كشف الظنون:

(كتاب سيبويه في النحو: كان كتاب سيبويه لشهرته وفضله علَماً عند النحويين، فكان يقال بالبصرة: وقرأ فلان الكتاب، فيُعلم أنّه كتاب سيبويه، وقرأ نصف الكتاب، فلا يشكّ أنّه كتاب سيبويه ...).

وشرحه أبو الحسن علي بن محمّد المعروف بابن خروف النحوي الأندلسي الأشبيلي (ت: ٦٠٩ هـ)، وسمّاه تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب.

وشرح أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري البغدادي الحنبلي (ت: ٦١٦ هـ) أبياته وسمّاه: لباب الكتاب.

ولأبي بكر محمّد بن حسن الزبيدي الأندلسي الأشبيلي (ت: ٣٨٠ هـ): أبنية الكتاب[1].

إذاً فليس (الكتاب) اسماً للقرآن في القرآن الكريم ولا في عرف المسلمين:

ونستنتج من هذا البحث ونقول:

إنّ العلماء أخطأوا إذ فسّروا ما جاء من لفظ (الكتاب) أو (كتاب) في محاورات الصحابة بمعنى القرآن، في حين أنهم قصدوا من (الكتاب) ما فرض الله على عباده، كما درسناها مفصلاً في بحث روايات اختلاف المصاحف، في المجلّد الثاني من كتاب (القرآن الكريم وروايات المدرستين).

---

(١) كشف الظنون لحاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله (ت: ١٠٧٦ هـ) تركيا، (٢ / ١٤٢٧ و ١٤٢٨).

وسيبويه، أبو مبشر، أو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر البصري، مولى بني الحارث بن كعب. توفي سنة ١٨٠ هـ.

المصـحف

١ ـ في اللّغة:

(الصحيفة: التي يُكتَب فيها، والجمع صحائف وصُحُف وصُحْف، والمُصْحف والمِصْحف: الجامع للصحف بين الدفّتين)[١].

وقالوا في تفسير الدفّتين، الدفّة: الجنب من كلّ شي وصفحته، ودفّتا الطبل: الجلدتان اللتان تكتنفانه، ويضرب عليها، ومنه دفّتا المصحف، يقال: حفظ ما بين الدفّتين[٢] ـ أي حفظ الكتاب من الجلد إلى الجلد.

وبناءً على ما ذكرنا، فإنّ المصحف: اسم للكتاب المجلّد، وذلك لأنّه إذا كانت الصحيفة هي ما يُكتَب فيها وجمعها الصحف، والمصحف: هو الجامع للصحف بين الدفّتين، والدفّتان ـ هما جلدتا الكتاب ـ فالمصحف في كلامهم بمعنى الكتاب المجلّد في كلامنا.

وبناءً على ما ذكرنا، إنّ المصحف: اسم لكلّ كتاب مجلد قرآناً كان أم غير قرآن.

٢ ـ في مصطلح الصحابة:

استعمل المصحف بالمعنى اللّغوي الذي ذكرناه في روايات (جمع القرآن) حتى عهد عثمان.

---

(١) راجع مادّة (صحف) في الصحاح للجوهري، (ت: ٣٩٣ هـ). والمحكم لابن سيده (ت: ٤٥٨ هـ). والمفردات للراغب، (ت: ٥٠٢ هـ). ولسان العرب لابن منظور (ت: ٧١١ هـ). والقاموس المحيط للفيروزآبادي (ت: ٨١٦ أو ٨١٧ هـ).

(٢) راجع تاج العروس للزبيدي (ت: ١٢٠٥ هـ) والمعجم الوسيط، مادّة: (دفف).

فقد روى البخاري عن الصحابي زيد بن ثابت ما ملخّصه: أن الخليفة أبا بكر أمره بجمع القرآن. قال: «فتتبّعتُ القرآن أجمعه، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفّاه الله، ثمّ عند عمر في حياته، ثمّ عند حفصة بنت عمر (رض)».

وروى بعدها عن أنس ما ملخّصه:

(أنّ عثمان عندما أراد أن يجمع القرآن أرسله إلى حفصة: أن ارسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثمّ نردّها إليك...) الخبر[1].

ومن الواضح أنّ الصحف والمصاحف ذكرا في الخبرين المذكورين آنفاً بنفس المعنى اللّغوي: (الكتاب المجلد).

وأكثر تصريحاً ممّا جاء عند البخاري، ما جاء عند ابن أبي داود السجستاني في باب: جمع القرآن في المصحف من كتابه: (المصاحف)، فقد روى فيه:

أ ـ عن محمّد بن سيرين، قال:

«لمّا توفّي النبيّ (ص) أقسم عليٌّ أن لا يرتدي الرداء إلّا لجمعة، حتّى يجمع القرآن في مصحف».

ب ـ عن أبي العالية:

(أنّهم جمعوا القرآن في مصحف في خلافة أبي بكر).

ج ـ عن الحسين:

(أنّ عمر بن الخطاب أمر بالقرآن، وكان أوّل من جمعه في المصحف)[2].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، (٣ / ١٥٠).

(٢) كتاب المصاحف للحافظ أبي بكر عبدالله بن أبي داود السجستاني (ت: ٣١٦

استشهدنا بهذه الروايات الثلاثة لأنّها تدلّ على أنّ في عصر روايتها كان المصحف في كلامهم أعمّ من القرآن، فقد جاء فيها على حسب التسلسل:

أ ـ (حتى يجمع القرآن في مصحف).

ب ـ (جمعوا القرآن في مصحف).

ج ـ (وأمر بالقرآن فجمع، وكان أوّل من جمعه في المصحف).

ولو كان المصحف لديهم هو القرآن لكان تفسير الروايات كالآتي:

أ ـ حتى يجمع القرآن في القرآن.

ب ـ جمعوا القرآن في القرآن.

ج ـ وكان أوّل من جمع القرآن في القرآن.

٣ ـ في روايات أئمّة أهل البيت (ع):

وقد جاء المصحف في روايات أئمّة أهل البيت (ع) بنفس المعنى اللغوي لمدرسة الخلفاء، فقد روى الكليني في باب (قراءة القرآن في المصحف):

الحديث الأوّل عن أبي عبدالله جعفر الصادق (ع)، قال:

من قرأ القرآن في المصحف مُتِّعَ ببصرهِ، وخُفِّفَ عن والديه، وإن كانا كافرين.

وفي الحديث الرابع منه ـ أيضاً ـ عن أبي عبدالله (ع)، قال: «قراءة القرآن في المصحف تُخفِّف العذاب عن الوالدين، ولو كانا كافرين»[1].

وبناءً على ما ذكرنا ثبت أن المصحف كان يستعمل في كلام الصحابة

هـ). تصحيح الدكتور اثر جفري، ط. الأُولى، القاهرة ١٣٥٥ هـ. والروايتان: أ. و ج. في ص ١٠ منه والرواية: ب في ص ٩ منه.

(١) أُصول الكافي، ط. طهران، سنة ١٣٨٨ هـ، (٢ / ٦١٣).

والتابعين والرواة بمدرسة الخلفاء ومدرسة أهل البيت (ع) ويراد به الكتاب المجلّد، أي: أنّ المصحف ٱستعمل في محاوراتها في عصر الإسلام الأوّل في معناه اللّغوي وٱشتهر بعد ذلك في مدرسة الخلفاء تسمية القرآن المدوّن والمخطوط بين الدفّتين بـ (المصحف).

٤ ـ في أخبار مدرسة الخلفاء:

وقد سُمِّي في مدرسة الخلفاء غير القرآن بالمصحف كالآتي:

مصحف خالد بن معدان:

روى كل من ابن أبي داود (ت: ٣١٦ هـ) وابن عساكر (ت: ٥٧١ هـ) والمزّي (ت: ٧٤٢ هـ) وابن حجر (ت: ٨٥٢ هـ) بترجمة خالد بن معدان وقالوا:

إنّ خالد بن معدان كان علمه في مصحف له ازرار وعرى[1].

فمن هو خالد بن معدان صاحب المصحف؟

كان خالد بن معدان من كبار علماء الشام ومن التابعين، أدرك سبعين من الصحابة، ترجم له أبن الأثير (ت: ٦٣٠ هـ) في مادّة الكلاعي[2]، وقال: توفّي خالد سنة ثلاث أو أربع أو ثمان ومائة هجريّة.

---

(١) المصاحف، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

وتاريخ دمشق، مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق، مصوّرة المجمع العلمي الإسلامي بطهران، (٥ / ٢ / ٢٥٩ أ).

وتهذيب الكمال، مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق، مصوّرة المجمع العلمي الإسلامي بطهران، (٢ / ١٧٠).

وتهذيب التهذيب (٣ / ١١٨ ـ ١١٩).

(٢) اللّباب في تهذيب الأنساب (٣ / ٦٢ ـ ٦٣).

٥ ـ اشتهار المصحف في كل ما كُتِبَ وجُعِلَ بين الدفّتين: الكتاب المجلّد

كان استعمال المصحف في ما كُتِبَ وجُعِلَ بين الدفّتين، أي الكتاب المجلّد مشهوراً ومتداولاً لدى العلماء والباحثين بمدرسة الخلفاء، وإليكم المثالين الآتيين لذلك:

أ ـ عنوان ابن أبي داود السجستاني من أعلام القرن الثالث الهجري في كتابه المصاحف كالآتي:

١ ـ جمع أبي بكر الصديق (رض) القرآن في المصاحف بعد رسول الله (ص).

٢ ـ جمع عليّ بن أبي طالب (رض) القرآن في المصحف[1].

ب ـ ومن المعاصرين قال ناصر الدين الأسد في كتابه مصادر الشعر الجاهلي: وكانوا يطلقون على الكتاب المجموع: لفظ المصحف، ويقصدون به مطلق الكتاب، لا القرآن وحده، فمن ذلك ما ذكره...

ثمّ نقل خبر مصحف خالد بن معدان من كتاب المصاحف لابن داود السجستاني[2].

٦ ـ في مصطلح الأُمم السابقة:

تسمية الكتب الدينية للأمم السابقة بالمصحف:

وكذلك سمّيت الكتب الدينية للأُمم السابقة بالمصحف كما جاء في طبقات ابن سعد بسنده:

---

(١) كتاب المصاحف ص ٥ و ١٠ منه، حسب التسلسل الذي أوردناه.

(٢) مصادر الشعر الجاهلي، الطبعة الخامسة، ص ١٣٩، وقد نقله من المصاحف للسجستاني، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

عن سهل مولى عُتيبة أنه كان نصرانياً من أهل مريس، وأنه كان يتيماً في حجر أُمّه وعمّه، وأنه كان يقرأ الإنجيل، قال: فأخذتُ مصحفاً، لعمّي فقرأته حتى مرّت بي ورقةٌ، فأنكرت كتابتها حين مرّت بي ومَسِستُها بيدي، قال: فنظرت فإذا فصولُ الورقة ملصق بغراء، قال: ففتقتُها فوجدت فيها نعت محمّد (ص)، أنه لا قصير ولا طويل، أبيض، ذو ضفيرين، بين كتفيه خاتم، يكثر الاحتِباء، ولا يقبل الصّدقة، ويركب الحمار والبعير، ويحتلب الشاة، ويلبس قميصاً مرقوعاً، ومن فعل ذلك فقد برئ من الكبر، وهو يفعل ذلك، وهو من ذرّيّة إسماعيل اسمه أحمد. قال سهل: فلما انتهيت إلى هذا من ذكر محمّد (ص) جاء عمّي، فلما رأى الورقة ضربني وقال: ما لَك وفتح هذه الورقة وقراءتها؟ فقلت: فيها نعت النبيّ (ص) أحمد. فقال: إنه لم يأت بعد[1].

۞ ۞ ۞

وهكذا وجدنا المصحف اسماً عامّاً للصحف بين الدفّتين وإن صحّ ما جاء في رواية المصاحف لابن أبي داود أنّ الخليفة أبا بكر كان قد سمّى القرآن بالمصحف فإنّ هذه التسمية لم تشتهر حتى عصر عثمان، كما يظهر ذلك من الخبرين اللّذين نقلناهما آنفاً من صحيح البخاري، وإنما اشتهرت تسمية القرآن بالمصحف بعد ذلك، وعند ذاك أيضاً لم تبق هذه التسمية منحصرة بالقرآن، بل سُمّيت كتب أُخرى في مدرسة الخلفاء ومدرسة أهل البيت بـ(المصحف). وكان منها مصحف فاطمة ابنة رسول الله (ص) كالآتي خبره:

---

(١) طبقات ابن سعد. ط. بيروت (١ / ٣٦٣).

٧ ـ مصحف فاطمة ابنة الرّسول (ص):

جاء في الروايات أنّ فاطمة ابنة رسول الله (ص) كان لها كتاب أسمه المصحف فيه إخبار بالمغيبات.

لقد جاء في بصائر الدرجات بأكثر من سند عن الإمام الصادق (ع) قال: قال أبو عبدالله لأقوام كانوا يأتونه ويسألونه عمّا خلّف رسول الله (ص) إلى عليّ (ع) وعمّا خلف عليّ إلى الحسن، لقد خلّف رسول الله (ص) عندنا ما فيها كل ما يحتاج إليه حتى أرش الخدش والظفر، وخلّفت فاطمة مصحفاً ما هو قرآن... الحديث[1].

إذن فقد كان لابنة رسول الله (ص) مصحف كما كان لخالد بن معدان كتاب اسمه المصحف فيه علمه.

وإنّ أئمّة أهل البيت الذين انتشر منهم هذا الخبر نصّوا على أنّه ما هو بالقرآن وليس فيه شيء من القرآن، بل فيه أخبار بالحوادث الكائنة في المستقبل. ومع الأسف الشديد أفترى بعض الكتّاب في مدرسة الخلفاء وقال: إنّ مصحف فاطمة عند أتباع مدرسة أهل البيت: قرآن آخر!!! ولكن أتباع مدرسة أهل البيت لم يقولوا هذا القول في شأن مصحف خالد ولا الكتاب لسيبويه.

٨ ـ مصاحف الصحابة:

ذكرنا في بحث اختلاف مصاحف الصحابة في المجلّد الثاني من كتاب (القرآن الكريم وروايات المدرستين):

---

(١) بصائر الدرجات ص ١٥٦. وأوردت موضع الحاجة من الحديث، وراجع تفصيل الخبر في معالم المدرستين (٢ / ٣٢٢).

إنّه كان لكثير من الصحابة مصاحف كتب كل منهم في مصحفه القـرآن وما سمعه من رسول الله (ص) في تفسير بعض آيات القرآن. إذاً كان معنى مصاحف الصحابة في عصر الصحابة: القرآن المكتوب مع حديث الرّسول في تفسير بعض آياته كما هو الحال في تفاسير القرآن بالمأثور مثل الدرّ المنثور في تفسير القرآن بالمأثور للسيوطي في مـدرسة الخـلفاء والبرهـان في تـفسير القرآن لدىٰ أتباع مدرسة أهل البيت (ع).

مثالان لمصاحف الصحابة:

أ ـ مصحف أمّ المؤمنين عائشة:

رووا عن أبي يونس مولى عائشة أنه قال أمرَتْني عائشة أن أكتب لهـا مصحفاً وقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذنّي: ﴿حَافِظُوا عَلَىٰ الصَّلَوٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ فلما بلغتها آذنتها فأملت عليّ (حافِظوا عـلى الصّـلاة والصّـلاة الوسطى «وصلاة العصر» وقوموا لله قانتين) قالت عائشة سمعتها من رسول الله (ص).

ب ـ مصحف أمّ المؤمنين حفصة:

عن أبي رافع مولى حفصة أنه قال: استكتبتني حفصة مصحفاً، فقالت: إذا أتيت على هذه الآية، فتعال حتى أمليها عليك كما قرأتها، فلما أتيت على هذه الآية: ﴿حافِظُوا عَلَىٰ ٱلصَّلَوٰتِ﴾، قالت: اكتب: ﴿حافِظُوا عَلَىٰ ٱلصَّلَوٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [وصلاة العصر][1].

ومصاحف أُخرى سوف نذكرها في ما يأتي بإذنه تعالى.

---

(١) راجع تفصيل أخبار مصاحف الصحابة باسنادها في المجلّد الثـاني مـن كـتاب (القرآن الكريم وروايات المدرستين) في بحث اختلاف مصاحف الصحابة.

٩ ـ مصحف الرّسول (ص) :

أوصى الرّسول (ص) الإمام عليّاً أن لا يرتدي رداءه بعد وفاته حتى يجمع الصحف التي كانت في بيت الرّسول (ص) التي كتب عليها القرآن بأمر الرّسول (ص) ، ولم تكن آي القرآن التي كتبت في تلك الصحف بدعاً عمّا كتبها الصحابة في صحفهم ممّا تعلّموها من لفظ الآيات ومعانيها ممّا تلقّاها الرّسول (ص) جميعاً عن طريق الوحي، بل لابدّ أن تكون مشابهة لمصاحف الصحابة في كتابة اللفظ والمعنى معاً ما عدا أمراً واحد وهو أن كل صحابي كان يكتب مع ما يكتب من آي القرآن ما بلغه عن رسول الله (ص) في تفسير الآية، وكان رسول الله (ص) قد أمر الإمام علياً بكتابة كل ما يحتاجه المسلمون في تفسير الآيات ممّا تلقّاه عن طريق الوحي[1].

---

(١) كما برهنا عليه في بحث: (القرآن والسنّة، هما مصدر التشريع لدى مدرسة أهل البيت «ع» من المجلّد الثاني من معالم المدرستين).

السّورة والآية

أ ـ السّورة:

١ ـ في اللّغة:

اختلفوا في أصلها لغة، منها قولهم: أنّها من سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور[1].

٢ ـ في المصطلح الإسلامي القرآني:

جزء من القرآن يفتتح بالبسملة ما عدا سورة البراءة، ويشتمل على آي ذوات عدد، وقد جاءت بالمعنى الاصطلاحي في القرآن الكريم بلفظ المفرد تسع مرّات، وبلفظ الجمع مرّة واحدة.

وإنّ أصغر سور القرآن الكوثر وأكبرها البقرة.

٣ ـ في القرآن الكريم:

نرى أنّ أسماء سور القرآن المنحصرة باسم واحد مثل (الرحمٰن) و(الأنفال) و(الأنعام) مصطلحات إسلاميّة نزلت عن طريق الوحي إلى رسول الله (ص) وما اشتهر لها اسمان أو أكثر مثل سورة الإسراء التي تُسمّى أيضاً بني إسرائيل ينبغي أن ندرس الروايات المرويّة عن الرّسول (ص) في شأن تعدّد أسماء بعض السور لمعرفة المصطلح الإسلامي منها عن مصطلح المسلمين.

---

(١) رجع مادّة (السورة) في معجم ألفاظ القرآن الكريم.

ب ـ الآية:

في اللّغة:

أشهر معاني «الآية» في اللّغة: العلامة الواضحة للشيء المحسوس، والأمارة الدالّة على المراد للأمر المعقول.

ومثال الأوّل قوله تعالى في سورة مريم في حكاية قول زكريّا (ع):

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾ (الآية ١٠).

أي: قال أجعل لي علامة واضحة...

ومثال الثاني قوله تعالى في سورة يوسف:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الآية ١٠٥).

أي كم من أمارة تدُلُّ على قدرة الله وحكمته، أو غيرها من صفاته يمرُّون عليها وهم عنها معرضون.

وقول الشاعر:

وفي كلِّ شيءٍ لهُ آيـة　　　تَدلُّ علىٰ أنّـهُ واحـدُ

في المصطلح الإسلامي:

ما قاله الراغب في مفردات القرآن:

(ويقال لكلّ جملة من القرآن دالّة على حكم: آية، سورة كانت، أو فصولاً، أو فصلاً من سورةٍ.

وقد يقال لكلّ كلام منه، منفصل بفصل لفظي: آية.

وعلىٰ هذا أعتبار آيات السورة التي تعدّ بها السورة)[1].

---

(١) اخترنا ذكر أشهر معنى للآية في اللّغة والتي تتناسب مع المعنى الاصطلاحي.

وتُضاف إليه الحروف المقطّعة المبدوء بها بعض سور القرآن مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ...﴾ وفي سورة فصّلت: ﴿حمٓ تَنزِيلٌ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

قال المؤلف:

إنّ الراغب وإن لم يفرّق بين المعنى اللغوي للآية والذي قدّم ذكره وبين معانيها في المصطلح الإسلامي والتي أخّر ذكرها، غير أنّا لمّا وجدنا المجموعة الثانية لم ترد عند العرب وإنّما جاءت في الكتاب والسنّة خاصّة، وشاع فيهما استعمال «الآية» في تلك المعاني، قلنا بأنها من معاني «الآيـة» في المصطلح الإسلامي، وكذلك القاعدة في معرفة المصطلح الإسلامي، مثل مصطلح الصّلاة والزّكاة والخمس في الشريعة الإسلاميّة.

وإنّ الراغب في تعريفه معنى «الآية» قسم ما وصفناه بالمصطلح الإسلامي إلى قسمين:

١ ـ ما اعتبر (الحكم) في التسمية، حيث قال:

(كلّ جملة دالّة على حكم آية، سورة كانت أو...).

٢ ـ ما اعتبر (اللفظ) في التسمية، حيث قال:

(كلّ كلام...).

ونحن بعد البحث والفحص عن موارد استعمال (الآية) في القرآن الكريم وجدنا الراغب مصيباً في قوله: وإليكم الدليل على ذلك:

أوّلاً ـ وجدنا من أمثلة القسم الأوّل:

١ ـ قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَو مِثْلِهَا﴾ (الآية ١٠٦).

٢ ـ قوله تعالى في سورة النحل:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ (الآية ١٠١).

٣ ـ وقوله تعالى في سورة الأحزاب في خطابه لأزواج النبي (ص):

﴿واذكرنَ ما يُتلىٰ في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة﴾ (الآية ٣٤).

٤ ـ ومنها قوله تعالى في سورة القصص:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا﴾ (الآية ٥٩).

وقوله تعالى في سورة الزمر في حكاية خطاب الملائكة لأهل جهنم:

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا﴾ (الآية ٧١).

٥ ـ وقوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ ٱللهِ آنَاءَ ٱللَّيْلِ﴾ (الآية ١١٣).

والمعنى في الآية الأُولى: ما ننسخ من حكم في فصل من كتاب الله أو ننسه نأت بخير منه أو بمثله.

وفي الآية الثانية: وإذا بدّلنا حكماً في فصل أو فصول من كتاب الله بحكم آخر في فصل أو فصول من كتاب الله.

وفي الآية الثالثة: وأذكرن يا أزواج النبيّ (ص) ما يُتلىٰ في بيوتكنّ من أحكام الله اللّاتي جاء في فصول كتاب الله.

وفي الآية الرابعة: حتى يبعث الله في أُمّ القرى رسولاً يتلو على أهلها أحكام الله في فصول كتاب الله.

وفي الآية الخامسة: ليس أهل الكتاب متساوين في أمر الدِّين، منهم أمّة مستقيمة يتلون أحكاماً من فصول كتاب الله.

ثانياً ـ وجدنا من أمثلة القسم الثاني، قوله تعالى في سورة يوسف:

﴿الَر تِلْكَ آياتُ ٱلْكِتابِ ٱلْمُبِينِ﴾ (الآية ١).

وقوله تعالى في صورة الرّعد:

﴿الَمر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ وَٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ...﴾ (الآية ١).

وكذلك جاء نظيرها في أوّل يونس والنمل، والثانية من الشعراء والقصص ولقمان.

إنّ هذه الآيات ونظائرها تشير إلى الآيات التي تشخص في كلّ سورة بالعدد، ويقال مثلاً: سورة الحمد سبع آيات، كما جاء في حديث الرّسول (ص).

والآية بهذا المعنى لم ترد في القرآن الكريم بغير لفظ الجمع، وقد قصد من (الآية) هنا ألفاظ الجملة القرآنيّة دون معناها.

ونضيف إلى ما سبق ما جاء في مادّة الآية من معجم الفاظ القرآن الكريم قولهم:

وسُمّيت معجزات الأنبياء (آية)، لأنّها علامة على صدقهم وعلى قدرة الله.

ونقول: إنّ منها قوله ـ تعالى ـ في حكاية قول صالح لقومه.

﴿هٰذِهِ نَاقَةُ ٱللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ (الأعراف / ٧٣)، و (هود / ٦٤).

وقوله تعالى في سورة النمل في خطابه لموسى بن عمران حين أرسله إلى فرعون وقومه:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ (الآية ١٢).

وبناء على ما بيّناه فلفظ (آية) مشترك بين ثلاثة معان في المصطلح الإسلامي مضافاً إلى معانيها في اللّغة العربيّة.

وقد استعملت (الآية) بكثرة في معانيها اللغويّة والاصطلاحيّة جميعاً في القرآن الكريم.

ولا بدّ لنا في تشخيص المعنى المقصود أن نعمل بما قرّره العلماء في علم أُصول الفقه من أنّ اللفظ المشترك إذا جاء في الكلام لا بدّ أن تدلّ قرينة على المعنى المقصود منه.

وعليه ينبغي لفهم المراد مما جاء من مادّة (الآية) في القرآن، أن نبحث عن القرينة الدالّة على المعنى المقصود في التعبير القرآني.

الخلاصة:

السورة في المصطلح القرآني جزء من القرآن يفتتح بالبسملة عدا سورة براءة، ويشتمل على آيات تميّز بالترقيم، ونرى أن الله قد سمّى كل سورة باسم واحد. وما اشتهر لها أكثر من اسم واحد مثل سورة الإسراء وسورة بني إسرائيل ينبغي أن يبحث في السنّة النبويّة عن اسمها في المصطلح القرآني.

(الآية) في اللّغة: العلامة الواضحة على شيء محسوس أو الأمارة الدالّة على شيء معقول.

وفي المصطلح الإسلامي قد تكون (الآية): معجزة من معاجز الأنبياء أو جملة من ألفاظ سورة قرآنيّة معيّنة بالعدد أو فصلاً أو فصولاً من كتب الله تبيّن حكماً من أحكام شريعته.

ولا نقول: إنّ معنى الآية في المصطلح الإسلامي ينحصر بما ذكرناه، بل نقول: هذا ما عرفناه من معاني الآية إلى اليوم، ولعلّ البحث يعرّفنا بعد اليوم غيرها من معاني الآية في المصطلح الإسلامي.

إذاً لفظ الآية مشترك في المصطلح الإسلامي بين عدّة معان، ولا يستعمل اللفظ المشترك في الكلام دونما قرينة تعيّن المعنى المقصود.

الجزء والحزب

قسّم المسلمون القرآن إلى ثلاثين قسماً وكل قسم سمّوه جزءاً[1]، والجزء إلى أربعة أحزاب، وهما من مصطلح المسلمين، لعدم استعمالهما بهذا المعنى في الكتاب والسنّة.

(١) روي أنّ تقسيم القرآن إلى ثلاثين جزءاً كان في عصر الحجّاج.

التّلاوة والقراءة والإقراء

أ ـ التلاوة:

يقال: تلا الكتاب تلاوة، إذا تلفّظ بكلمات كتاب يجب اتباعه مثل التوراة والإنجيل والقرآن مع تدبّر معاني جملاته.

ولا يقال: تلوت كتابك في ما لا يجب اتباعه، وبهذا المعنى جاء في قوله تعالى:

١ ـ في سورة الكهف:

﴿وَٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ...﴾ (الآية ٢٧).

٢ ـ في سورة العنكبوت:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (الآية ٥١).

جاء في سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري عند ذكرهما خبر دعوة الرّسول (ص) في موسم الحج رهطاً من الخزرج قالا:

(فدعاهم إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن)[1].

ب ـ القراءة والإقراء:

١ ـ في اللّغة:

قرأ الكتاب قراءة وقرآنا تتبع كلماته نظراً ونطق بها[2].

---

(١) سيرة ابن هشام ط. الحجازي بالقاهرة (٢ / ٣٨). وتاريخ الطبري ط. مصر (٢ / ٣٥٣).

(٢) المعجم الوسيط، مادّة: (قرأ).

٢ ـ في المصطلح الإسلامي:

لمعرفة معنى القراءة والإقراء في المصطلح الإسلامي نتدبّر ما جاء من هذه المادّة في القرآن الكريم وسنّة الرّسول (ص).

أمّا القرآن فقد قال الله سبحانه:

أ ـ في سورة العلق:

﴿بِسْمِ ٱللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾

ب ـ في سورة القيامة:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

ج ـ في سورة الأعلى:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾.

د ـ في سورة الفرقان:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾.

هـ ـ في سورة الإسراء:

﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ...﴾.

و ـ في سورة النحل:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (الآية ٤٤).

ج ـ جمعه في كلام الرّسول (ص).

د ـ جمعه حفظاً في صدور من حفظه من الصحابة.

هـ ـ جمعه كتباً في ما كتبه الصحابة في مصاحفهم.

وفي السنّة:

أ ـ نقرأ في أخبار سيرة الرّسول (ص) عندما آمن به من دعاهم من الخزرج في موسم الحج ما رواه ابن هشام:

فلما انصرف عنه (ص) القومُ بعث رسول الله (ص) معهم مصعب بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف ابن عبدالدار بن قصي، وأمره أن يُقْرِئهم القرآن، ويُعلّمهم الإسلام، ويُفقّههم في الدِّين، فكان يُسمّىٰ بالمدينة المقرئ[1].

ب ـ نقرأ عن سيرة الرّسول في إقرائه القرآن لأصحابه ما رواه أحمد وغيره واللفظ لأحمد.

قال: كانوا ـ أي الصحابة ـ يقترؤن من رسول الله عشر آيات عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأُخرى حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل[2].

تفسير الآيات:

في سورة العلق أمر الله نبيّه أن يقرأ، وفي سورة القيامة بيّن كيفية القراءة والإقراء وقال: ـ جلّ أسمه ـ لا تعجل في القراءة إنّ علينا جمعه، أي: إنّ على الله جمع القرآن بكل ما للجمع من معنى أي جمع لفظ القرآن ومعناه.

أ ـ جمعه في كلام جبرائيل للرسول (ص).

ب ـ جمعه في صدر الرّسول (ص).

و ـ جمعه حفظاً في صدور بعض المسلمين.

ز ـ جمعه كتباً في ما يكتبه البشر وتسجيلاً على وسائل التسجيل في من سجّله من البشر على الأشرطة إلى يوم الدِّين.

---

(١) سيرة ابن هشام ط. القاهرة (٢ / ٧٦).

(٢) مسند أحمد (٥ / ٤١٠).

كلّ ذلك جمع للقرآن من قِبَل الله ـ تبارك وتعالى ـ وتحقيق لوعده، وذلك بقاعدة ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال / ١٧).

ويفهم من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أنه ـ تبارك وتعالى ـ علّم رسوله معاني القرآن مع تعليمه تلاوة ألفاظه. إذاً فإن إقراء الله نبيّه في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ...﴾ كان بتعليمه تلاوة لفظ القرآن مع تعليمه معنى اللفظ في ما احتاج فهم معنى اللفظ إلى تعليم الله إيّاه[1]. وتعليم معاني آي القرآن الكريم بما فيها آيات الأحكام كان بحاجة إلى سعة في الوقت لاستيعاب المعنى، فكان من الحكمة أن ينزل القرآن متدرِّجاً. وليعلِّم الرّسول (ص) المؤمنين كذلك تلاوة ألفاظ القرآن مع ما تلقّاه ـ أيضاً ـ عن طريق الوحي من معاني الآيات متدرِّجاً ليستوعبوها، ومن أجل ذلك لم ينزل الله القرآن مرّة واحدة، بل أنزله على مكث، ليثبت به فؤاد الرّسول (ص) أوّلاً ثمّ يقرئ الرّسول (ص) المؤمنين على مكث. إذاً فإن معنى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ نعلِّمك تلاوة ولفظ القرآن مع بيان معناه وإنك لا تنسى ما علّمناك من لفظ القرآن وبيان معانيه، وكذلك فعل الرّسول (ص) في تعليم القرآن للصحابة فإنه (ص) كان يقرئ أصحابه عشر آيات عشر آيات على مكث يعلِّمهم في كلّ مرّة تلاوة ألفاظ الآيات العشر مع تعليمهم ما فيه من العلم والعمل.

وكان الأصحاب الذين تعلّموا لفظ القرآن ومعناه من الرّسول على مكث يعلِّمون الآخرين تلاوة اللّفظ والمعنى معاً وكذلك كان الجميع يتقارؤون القرآن على عهد الرّسول (ص) مثل النفر الذين سمّوا بالقرّاء من أصحاب

---

(١) ذكرنا في بحث (النظام الذي سنّه النبي «ص» في إقراء القرآن) انّ النبي (ص) كان يتلقّى عن طريق الوحي ما كان يعلم النّاس. راجع المجلّد الأوّل من كتاب (القرآن الكريم وروايات المدرستين)، ص ١٣٧، الطبعة الثانية.

الرّسول (ص) الذين بعث منهم سبعين شخصاً لتعليم القرآن، فاستشهدوا في بئر معونة.

وكان رسول الله (ص) عندما ينتخب الأقرأ من أصحابه، ليوليه على المسلمين مهما استطاع إلى ذلك سبيلاً ينتخب الأكثر علماً بتلاوة لفظ القرآن مع فهم معناه.

ومن جملة ذلك انه (ص) بعث مع الأنصار بعدما بايعوه في العقبة بمنى مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلّمهم الإسلام، ويفقّهم في الدِّين، فكان يُسمّى مصعب بالمدينة المقرئ[1].

وكذلك كان يفعل الصحابي الفقيه ابن مسعود الذي عيّنه عمر بن الخطاب، ليعلّم أهل الكوفة القرآن في مسجد الكوفة عندما كان يقرئ القرآن فانه لم يكن معلّم كتابيب يعلّم الأطفال تلاوة ألفاظ القرآن، بل كان مقرئاً يعلّم طلّاب علوم القرآن تلاوة لفظ القرآن مع بيان معانيه.

وبناء على ذلك كان معنى الاقراء على عهد الرّسول إلى سنوات قليلة من بعده تعليم تلاوة اللفظ مع تعليم معناه.

والمقرئ من يعلّم تلاوة لفظ القرآن مع تعليم معنى اللفظ والقارئ وجمعه القرّاء من تعلّم تلاوة لفظ القرآن مع تعلّم معنى اللفظ.

وقد قال الراغب في مادّة (قرأ) من مفردات القرآن (كل اسم موضوع لمعنيين معاً يطلق على كل واحد منهما إذا انفرد كالمائدة للخوان وللطعام، ثم قد يسمّى كل واحد منهما بانفراده به) وكذلك جرى الأمر في استعمال مادّة الإقراء فإنه كان في عصر الرّسول (ص) يستعمل في المعنيين تعليم تلاوة

(١) سيرة ابن هشام (٢ / ٤٢).

اللفظ وتعليم معنى اللفظ وأصبح بعد انتشار تعلّم القرآن يستعمل الإقراء في أحد المعنيين وهو تعليم معنى الآيات التي تحتاج إلى تفسير ومن تلك الموارد ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس أنه قال:

كنت أقرئ رجالاً من المهاجرين منهم عبدالرحمٰن بن عوف، فبينما أنا في منزله بمنى وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حجّة حجّها... الحديث[1].

وإذا علمنا أن إسلام عبدالرّحمٰن بن عوف كان في السنة الثالثة من البعثة حسب ما يذكر ابن هشام من أخبار السابقين إلى الإسلام من المهاجرين[2].

وانّ آخر حجّة حجّها عمر كانت سنة ٢٣ هـ، وقُتِلَ في الشهر نفسه، قُتِلَ في المدينة، عرفنا أن المدّة بين الزّمانين أكثر من اثنتين وثلاثين سنة ولم يكن كبراء المهاجرين أمثال عبدالرحمٰن بن عوف أطفال كتاتيب ليقرئهم ابن عباس تلاوة ألفاظ القرآن وإنما كان يعلّمهم تفسير القرآن.

ما يؤيّد أنّ الصحابة كانوا يعنون بتعلّم معنى القرآن:

سيأتي في أخبار القرآن في عصر الخليفة عمر أنه كان يسأله عن معاني القرآن وأنه كان يقول في حقّه (نِعْمَ ترجمان القرآن عبدالله بن عبّاس).

وكيف روّض الخليفة عمر كبار الصحابة أن يقترؤوا القرآن من ابن عباس وكان الذين يفتون في عصر عمر هم الذين يقرؤن القرآن، أي لهم حق تعليم معنى القرآن كما سندرسه ـ بإذنه تعالى ـ بعد إيراد أخبار وروايات

---

(١) صحيح البخاري (٤ / ١١٩) باب رجم الحبلى من كتاب الزّنا إذا أحصنت.

(٢) ذكر ابن هشام إسلام عبدالرحمٰن بن عوف وآخرين من المهاجرين قبل مباداة رسول الله (ص) قومه في السنة الثالثة من البعثة، راجع سيرة ابن هشام، ط. الحلبي بمصر سنة ١٣٥٥ هـ. (١ / ٢٦٨).

في شأن القرآن في ما يأتي.

أخبار وروايات في شأن القرآن:

١ ـ عندما حضر الرّسول (ص):

في صحيح البخاري وغيره بسندهم إلى ابن عباس أنه قال: (لمّا حضر النبي (ص) وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال: هلمّ أكتب كتاباً لكم لن تضِلّوا بعده، قال عمر: انّ النبيّ (ص) غلبه الوجع، وعندكم كتاب الله واختلف أهل البيت، واختصموا، فنهم من يقول ما قال عمر.

فلمّا أكثروا اللّغط والاختلاف قال: قوموا عنّي ولا ينبغي عندي التنازع).

وفي لفظ بعض الروايات وما شأنه أهجر[1].

٢ ـ في أوّل عهد أبي بكر:

روى الذهبي أن الخليفة أبا بكر جمع النّاس بعد وفاة نبيّهم، وقال في ما حدّثهم: «... فلا تحدّثوا عن رسول الله (ص) شيئاً، فمن سألكم، قولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه»[2].

٣ ـ على عهد عمر:

روى الطبري في سيرة عمر وقال: كان عمر إذا استعمل العمّال خرج معهم يشيعهم فيقول: (جرّدوا القرآن وأقلّوا الرواية عن محمّد (ص) وأنا شريككم)[3].

---

(١) راجع مصادر الخبر في عبدالله بن سبأ، الجزء الأوّل، بحث: السقيفة ط. السادسة ص ٩٧.

(٢) بترجمة أبي بكر من تذكرة الحفّاظ للذّهبيّ، (١ / ٢٢ ـ ٢٣).

(٣) تاريخ الطبريّ، طبعة مصر سنة ١٩٦٣، (٤ / ٢٠٤)، وطبعة أوربا (١ / ٢٧٤١).

٤ ـ خبر صبيغ بن عسل:

كان صبيغ بن عسل يذهب إلى الأجناد أي البلاد التي يسكنها جنود المسلمين مثل البصرة والكوفة والإسكندرية وكان من ضمن أُولئك الجنود صحابة الرّسول (ص) الذين أخذوا من الرّسول تفسير القرآن فيسأل منهم عن معاني آي القرآن الكريم، فأُخْبِرَ الخليفة عمر بذلك فجلبه إلى المدينة وأحضر له عراجين النخل وضرب بها رأسه حتى أدماه وفي المرّة الثانية ضرب بها على ظهره حتى ترك ظهره دَبرة أي على ظهره مثل قرحة الدوابّ، ثمّ تركه حتى برئ وأعاد ضربه ثالثة ثمّ نفاه إلى البصرة وحرمه عطاءه ونهى عن مجالسته، فكان إذا حضر مجلساً في المسجد تفرّقوا عنه، وبقي كذلك حتى تشفّع له الوالي أبو موسى عند الخليفة فرفع العقاب عنه[1].

۞ ۞ ۞

وبناءً على ما ذكرنا حصر الخليفة عمر تعليم معنى القرآن بعدد معدود، منهم ابن عباس ومنع الآخرين من البحث عن معاني القرآن، وأمرهم بالاقتصار على تلاوة ـ لفظ ـ القرآن، وأنتج ذلك تبدّل معنى القراءة والإقراء كالآتي بيانه بإذنه تعالى.

تبدّل معنى القراءة والإقراء في مصطلح المسلمين:

كان الرّسول (ص) يتلقّى عن طريق الوحي تلاوة لفظ القرآن ويتعلّم

---

(١) ترجمته بمصورة مخطوطة ابن عساكر (٨ / ١ / ١١٦ أ ـ ١١٨ أ)، وسنن الدارميّ (١ / ٥٤، ٥٥ ـ ٥٦)، وتفسير ابن كثير (٤ / ٢٣١ ـ ٢٣٢)، وتفسير الدرّ المنثور (٦ / ١١١)، وتفسير القرطبي (١٧ / ٢٩)، والإكمال لابن ماكولا (٥ / ٢٢١). واخترنا لفظ ابن عساكر في المتن.

معناه في ما يحتاج معناه إلى تعلّم من جبرائيل: مثل آيات الأحكام في الوضوء والتيمّم وركعات الصلاة وأذكارها وما شابهها وذلكم معنى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾ (الأعلى / ٦).

وكان الرّسول كذلك يفعل في إقرائه القرآن للصحابة ويُسمّى عندئذ من تعلّم شيئاً كثيراً من تلاوة لفظ القرآن مع تعلّم معناه بالقارئ وإذا قام القارئ بإقراء الآخرين يُسمّى بالمقرئ.

وبناء على ذلك كانت القراءة في عصر الرّسول (ص) بمعنى تعلّم تلاوة القرآن مع تعلّم معناه، والإقراء تعليم تلاوة لفظ القرآن مع تعليم معنى اللفظ الذي يحتاج إلى تعلّمه.

وكان لمعنى مادّة القراءة والإقراء في عصر الرّسول (ص) جزءان:

أ ـ تعلّم تلاوة اللّفظ وتعليمها.

ب ـ تعلّم معنى اللفظ وتعليمه.

إذاً فإن القراءة والإقراء كان في المصطلح الإسلامي في عصر الرّسول (ص) بمعنى تعلّم لفظ القرآن وتعلّم معناه وتعليمهما معاً.

وبهذا المعنى استعمل في قوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾.

وأيضاً استعمل في القرآن الكريم في معناه اللغوي أحياناً في مثل قوله ـ تعالى ـ في سورة المزمّل: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ (الآية ٢٠)، وقوله تعالى في سورة الحاقّة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ (الآية ١٩).

كما أن لفظ الصّلاة استعمل في المصطلح الإسلامي بمعنى الصّلاة التي تقرء سورة الفاتحة في الركعتين الأوليين منها.

وبهذا المعنى استعمل في قوله ـ تعالى ـ في سورة البقرة:

﴿حافِظُوا عَلىٰ ٱلصَّلَوٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ (الآية ٢٣٨).

كما استعمل ـ أيضاً ـ في معناه اللغوي في مثل قوله تعالى في سورة النور ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (الآية ٤١).

واستعملت القراءة والإقراء بعد عصر الرّسول (ص) غالباً في المعنى الاصطلاحي، وأحياناً استعمل في أحد جزأي المعنى الاصطلاحي وهو تعليم معنى القرآن أي تعليم تفسير القرآن.

وقد قال الراغب في مادّة (قرأ) من مفردات القرآن:

(كلّ اسم موضوع لمعنيين معاً يُطلق على كلٍّ واحد منه إذا انفرد كالمائدة للخِوان وللطعام، ثمّ قد يُسمّىٰ كلّ واحد منهما بانفراده به).

ونرى أن ما جاء في صحيح البخاري أن ابن عباس كان يقرئ في منى في آخر سنة من خلافة عمر كبار الصحابة أمثال عبدالرحمٰن بن عوف القرآن، جاء بمعنى اقراءهم معنى الآيات أي أنه كان يقرئهم تفسير القرآن.

وكان المسلمون صحابة وتابعين يعنون بتعلّم معاني القرآن بعد تعلّم تلاوته، يسافرون من بلد إلى بلد في سبيل ذلك كما فعل ذلك صبيغ بن عسل التميمي وأخذ يسافر من بلد فيه جند من أجناد المسلمين إلى بلد آخر، ويسأل من صحابة الرّسول بيان الرّسول (ص) حول الآيات، وكانت الصحابة يومذاك في أجناد المسلمين.

كان صبيغ يحاول أن يتعلّم منهم ويقترئ عليهم ما خفي عليه من معاني القرآن وكذلك كان يفعل المهاجرون الأولون أمثال عبدالرحمٰن بن عوف حين كان يقرئهم ابن عباس في منى في آخر حجّة حجّها عمر، أي: في شهر ذي

الحجّة سنة ٢٣ هـ، فإنّ المهاجرين الأولين الذين كانوا قد أسلموا بمكّة، ومضى على إسلامهم أكثر من ربع قرن لم يكونوا أطفال كتاتيب يحتاجون إلى تعلّم تلاوة القرآن، أضف إليه إنا رأينا الخليفة عمر يسأله عن تفسير القرآن بمحضر الصحابة.

وبذلك كان قد رشّحه لتعليم تفسير القرآن كما درسنا ذلك في بحث من تاريخ القرآن على عهد الخليفة عمر[1].

وكذلك نفسّر ما جاء من مادّة (قرأ) في حديث الخليفة عمر في الشهر نفسه في آخر خطبة جمعة خطبها في مسجد الرّسول قبل أن يطعن.

وكذلك نفسّر ما جاء عن أئمّة أهل البيت (ع) أن المهدي إذا ظهر يأمر بتعليم القرآن في مسجد الكوفة.

في مصطلح المسلمين:

وبناءً على ما ذكرنا آنفاً فإن مادّة القراءة في المصطلح الإسلامي كانت تدلّ على تعلّم لفظ القرآن مع تعلّم معناه واستعمل في عصر الصحابة في المدينة بمعنى تعلّم المعنى كما يظهر ذلك من كلام ابن عبّاس. ولمّا أمر الخليفة عمر بتجريد القرآن عن بيان الرّسول (ص) ونهى عن السؤال عن معانيه، ونكّل بمن سأل عنه، ونسخ الخليفة عثمان القرآن في مصاحف مجرداً عن حديث الرّسول (ص) ووزّعها في بلاد المسلمين وحرّق ما عداها، انتشرت القراءة المجرّدة للقرآن.

وفي أُخريات القرن الأوّل الهجري قام علماء العربيّة بتحريف القرآن وسمّوا

---

(١) راجع البحث السابع من المجلّد الثاني من كتاب (القرآن الكريم وروايات المدرستين)، بحث: من تاريخ القرآن على عهد الخليفة عمر.

كل تحريف (قراءة) وسمّوا كل من يعلِّم تلك التحريفات المقرئ وسمّوا بعضهم المقرئ الكبير وسمّوا الذي تعلّم تلك التحريفات القارئ وجمعه القرّاء أي الذي يقرأ القرآن بتلك التحريفات.

واستمر الأمر على ذلك قروناً حتى نسي معنى القراءة والإقراء في المصطلح الإسلامي الذي كان تعلّم اللفظ والمعنى معاً.

ونتيجةً لتبدّل معنى القراءة والإقراء في محاوراتهم فسرّوا ما جاء منها في الكتاب والسنّة ومحاورات الصحابة بالمعنى المتداول عندهم، أي: قراءة القراءات المختلفة كما درسناها في بحث القراءات[1].

نتيجة البحث:

يقال: تلا الكتاب لكتاب يجب العمل به مثل كتب الله المنزلة على رسله.

ويقال في لغة العرب: قرأ الكتاب قراءة إذا تتبّع كلماته نظراً ونطق بها.

وفي المصطلح الإسلامي:

يقال قرأ القرآن واقترأه فهو قارئ إذا تعلّم تلاوة لفظ القرآن مع بيان معانيه، ومعنى اقرأه ويقرئه: عُلِّم تلاوة لفظه مع تعليم معناه فهو عندئذ: مقرئ.

ولمّا رفع الخلفاء الثلاثة شعار «جرّدوا القرآن من حديث الرّسول»، وكتبوا نسخة من القرآن مجرّداً عن حديث الرّسول (ص)، ونسخوا عليها نسخاً، ووزّعوها في بلاد المسلمين، وأحرقوا مصاحف الصحابة التي كان أصحابها قد دوّنوا فيها لفظ القرآن مع ما أخذوا من الرّسول (ص) في بيان

---

(١) راجع البحث السّادس من المجلّد الثاني من كتاب: (القرآن الكريم وروايات المدرستين)، بحث: القراءات المختلفة وقرّاؤها.

معاني آياته انتشر بين المسلمين نسخ القرآن بدون بيان الرّسول (ص) .

وبعد ذلك التاريخ سُمّي القرآن المجرّد عن بيان الرّسول (ص) بالمصحف .

إذاً فالمصحف قبل إحراق المصاحف كان اسماً للقرآن الذي كُتِبَ معه شيء من بيان الرّسول (ص)، وبعد إحراق المصاحف أصبح اسماً للقرآن دون بيان الرّسول (ص) .

وبعد أن أصدر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في عام ١٤٣ هـ أمراً بتدوين العلوم وبدأ العلماء يدوّنون النص القرآني مع بيان معانيه سُمّيت تلك المدوّنات بالتفسير وبقي اسم القرآن المجرّد عن بيان معاني الآيات بالمصحف، واشتهرت هذه التسمية على عهد الخلفاء العثمانيين بحيث أصبح القرآن والمصحف بعد ذلك كالإنسان والبشر لفظين مترادفين لمعنى واحد.

النّسخ

النّسخ في اللّغة: إزالة شيء بشيء يتعقّبه، يقال: نسخت الشمس الظلّ[1].

وفي المصطلح الإسلامي: نسخ أحكامٍ في شريعةٍ بأحكامٍ في شريعةٍ أُخرى[2]. مثل نسخ بعض أحكام الشرايع السابقة بأحكامٍ في شريعة خاتم الأنبياء (ص).

وكذلك نسخ حكمٍ مؤقتٍ بحكمٍ أبديٍّ في شريعة خاتم الأنبياء (ص)، مثل نسخ حكم توارث المتآخيين من المهاجرين والأنصار في المدينة قبل فتح مكّة بحكم توارث ذوي الأرحام بعد فتح مكّة.

وقد صنّف أتباع مدرسة الخلفاء النسخ إلى ثلاثة أصناف:

أ ـ نسخ التلاوة والحكم: ويقصدون منه أنّ الله ـ سبحانه ـ كان قد أنزل من القرآن آياً أو سوراً على رسوله (ص) تتضمّن حكماً شرعيّاً ثمّ نسخ تلاوة ذلك القرآن، فلم يكتب في المصحف المتداوَل بين المسلمين، ونسخ حكمه من شريعة الإسلام.

ب ـ نسخ التلاوة دون الحكم: ويقصد منه أنّ الله ـ سبحانه ـ كان قد أنزل

---

(١) مفردات الراغب والمعجم الوسيط مادّة (نسخ).

(٢) قال أبو الوليد: (النسخ: إزالة الحكم الثابت بشرع متقدّم بشرع متأخّر عنه على وجه، لولاه لكان ثابتاً).

كتاب الأُصول في الحدود، تأليف الحافظ أبو الوليد سليمان بن خلف الأندلسي، (ت: ٤٧٤ هـ) ط. بيروت، سنة ١٣٩٢، ص ٤٩٠.

من القرآن آياً أو سوراً على رسوله (ص) ثمّ نسخ تلاوتها، فلم تكتب في المصحف المتداول بين المسلمين، وأبقى حكمها في شريعة الإسلام.

ج ـ نسخ الحكم دون التلاوة: ويقصد منه أنّ الله ـ سبحانه ـ أنزل من القرآن آياً عمل بها المسلمون، ثمّ نسخ تلك الآيات بآيات أُخرى، وبقيت الآيات المسمّاة منسوخة مكتوبة في المصحف، ونسخ حكمها.

مُصْطلحات عقائد الإسلام

- مشيئة الله
- البَداء
- الجبر والتفويض
- القضاء والقَدَر
- الدِّين والإسلام
- الإيمان والمؤمن
- النِّفاق والمُنافق



مشيئة الله ربّ العالمين

من صفات الله ربّ العالمين مشيئته في الهداية والرزق والعذاب والرحمة، كما يأتي بيانها في أربعة بحوث:

أوّلاً ـ المشيئة في اللّغة والقرآن الكريم:

أ ـ المشيئة في اللّغة:

في لغة العرب، شاء يشاء مشيئةً: أراد إرادة، وبهذا المعنى أسندت المشيئة إلى النّاس في قوله تعالى:

﴿إنّ هٰذهِ تَذكِرةٌ فَمَن شاءَ اتّخَذَ إلىٰ رَبِّهِ سَبيلاً﴾ (المزمّل ١٩) و(الإنسان ٢٩).

أي إن الإنسان إذا أراد أن يتّخذ إلى ربّه سبيلاً فإنّه قادر على أن يفعل ذلك بكامل حرّيته ومحض اختياره، وورد نظيره ـ أيضاً ـ في: سورة المدثّر (٥٥) وسورة عبس (١٢) والتكوير (٢٨) والكهف (٢٩) وغيرها من الموارد في القرآن الكريم.

وبالمعنى اللّغوي ـ أيضاً ـ أُسندت المشيئة إلى الله سبحانه وتعالى في قوله:

١ ـ في سورة الفرقان:

﴿ألَمْ تَرَ إلىٰ رَبِّك كَيفَ مَدّ الظلَّ وَلَو شاءَ لَجَعَلهُ ساكِناً﴾ (الآية ٤٥).

٢ ـ في سورة هود:

﴿فَأمّا الّذينَ شَقوا فَفي النارِ لَهُم فيها زَفيرٌ وَشَهيق * خالدينَ فيها ما دامَتِ السّمٰواتُ والأرضُ إلّا ما شاءَ رَبُّك إنّ رَبَّكَ فعّالٌ لِما يُـريدُ * وأمّـا الّـذينَ

سُعِدوا فَفِي الجنّة خالِدينَ فيها ما دامَتِ السَّمٰواتُ والأرضُ إلّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيرَ مَجْذوذ﴾ (الآيات ١٠٦ ـ ١٠٨).

وجاء نظيرهما ـ أيضاً ـ في سورة الإسراء (٨٦) والفرقان (٥١).

المعنى في الآيات الماضية:

١ ـ في المورد الأوّل قال سبحانه وتعالى:

﴿ألم تَرَ إلىٰ رَبِّكَ كَيفَ مَدَّ الظِّلّ﴾ شيئاً فشيئاً بعد الظهيرة من المغرب إلى المشرق حسب اقتراب الشمس من الأُفق، حتى إذا غربت كانت في نهاية الامتداد في الليل ولو شاء لجعل الظلّ ساكناً دائماً. أي انّ تمدُّد الظّلّ وتحرّكه يجري بقدرة الله ووفق إرادته وليس خارجاً عن إرادته.

٢ ـ في المورد الثاني قال سبحانه وتعالى:

إنَّ أَهْلَ النارِ خالدونَ في النارِ أبداً، وأهلُ الجَنَّةِ خالدون في الجنَّةِ أَبَداً وَإنَّ ذلكَ كائن بقدرة الله وإرادته وليس خارجاً عن إرادته وقدرته.

كان ذلكم من موارد اسناد المشيئة إلى الله وإلى النّاس بمعناه اللّغوي.

ب ـ مشيئة الله في الاصطلاح القرآني:

إذا أُسندت المشيئة في القرآن الكريم إلى الله ما بعد مادّة: الرزق والهداية والعذاب والرحمة أُريد بها جريان الرزق والهداية وأمثالها للإنسان وفق سننٍ قرّرها لها الله وفق حكمته وانّ سنّة الله في ذلكم الأمر لن تتبدّل وهي إذاً من مصاديق قوله تعالى في سورتي الأحزاب (٣٨) و(٦٢) والفتح (٢٣):

﴿سُنَّةُ اللهِ... وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبديلاً﴾.

وقوله تعالى في سورة فاطر:

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبديلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحويلاً﴾ (الآية ٤٣).

كما يأتي بيانها بحوله تعالى.

ثانياً ـ مشيئة الله في الرزق:

جاء ذكر مشيئة الله في أمر الرزق في قوله تعالى:

١ ـ في سورة الشورى:

﴿لَهُ مقَالِيدُ السَّمٰواتِ والأَرضِ يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيم﴾ (الآية ١٢).

ونظيره في سورة الرعد (الآية ٢٦).

٢ ـ في سورة العنكبوت:

﴿وَكَأَيِن مِن دابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزقَها اللهُ يَرزُقُها وإِياكُم وَهُوَ السَّميعُ العَلِيم * وَلَئِن سَأَلتَهُم مَن خلق السَّمٰواتِ والأرضَ وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالقمر لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّىٰ يُؤفَكُون * اللهُ يَبْسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ وَيَقدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيم * وَلَئِن سَأَلتَهُم مَن نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحيا بِهِ الأرضَ مِن بَعدِ مَوتِها لَيَقُولُنَّ اللهُ قُل الحَمدُ لِلهِ بَلْ أَكثَرُهُم لا يَعقِلُون﴾ (الآية ٦٠ ـ ٦٣).

٣ ـ في سورة سبأ:

﴿قُل إِنَّ رَبِّي يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقتُم مِن شَيءٍ فَهُوَ يُخلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرازِقين﴾ (الآية ٣٩).

٤ ـ في سورة الإسراء:

﴿وَلَا تَجعَل يَدَكَ مَغلُولَةً إِلىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبسُطها كُلَّ البَسْطِ فَتَقعُدَ مَلُوماً محسوراً * إِنَّ رَبَّك يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً * وَلَا تَقتُلُوا أَولادكُم خَشيَةَ إِملاقٍ نحنُ نَرزُقُهُم وَإِيّاكُم إِنَّ قَتلَهُم كَانَ

خِطئاً كَبِيراً * ... ولا تَقرَبُوا مالَ اليَتِيمِ إلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحسَنُ حَتىٰ يَبلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهدَ كانَ مَسؤولاً * وَأَوْفُوا الكَيْلَ إِذا كِلتُم وَزِنُوا بِالقِسطَاسِ المُستَقِيمِ ذٰلكَ خَيرٌ وَأَحسَنُ تَأويلاً﴾ (الآيات ٢٩ ـ ٣١ و ٣٤، ٣٥).

٥ ـ في سورة آل عمران:

﴿قُلِ اللّهُمَّ مَالِكَ المُلكِ تُؤتِي المُلكَ مَن تَشاءُ وَتَنزِعُ المُلكَ مِمَّن تَشاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الخَيرُ إِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللّيلَ في النَّهارِ وتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيلِ وَتُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغيرِ حِسَابٍ﴾ (الآيتان ٢٦، ٢٧).

ما هي مشيئة الله في أمر الرزق؟

لقد مرّ بنا في بحث «جزاء الأعمال» أنّ الله سبحانه وتعالى جعل توسعة الرّزق في صلة الرَّحم، جُعل الولد يرث أثر صلاح أبيه، كما مرّ بنا في خبر موسى والعبد الصّالح عندما بنى جداراً يريد أن ينقضّ ليبقى الكنز المدفون لليتيمين لأنّ أباهما كان صالحاً وليستخرجاه عندما يبلغان أشدّهما. وهذان مثالان لمشيئة الله في أمر الرّزق وإنّها تجري وفق سنن لا تتبدّل.

ثالثاً ـ مشيئة الله في الهداية:

يأتي ذكر هداية الإنسان في القرآن بمعنيين:

١ ـ بمعنى تعليم الإنسان عقائد الإسلام وأحكامه:

ويسنده القرآن غالباً إلى الأنبياء الذين بعثهم الله لتبليغ الإنسان عقائد الإسلام وأحكامه.

وأحياناً يسنده إلى الله جلّ اسمه لأنّه الذي أرسل الأنبياء بدين الإسلام.

٢ ـ بمعنى توفيق الله الإنسان إلى الإيمان بعقائد الإسلام والعمل بأحكامه. وهذا ما يسنده القرآن إلى الله وحده، تارة مع وصف أنّ هذه الهداية من مشيئة الله، وأُخرى بدون ذكر مشيئة الله.

وفي ما يأتي أمثلة من مواردها في القرآن الكريم:

وقد اشترط الله لهذا النوع من الهداية أن يرضاها النّاس ويختاروها ويباشروا العمل من أجل الوصول إليها كما يأتي بيانها في ثلاثة بحوث بحوله تعالى.

أ ـ الهداية بمعنى التعليم:

أسند القرآن هداية النّاس بمعنى تبليغ الإسلام إلى الأنبياء في موارد منها الآيات الآتية:

١ ـ في سورة الشورى:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهدي إلى صِراطٍ مستَقيمٍ * صِراطِ اللهِ الذي لَهُ ما في السَّمٰواتِ وما في الأرضِ ألا إلىٰ اللهِ تَصيرُ ٱلأُمُور﴾ (الآيتان ٥٢، ٥٣).

وأحياناً يأتي اسناد عن الأنبياء في الهداية إلى الله تعالى كما قال سبحانه:

٢ ـ في سورة الأنبياء:

﴿وَجَعَلناهُم أئمَّةً يَهدونَ بِأمرِنا...﴾ (الآية ٧٣).

٣ ـ في سورة الفتح:

﴿هُوَ الّذي أَرسَلَ رَسولَهُ بالهدىٰ وَدينِ الحَقّ﴾ (الآية ٢٨).

وبهذا المعنى ـ أيضاً ـ اسندت الهداية إلى الكتب السماوية مثل قوله تعالى:

١ ـ في سورة البقرة:

﴿شَهرُ رَمَضانَ الّذي أُنزِلَ فيهِ القُرآن هُدىً للناسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الهُدىٰ

وَالفُرقان﴾ (الآية ١٨٥).

٢ ـ في سورة آل عمران:

﴿وَأَنْزَلَ التَوراةَ والإِنجيلَ * مِنْ قَبلُ هُدىً لِلناس﴾ (الآيتان ٣، ٤).

وقد يأتي في القرآن اسناد الهداية التعليمية إلى الله جلّ اسمه مثل قوله تعالى:

١ ـ في سورة البلد في وصف الإنسان:

﴿أَلَمَ نَجعَل لَهُ عَينَين * وَلِساناً وَشَفَتَين * وَهَدَيْناهُ النَّجدَين﴾ (الآيات ٨ ـ ١٠).

٢ ـ في سورة فصّلت:

﴿وَأَمّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُم فَاسْتَحَبُّوا العَمىٰ عَلىٰ الهُدىٰ﴾ (الآية ١٧).

إذاً فإنّ الله تبارك وتعالى يسند الهداية بمعنى تعليم الإسلام إلى أنبيائه وكتبه تارة، وإلى نفسه تبارك وتعالى تارةً أُخرى؛ لأنّه الذي أرسل الرُّسُل بتلك الكتب لتعليم النّاس، ثمّ يأتي بعد ذلك دَوْرُ الإنسان في قبول الهداية أو رفضها كالآتي بيانه بحوله تعالى.

ب ـ اختيار الإنسان الهداية أو الضلالة وآثارهما:

بعدَ إرسال الله الأنبياء بالكتب إلى النّاس فإنّ الناس ينقسمون إلى فريقين: فريق يختارون الهداية على الضّلالة، وفريق يختارون الضلالة على الهداية كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم في الآيات الآتية وقال عزّ اسمه:

١ ـ في سورة النمل:

﴿وَأَنْ أتلُوَ القُرآنَ فَمَنِ اهتَدىٰ فَإِنَّما يَهْتَدي لِنَفسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُل إِنَّما أَنا مِنَ المُنذِرين﴾ (الآية ٩٢).

٢ ـ في سورة يونس:

﴿قُل يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الحقُّ مِن رَبِّكُم فَمَن اهتَدىٰ فَإِنَّما يَهتَدي لِنَفسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عليها وَما أنا عليكم بِوَكِيل﴾ (الآية ١٠٨).

ونظيرها في سورة الإسراء (١٥).

ويأتي بعد ذلك توفيق الله سبحانه وتعالى للمهتدي، كما أخبر الله عزّ اسمه وقال:

١ ـ في سورة مريم:

﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذينَ اهتَدَوا هُدىً﴾ (الآية ٧٦).

٢ ـ في سورة محمّد:

﴿والَّذينَ اهتَدوا زادَهُم هُدىً وَآتاهُمْ تَقواهُم﴾ (الآية ١٧).

إنَّ الَّذين اختاروا الهداية بعد إرسال الرّسل، وجاهدوا في سبيل الله، استحقوا توفيق الله لهم، والذين كذّبوا الرَّسول واتّبعوا هوى النفس حقَّت عليهم الضلالة، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهما وقال:

١ ـ في سورة العنكبوت:

﴿وَالَّذينَ جاهَدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المحسِنين﴾ (الآية ٦٩).

٢ ـ في سورة النحل:

﴿ولقد بَعَثنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أَنِ اعبُدوا اللهَ وَاجتَنِبوا الطّاغُوتَ فَمِنْهُم مَن هَدى اللهُ وَمِنهُم مَن حَقَّت عليهِ الضَّلالَةُ فَسيروا في الأَرضِ فانظُروا كَيفَ كانَ عاقَبةُ المكَذِّبين * إنْ تَحْرِص عَلىٰ هُداهُم فَإِنّ اللهَ لا يَهدي مَنْ يُضِلُّ وَما لَهم مِن ناصِرين...﴾ (الآيات ٣٦ و ٣٧).

٣ ـ في سورة الأعراف:

﴿فَرِيقاً هَدىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عليهم الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذوا الشَّياطينَ أولياءَ مِنْ دونِ اللهِ وَيَحسَبونَ أنَّهُم مُهتَدون﴾ (الآية ٣٠).

وهذا النوع من الهداية هو الّذي يأتي بمشيئة الله، كما يأتي بيانه بحوله تعالى.

ج ـ الهداية بمعنى توفيق الإيمانِ والعمل مسندةٌ إلى مشيئة الله

جاء ذكر الهداية بمعنى توفيق الإيمان والعمل مسندة إلى مشيئة الله في قوله تعالى:

١ ـ في سورة البقرة:

﴿وَاللهُ يَهدي مَن يَشاءُ إلىٰ صِراطٍ مُستَقيم﴾ (البقرة ١٤٢ و ٢١٣) و (النور ٤٦) و (يونس ٢٥).

٢ ـ في سورة الأنعام:

﴿... مَنْ يَشأ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشأْ يَجْعَلْه عَلىٰ صِراطٍ مُستَقيم﴾ (الآية ٣٩).

٣ ـ في سورة القصص:

﴿إنَّكَ لا تَهدي من أَحْببْتَ وَلٰكِنَّ الله يَهدي مَن يشاءُ، وَهُوَ أعلَمُ بِالمُهتَدين﴾ (الآية ٥٦).

شرح الكلمات

صراط مستقيم:

الصراط من السبيل الواضح، والمستقيم بلا التواء فيه.

والصراط المستقيم من أمر الدِّين ما شرحه الله تعالى في سورة الفاتحة

وقال:

﴿صِراطَ الّذينَ أنعَمتَ عَليهم غَيرِ المَغضُوبِ عليهم ولا الضَّالّين﴾ (الآية ٧).

وقد بيّن الله تعالى من أنعم عليهم في سورة مريم وقال بعد ذكره خبر زكريّا ويحيى ومريم وعيسى (ع): واذكر في الكتاب إبراهيم... (واْذكر في الكتاب موسى.. و.. إسماعيل و.. إدريس) ثمّ قال تعالى:

﴿أُولئك الّذين أنعَمَ اللهُ عليهم مِنَ النَّبيّين... وَمِمَّن هَدَينا واْجتبينا﴾ (مريم ١ و ٦٣).

وصراطهم هو دين الإسلام الذي كانوا يدعون إليه، وسيرتهم في عملهم بالإسلام.

والمغضوب عليهم هم اليهود خاصّة كما وصفهم الله تبارك وتعالى في سورة البقرة وقال عزّ اْسمه:

﴿وضُرِبَت عليهِمُ الذِّلّةُ والمَسْكَنَةُ وَباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهم كانوا يَكفرونَ بآياتِ اللهِ وَيَقتُلونَ النَّبِيّينَ بِغَيْرِ الحَقّ ذلكَ بِما عَصَوا وَكانوا يَعتَدون﴾ (الآية ٦١).

وكذلك في سورة آل عمران الآية (١١٢).

و ﴿ولا الضّالّين﴾ الضّالّون هم الذين لا يتّخذون الإسلام ديناً كافّة كما صرّح بذلك تبارك وتعالى في سورة آل عمران وقال عزّ من قائل:

﴿وَمَن يَبتَغِ غَيرَ الإسلامِ ديناً فَلَن يُقبَلَ مِنهُ... وَأُولئكَ هُمُ الضّالّون﴾ (الآيات ٨٥ ـ ٩٠).

يهدي: راجع شرحه في بحث هداية ربّ العالمين للأصناف الأربعة من الخلق.

رابعاً ـ مشيئة الله في العذاب والرّحمة:

قد جاء ذكر مشيئة الله في العذاب والرّحمة في موارد من القرآن الكريم منها الآيات الآتية:

أ ـ في سورة الأعراف حكاية قول كليم الله موسى (ع):

﴿وَاكْتُبْ لَنا في هٰذِهِ الدُّنيا حَسَنَةً وَفي الآخِرَةِ إنَّا هُدنا إليكَ قالَ عَذابِي أُصيبُ به مَنْ أَشاءُ وَرَحمَتي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ فَسأَكتُبُها لِلَّذين يَتَّقُونَ وَيُؤتُونَ الزَّكاةَ والَّذينَ هُم بِآياتِنا يُؤمِنُون * الَّذينَ يَتَّبِعون الرسُولَ النَّبيَّ الأُمّيَّ الَّذي يَجِدُونَهُ مَكتُوباً عِندَهُم في التَّوراةِ والإنجيلِ يأمُرُهُم بِالمعرُوفِ وَيَنهاهُم عَنِ المُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عليهِمُ الخَبائثَ وَيَضَعُ عَنْهم إصرَهُم والأغلالَ الَّتي كانَت عَلَيهِم فَالَّذينَ آمنوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّور الَّذي أُنزِلَ مَعَهُ أُولئكَ هُمُ المُفلِحُون﴾ (الآيتان ١٥٦، ١٥٧).

ب ـ في سورة الأنبياء:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِن ذِكْرٍ مِن رَبِّهِم مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ * لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الآيات ١ ـ ١٠).

ج ـ في سورة الإسراء:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ ٱلآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَشْكُوراً * كُلّاً نُمِدُّ هٰؤُلَاءِ وَهٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ (الآيات ١٨ ـ ٢٠).

د ـ في سورة الإنسان:

﴿إِنَّ هٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً * إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللهُ إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَٱلظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (الآيات ٢٧ ـ ٣١).

۞ ۞ ۞

كان ذلك معنى مشيئة الله ربّ العالمين، ومن صفات الله تعالى أنّه يمحو ما يشاء ويُثْبِت، كما يأتي معناه في البحث الآتي بإذنه تعالى.

البَداء أو يَمْحو اللهُ ما يشاءُ وَيُثْبِت

أوّلاً ـ البداء في اللّغة:

للبداء في اللّغة معنيان:

أ ـ بدا الأمر بُدُوّاً وبَداءً: ظهر ظهوراً بيّنا.

ب ـ بدا له في الأمر كذا: جدّ له فيه رأي، نشأ له فيه رأي.

ثانياً ـ البداء في مصطلح علماء العقائد الإسلاميّة:

بدا لله في أمرٍ بداءً أي ظهر له في ذلك الأمر ما كان خافياً على العباد.

وأخطأ من ظنّ أن المقصود من بدا لله في أمر بداءً جَدَّ له في ذلك الأمر غير الأمر الذي كان له قبل البداء، تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

ثالثاً ـ البداء في القرآن:

أ ـ قال الله تعالى في سورة الرعد:

﴿وَيَقولُ الّذين كَفرُوا لَولا أُنزِلَ عَليهِ آيةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ (الآيتان ٧ و ٢٧).

ثمّ قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو ٱللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ * وَإِن ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلاغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ (الآيات ٣٨ ـ ٤٠).

شرح الكلمات

١ ـ آية:

الآية في اللّغة: العلامة الظاهرة كما قال الشاعر:

وفي كلّ شيءٍ له آيـة　　تدلّ على أنّـه واحـد

وسُمِّيت معجزات الأنبياء آيةً لأنّها علامة على صدقهم وعلى قـدرة الله الذي مكّنهم من الإتيان بتلك المعجزة، مثل عصا موسى وناقة صالح، كـما جاءت في الآية (٦٧) من سورة الشعراء والآية (٧٣) من سورة الأعراف.

وكذلك سمّى القرآن أنواع العذاب الذي أنزله الله على الأُمم الكافرة بالآية والآيات، كقوله تعالى في سورة الشعراء عن قوم نوح:

﴿ثُمَّ أَغرَقنا بَعدُ الباقينَ * إنَّ في ذٰلِكَ لآيَةً﴾ (الآيتان ١٢٠، ١٢١).

وعن قوم هود:

﴿فَكَذَّبوهُ فَأَهْلَكْناهُم إنَّ في ذٰلكَ لآيَةً﴾ (الآية ١٣٩).

وعن قوم فرعون في سورة الأعراف:

﴿فَأَرسَلْنا علَيهِمُ الطّوفانَ وَالجَرادَ والقُمَّلَ والضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلات﴾ (الآية ١٣٣).

٢ ـ أجَل:

الأجل: مدّة الشيء والوقت الذي يحدّد لحلول أمرٍ وانتهائه. يقال: جاء أجله إذا حان موته، وضربت له أجلاً: أي وقتاً محدَّداً لعمله.

٣ ـ كتاب:

للكتاب معانٍ متعدِّدةٌ، والمقصود منها هنا: مـقدار مكـتوب أو مـقدّر، ويكون معنى (لكلِّ أجلٍ كتاب): لوقت إتيان الرّسول بآية زمان مقدّر معيّن.

٤ ـ يمحو:

محاه في اللّغة: أزالة وأبطله، أو أزال أثره مثل قوله تعالى:

أ ـ في سورة الإسراء:

﴿فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَة﴾ (الآية ١٢).

وآية اللّيل هي اللّيل، ومحو اللّيل: إزالته.

ب ـ في سورة الشورى:

﴿وَيَمْحُ اللهُ الباطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِماتِه﴾ (الآية ٢٤).

أي يذهب بآثار الباطل.

تفسير الآيات

أخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات أن كفار قريش طلبوا من رسول الله (ص) أن يأتيهم بآيات، كما بيّن طلبهم ذلك في قوله تعالى في سورة الإسراء:

﴿وَقالوا لَنْ نُؤمِنَ لَكَ حَتّىٰ تفْجرَ لَنا مِنَ الأرضِ يَنْبوعاً * ... أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَو تَأْتِيَ بِاللهِ وَالمَلائكَةِ قَبيلاً﴾ (الآيتان ٩٠ و ٩٢).

وقال في الآية (٣٨) من سورة الرعد: ﴿وَما كانَ لِرَسولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ مقترحةٍ عليه ﴿إلّا بِإذْنِ ٱللهِ﴾ وأنّ لكل أمرٍ وقتاً محدّداً سُجِّل في كتاب.

واستثنى منه في الآية بعدها وقال: ﴿يَمحو اللهُ ما يَشاء﴾ من ذلك الكتاب ما كان مكتوباً فيه من رزق وأجَل وسعادة وشقاءٍ وغيرها ﴿وَيُثْبِتُ ما يَشاء﴾ مما لم يكن مكتوباً في ذلك الكتاب ﴿وَعنده أُمُّ الكتاب﴾ أي أصل الكتاب وهو اللّوح المحفوظ الذي لا يُغيَّر ما فيه ولا يُبدّل.

وبناءً على ذلك قال بعدها: ﴿وَإِن ما نُرِيَنَّكَ بَعضَ الّذي نَعِدُهُم﴾ من

العذاب في حياتك ﴿أوْ نَتَوفَّيَنَّك﴾ قبل ذلك ﴿فَإنَّما عليكَ البَلاغ﴾ فحسب...

ويدلّ على ما ذكرناه ما رواه الطبري والقرطبي وابن كثير في تفسير الآية وقالوا ما موجزه:

إنّ الخليفة عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت ويقول: اللّٰهمّ إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنتَ كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنّك تمحو ما تشاء وتُثبِتُ، وعندك أُمُّ الكتاب.

وروي عن الصحابي ابن مسعود أنّه كان يقول:

اللّٰهمّ إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم، وإن كنتَ كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء وأكتبني في السعداء، فإنّك تمحو ما تشاء وتُثبِتُ، وعندك أُمُّ الكتاب.

وروي عن أبي وائل أنّه كان يكثر أن يدعو: اللّٰهمّ إن كنتَ كتبتنا أشقياء فامح وأكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنّك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أُمُّ الكتاب[1].

وفي البحار: «وإن كنتُ من الأشقياء فامحني من الأشقياء واكتبني من السّعداء، فإنّك قلت في كتابك المنزّل، على نبيّك صلواتك عليه وآله: ﴿يَمْحُو اللهُ ما يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدهُ أُمُّ الكِتَاب﴾ »[2].

---

(١) أخرج الأحاديث الثلاثة الطبري بتفسير الآية، وأبو وائل شفيق بن سلمة الأسدي الكوفي. قال في ترجمته بتهذيب التهذيب: ثقة مخضرم، أدرك عهد الصحابة والتابعين، مات في خلافة عمر بن عبدالعزيز، وله مائة سنة. أخرج له جميع أصحاب الصّحاح والسنن (١٠ / ٣٥٤).

(٢) البحار (٩٨ / ١٦٢).

واستدلّ القرطبي ـ أيضاً ـ على هذا التأويل بما روى عن صحيحي البخاري ومسلم انّ رسول الله (ص) قال:

(مَنْ سَرَّهُ أنْ يُبْسَطَ لَهُ في رِزْقِهِ وَيُنْسأَ لَهُ في أثَرِهِ ـ أجَلِهِ ـ فَلْيصلْ رَحِمَه).

وفي رواية: (مَنْ أحَبَّ أنْ يَمُدَّ اللهُ في عُمُرِهِ وَيَبْسُطَ لَهُ رِزْقَهُ فَلْيَتَّقِ اللهَ وَلْيَصِلْ رَحِمَه)[1].

ونقل عن ابن عبّاس أنّه قال في جواب من سأله وقال: كيف يزاد في العمر والأجل؟

قال الله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ﴾ فالأجل الأوّل أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل الثاني ـ يعني المسمّى عنده ـ من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلّا الله. فإذا اتّقى العبد ربّه ووصل رحمه، زاده الله في أجل عمره الأوّل من أجل البرزخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه، نقصه الله من أجل عمره في الدّنيا ما شاء، فيزيده من أجل البرزخ... الحديث[2].

وأضاف ابن كثير على هذا الإستدلال وقال ما موجزه:

وقد يستأنس لهذا القول ما رواه أحمد والنسائي وابن ماجة عن النبي (ص) انّه قال:

(إنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصيبُهُ وَلا يَردُّ القدرَ إلّا الدُّعاءُ وَلا يَزيدُ

---

(١) صحيح البخاري (٣ / ٣٤) كتاب الأدب، باب ١٢ و ١٣، وصحيح مسلم ص ١٩٨٢ الحديث ٢٠ و ٢١ من باب صلة الرّحم، ومسند أحمد (٣ / ١٥٦ و ٢٤٧ و ٢٦٦) و(٥ / ٧٦).

(٢) تفسير القرطبي (٩ / ٣٢٩ ـ ٣٣١).

في العُمُرِ إلّا البِرّ)[١].

وقال: وفي حديث آخر:

(إنَّ الدُّعاءَ والقَضاءَ لَيَعْتَلِجان بَيْنَ السَّماءِ والأَرْض)[٢].

كان ما ذكرناه وجهاً واحداً مما ذكروه في تأويل هذه الآية وذكروا معها وجوها أُخر في تأويل الآية مثل قولهم:

إنّ المراد محو حكم وإثبات آخر، أي نسخ الأحكام، والصواب في القول، انّه يعمّ الجميع وهذا ما آختاره القرطبي ـ أيضاً ـ وقال:

(... الآية عامّة في جميع الأشياء وهو الأظهر والله أعلم)[٣].

وروى الطبري والسيوطي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وعندهُ أُمُّ الكِتابِ﴾ قال: يُقدِّرُ اللهُ أمرَ السَّنةِ في لَيْلَةِ القَدْرِ إلّا السعادَةَ والشّقاءَ[٤].

يمحو الله ما يشاء وُيثْبِتْ قال: من أحد الكتابين هما كتابان يمحو الله من أحدهما ويُثْبِتْ وعنده أمُّ الكتاب أي جملة الكتاب[٥].

ب ـ قال سبحانه وتعالى في سورة يونس:

﴿فَلولا كانَت قَريةٌ آمَنَتْ فَنفعَها إيمانُها إلّا قَومَ يُونسَ لمّا آمَنوا كَشَفنا عَنهم عَذابَ الخِزي في الحَياةِ الدُّنيا وَمَتَّعناهُم إلىٰ حِين﴾ (الآية ٩٨).

---

(١) والرواية في سنن ابن ماجة، المقدّمة، باب ١٠، الحديث ٩٠.

(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ٥١٩).

(٣) تفسير القرطبي (٩ / ٣٢٩).

(٤) تفسير الطبري (١٣ / ١١١) والسيوطي واللفظ للطبري.

(٥) تفسير السيوطي (٤ / ٦٥) عن ابن جرير الطبري والحاكم قال وصحّحه.

شرح الكلمات

أ ـ كَشَفْنَا:

كشف عنه الغمّ: أزاله، وكشف العذاب: أزاله.

ب ـ الخِزْيُ:

خَزيَ خِزْيَا: هان وٱفتضح.

ج ـ حين:

الحين، الوقت والمدّة من غير تحديد في معناه بِقِلَّةٍ أو كَثْرَة.

تفسير الآية

قصّة يونس بإيجاز كما في تفسير الآية بتفسير الطبري والقرطبي ومجمع البيان[1]: أنّ قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس (ع) يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فأبوا، وتبعه منهم عابد وشيخ من بقيّة علمائهم وكان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم والعالم ينهاه ويقول له: لا تدعُ عليهم فانّ الله يستجيب لك ولا يحبّ هلاك عباده. فقبل يونس قول العابد فأخبر الله تعالى أنّه يأتيهم العذاب في شهر كذا في يوم كذا، فأخبرهم يونس بذلك فلما قرب الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد وبقي العالم فيهم وقال قومه:

لم نُجرّب ـ يونس ـ عليه كذباً فانظروا فإن بات فيكم الليلة فليس بشيء وإن لم يبت فاعلموا أنّ العذاب مُصبحكم، فلما كان في جوف اللّيل خرج يونس من بين أظهرهم ولمّا علموا ذلك ورأوا آثار العذاب وأيقنوا بالهلاك

---

(١) مجمع البيان (٣ / ١٣٥)، القرطبي (٨ / ٣٨٤)، الطبري (١١ / ١١٨)، والدرّ المنثور (٣ / ٣١٧).

ذهبوا إلى العالم فقال لهم: افزعوا إلى الله فانه يرحمكم ويردّ العذاب عنكم، فاخرجوا إلى المفازة وفرّقوا بين النّساء والأولاد وبين سائر الحيوان وأولادها ثمّ ابكوا وادعوا، ففعلوا. خرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة وأخلصوا النيّة وفرّقوا بين كل والدة وولدها من النّاس والأنعام، فحنَّ بعضها إلى بعض وعلت أصواتها واختلطت أصواتها بأصواتهم وتضرّعوا إلى الله عزّ وجلّ وقالوا آمنّا بما جاء به يونس، فرحمهم ربّهم واستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعدما أظلّهم، بعد أن بلغ من توبتهم إلى الله، ردّوا المظالم بينهم حتى أن كان الرّجل ليأتي الحجر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه ويردّه وكذلك محا الله العذاب عن قوم يونس بعد أن تابوا وكذلك يمحو اللهُ ما يشاء ويُثبِتُ وعنده أُمُّ الكتاب.

ج ـ قال سبحانه وتعالى في سورة الأعراف:

﴿وَواعَدْنا موسىٰ ثَلاثينَ لَيلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشرٍ فَتَمَّ ميقاتُ رَبِّهِ أربَعينَ ليلةً﴾ (الآية ١٤٢).

وقال في سورة البقرة:

﴿وَإذْ واعَدْنا موسىٰ أَربعينَ لَيلةً ثُمَّ اتَّخَذْتُم العِجْلَ مِنْ بَعدِهِ وأنتُم ظالِمون﴾ (الآية ٥١).

رابعاً ـ البداء في روايات مدرسة الخلفاء:

روى الطيالسي وأحمد وابن سعد والترمذي واللّفظ للطيالسي بإيجاز.

قال قال رسول الله (ص):

إنَّ الله أرىٰ آدم ذُرِّيَّتهُ فَرأىٰ رَجُلاً أَزْهَرَ ساطِعاً نُورُه.

قال: يا ربِّ مَنْ هذا؟

قال: هذا ٱبنُكَ داود!

قال: يا ربِّ فما عُمْرُه؟

قال: ستّونَ سَنَة!

قال: يا ربِّ زِدْ في عُمرِه!

قال: لا إلّا أنْ تَزيدَهُ مِنْ عُمرِك!

قال: وما عُمْرِي!

قال: ألف سَنَة!

قال آدم: فَقَدْ وَهَبْتُ لَهُ أرْبَعينَ سَنَةً مِنْ عُمْرِي.

..... فَلمّا حَضَرَهُ الموتُ وَجاءَتهُ الملائكةُ قالَ: قَدْ بَقِيَ مِنْ عُمْري أرْبَعُونَ سَنَة.

قالوا: إنَّك قد وهبتها لداود ...[1].

هذه الرواية بالاضافة إلى ما سبق إيراده من أخبار آثار صلة الرّحم ونظائرها بمدرسة الخلفاء من مصاديق ﴿يَمْحو اللهُ ما يشاءُ وَيُثْبِتُ وعنده أُمُّ الكتاب﴾.

وقد سمّىٰ أئمّة أهل البيت (ع) المحو والاثبات بالبداء كما سندرسه إن شاء الله تعالى في ما يأتي.

---

(١) الطيالسي ص ٣٥٠، الحديث ٢٦٩٢، ومسند أحمد (١ / ٢٥١ و ٢٩٨ و ٣٧١)، وطبقات ابن سعد ط. أوروبا (ج ١ / ق ١ / ٧ ـ ٩)، وسنن الترمذي (١١ / ١٩٦، ١٩٧) بتفسير سورة الأعراف. وفي البحار (٤ / ١٠٢، ١٠٣) عن الباقر (ع) باختلاف يسير في اللّفظ.

خامساً ـ البداءُ في روايات أئمّة أهل البيت (ع):

في البحار عن أبي عبدالله (الإمام الصادق) (ع) قال: (ما بَعَثَ اللهُ عزَّ وجَلَّ نبيّاً حتّى يأخُذَ عليهِ ثلاثَ خِصالٍ: الإقرارَ بالعبوديّة، وخَلْعَ الأنـدادِ، وأنّ اللهَ يُقدِّمُ ما يشاءُ ويُؤخِّرُ ما يشاء)[1].

وفي رواية أُخرى وصف الإمام الصادق (ع) هذا الأمر بالمحو والاثـبات وقال: (ما بَعَثَ نبيّاً قَطُّ حتّى يأخذ عليه ثلاثاً: الإقْرارَ للهِ بالعبوديّة وخَلْعَ الأندادِ، وأنّ اللهَ يمحو ما يشاءُ ويُثْبِتُ ما يشاء)[2].

وفي رواية ثالثة سمّى المحو والإثبات بالبداء، وقال ما موجزه: (ما تَنبَّأَ نَبيٌّ قَطُّ حتّىٰ يُقِرَّ للهِ تعالىٰ... بالبداء) الحديث[3].

وعن الإمام الرضا (ع) انّه قال: (ما بَعَثَ نبيّاً قَطُّ إلّا بِتحريمِ الخَمْر، وأن يُقِرَّ لَهُ بالبداء)[4].

وفي رواية أُخرى أخبر الإمام الصادق (ع) عن زمـان المحـو والاثـبات وقال: (إذا كان ليلةُ القدرِ نـزلت المـلائكةُ والروحُ والكـتبةُ إلى سماء الدّنـيا فيكتبون ما يكونُ من قضاء الله تعالى في تلك السّنة فإذا أراد اللهُ أن يـقدِّمَ شيئاً أو يؤخِّره أو ينقص شيئاً أمر الملك أن يمحو ما يشاءُ ثمَّ أثـبت الذي أراد)[5].

وأخبر الإمام الباقر (ع) عن ذلك وقال ما موجزه: (تنزل فيها الملائكةُ والكَتَبَةُ إلى سماءِ الدّنيا فيكتبون ما هو كائنٌ في أمرِ السّنة وما يصيبُ العباد

---

(١)، (٣)، (٤) البحار (٤ / ١٠٨)، نقلاً عن توحيد الصدوق.

(٢) البحار (٤ / ١٠٨)، نقلاً عن المحاسن.

(٥) البحار (٤ / ٩٩)، عن تفسير عليّ بن إبراهيم.

فيها. قال: وأمرٌ موقوفٌ لله تعالى فيه المشيئة يقدّم منه ما يشاءُ ويؤخّر ما يشاءُ، وهو قوله تعالى: يمحو اللهُ ما يشاءُ ويثبتُ وعنده أمُّ الكتاب)[1].

وفي حديث آخر له قال: (في قول الله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إذا جاءَ أَجَلُها﴾.

إنّ عند الله كتباً موقوتة يقدّم منها ما يشاءُ ويؤخّرُ فإذا كان ليلة القدر أنزل الله فيها كلّ شيء يكون إلى ليلة مثلها، وذلك قوله: ﴿لَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إذا جاءَ أجَلُها﴾ إذا أُنزِلَ، وكتبهُ كتّاب السماوات وهو الذي لا يؤخّره)[2].

وروى المجلسي في هذا الباب خبر هبة آدم (ع) أربعين سنة من عمره لداود (ع) الذي أوردناه آنفاً في روايات مدرسة الخلفاء[3].

هذا هو البداء في أخبار أئمّة أهل البيت (ع) وأمّا البداء بمعنى أنّ الله جدّ له رأي في أمر لم يكن يعلمه ـ معاذ الله ـ فقد قال أئمّة أهل البيت (ع) فيه ما رواه المجلسي عن الإمام الصادق (ع) أنّه قال: (مَنْ زَعَمَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ يبدو له في شيءٍ لم يعلمهُ أمس فابرؤوا منه)[4].

أثر الإعتقاد بالبداء

لو اعتقد الإنسان أنّ من النّاس مَنْ كُتِبَ في السعداء فلن تتبدّل حاله ولن يُكتب في الأشقياء، ومنهم مَنْ كُتِبَ في الأشقياء فلن تتبدل حاله ولن يُكتب في السّعداء، وجف القلم بما جرى لكل إنسان، عندئذ لا يتوب العاصي من

---

(١) البحار (٤ / ١٠٢)، نقلاً عن أمالي الشيخ المفيد.
(٢) البحار (٤ / ١٠٢)، نقلاً عن تفسير علي بن إبراهيم.
(٣) البحار (٤ / ١٠٢)، عن علل الشرائع.
(٤) البحار (٤ / ١١١)، نقلاً عن إكمال الدّين.

معصيته بل يستمرّ في ما هو عليه لاعتقاده بأنّ الشّقاء قد كُتِبَ عـليه ولن تتغيّر حاله، ومن الجائز أن يوسوس الشيطان إلى العبد المنيب انّه من السعداء ولن يكتب في الاشقياء وتؤدّي به الوسوسة إلى التساهل في الطاعة والعبادة، وعدم استيعاب بعض المسلمين معاني الآيات والروايات المذكورة في المشيئة، اعتقد بعضهم أنّ الإنسان مجبور على ما يصدر منه وآخرون على أنّ الأمر كلّه مفوّض للإنسان، كما سندرسه في البحث الآتي لنعرف الحق في ذلك بإذنه تعالى.

الجبر والتفويض

معنى الجبر والتفويض والإختيار

الجبر والتفويض والإختيار:

أ ـ الجبر في اللّغة:

جَبَرَهُ على الأمر وأجْبَرَهُ: قَهَرَهُ عليه، وأكْرَهَهُ على الإتيان به.

ب ـ الجَبْرُ في مصطلح علماء العقائد الإسلاميّة:

الجَبْرُ: إجبارُ الله تعالى عبادهَ على ما يفعلون، خيراً كان أو شراً، حسناً كان أو قبيحاً، دون أن يكون للعبد إرادةٌ واختيار الرفض والإمتناع، ويرى الجبريّة الجبر مذهباً يرى أصحابُهَ انّ كلّ ما يحدث للإنسان قُدِّر عليه أزلاً، فهو مسيّر لا مخيّر، وهو قول الأشاعرة[1].

ج ـ التفويض في اللّغة:

فَوَّضَ إليه الأمرَ تفويضاً: جَعَلَ له التَّصَرُّفَ فيه.

د ـ التفويض في مصطلح علماء العقائد الإسلاميّة:

هو أنّ الله تعالى فوّض أفعال العباد إليهم، يفعلون ما يشاؤون، على وجه الإستقلال، دون ان يكون لله سلطان على أفعالهم، وهو قول المعتزلة[2].

---

(١) راجع تعريف الأشاعرة في الملل والنحل للشهرستاني بهامش الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (١ / ١١٩ ـ ١٥٣).

(٢) راجع تعريف المعتزلة في الملل والنحل للشهرستاني بهامش الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (١ / ٥٥ ـ ٥٧).

هـ ـ الإختيار في اللّغة:

خيّره: فوّض إليه الاختيار بين أمرين أو شيئين أو أكثر.

و ـ الإختيار في مصطلح علماء العقائد الإسلاميّة:

إنّ الله سبحانه كلّف عباده بواسطة الأنبياء والرّسل ببعض الأفعال ونهاهم عن بعض آخر، وأمرهم بطاعته في ما أمَرَ به ونهى عنه بعد أن منحهم القوّة والإرادة على الفعل والترك وجعل لهم الاختيار في ما يفعلون دون أن يجبر أحداً على الفعل.

القَضاء والقَدَر

تستعمل مادّتا القضاء والقدر لعدّة معان منها: في ما يخص البحث من مادّة القضاء.

أ ـ قضى أو يقضي بين المتخاصمين كقوله تعالى:

﴿إنَّ رَبَّكَ يَقضي بَينهم يَومَ القيامَةِ في ما كانوا فيهِ يَختَلِفون﴾ (يونس / ٩٣) و(الجاثية / ١٧).

ب ـ قضى الله الأمر: أَنبَأه بِهِ كقوله تعالى في ما أخبر به لوطاً عن مصير قومه في سورة الحجر:

﴿وَقَضَيْنا إليه ذٰلِكَ الأمرَ أنَّ دابِرَ هٰؤلاءِ مَقطوعٌ مُصبِحين﴾ (الآية ٦٦).

أي أنبأناه.

ج ـ قضى الله الشيء، وبه: أوجبه، أمر به كقوله تعالى في سورة الإسراء:

﴿وَقَضىٰ رَبُّكَ ألّا تَعْبُدوا إلّا إيّاه﴾ (الآية ٢٣).

أي أمر ربّك وأوجب عليكم إلّا تعبدوا إلّا إيّاه.

د ـ قضى الله الأمر أو الشيء: تعلّقت إرادته به، قدّره كقوله تعالى في سورة البقرة:

﴿وَإذا قَضىٰ أَمراً فَانَّما يَقولُ لَهُ كُنْ فَيَكون﴾ (الآية ١١٧).

أي إذا أراد أمراً.

وقوله تعالى في سورة الأنعام:

﴿هُوَ الّذي خلَقَكُم مِن طينٍ ثُمَّ قَضىٰ أَجَلاً﴾ (الآية ٢).

أي قدّر لكل إنسان مدّة يحيا فيها.

ومن مادّة القدر:

أ ـ قدر على الشَّيء أو العمل: استطاع أن يفعله، يتغلّب عليه فهو قادر، والقدير: ذو القوّة كقوله تعالى:

١ ـ في سورة يس:

﴿أَوَلَيسَ الّذي خَلَقَ السّمٰواتِ والأرضَ بِقادِرٍ علىٰ أنْ يَخْلُقَ مِثلَهُم﴾ (الآية ٨١).

٢ ـ في سورة البقرة:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأبصارهم إِنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدير﴾ (الآية ٢٠).

أيْ ذو القدرة على فعل كل شيء على قدر ما تقتضي الحكمة.

ب ـ قَدَرَ:

١ ـ قَدَرَ الرِّزق عليه ويَقْدِر: ضيّقه كقوله تعالى في سورة سبأْ:

﴿قُلْ إنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ وَيَقْدِر﴾ (الآية ٣٦).

٢ ـ قدر الله الأمر بقدره: دبَّره أو أراد وقوعه، كقوله تعالى في سورة المرسلات:

﴿فَقَدَرْنا فَنِعَم القادِرون﴾ (الآية ٢٣).

ج ـ قدّر:

١ ـ قدّر الله الأمر: قضى به أو حكم بأنْ يكون، كقوله تعالى في شأن زوجة لوط، في سورة النمل:

﴿فَأَنجَيناهُ وَأهلَهُ إلّا امرَأَتَهُ قدَّرْناها مِنَ الغابِرين﴾ (الآية ٥٧).

أي حكمنا، أو قضينا عليها بأن تكون من الهالكين.

٢ ـ قَدَّرَ في الأمر: تَمَهَّل وتروّى في إنجازه كقوله تعالى في سورة سبأ

مخاطباً داود (ع): ﴿وقَدِّرْ في السَّرْد﴾ (الآية ١١).

أيْ تمهّل وتروَّ في صُنعه كي تحكم عمله.

د ـ القَدَر:

١ ـ القَدَر: المقدار والكميّة، كقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَإِنْ مِن شَيْءٍ إلّا عِندَنا خَزائنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إلّا بِقَدَرٍ مَعْلوم﴾ (الآية ٢١).

أيْ بمقدار وكميّةٍ معلومة.

٢ ـ قَدَرُ الشيءِ: زمانه أو مكانه، كقوله تعالى في سورة المرسلات:

﴿أَلَمْ نَخلُقكُم مِنْ ماءٍ مَهينٍ * فَجَعَلناهُ في قَرارٍ مَكينٍ * إلىٰ قَدَرٍ مَعْلوم﴾ (الآيات ٢٠ ـ ٢٢).

أيْ إلى زمانٍ محدّد معلوم.

٣ ـ قَدَرُ اللهِ: قضاؤه المحكم، أو حكمهُ المُبرَم على خلقه، كقوله تعالى في سورة الأحزاب:

﴿سُنَّةَ اللهِ في الّذينَ خَلَوا مِنْ قَبلُ وَكانَ أمرُ اللهِ قَدَراً مَقدورا﴾ (الآية ٣٨).

أي قضاءً محكماً، وَحُكماً مُبْرَماً.

لَعلَّ تعدّدَ معاني ما ينسب إلى الله من مادّتي القضاء والقدر، قد أدّى إلى لبس معنى ما ورد منهما في القرآن والحديث واعتقاد بعض المسلمين بأنَّ الإنسان يسير في حياته، في كل ما يعمل من خير أو شرّ وفق ما قضى الله عليه وقدَّر قبل أن يخلق. ويطلق في الأخبار لفظ القدري على الجبريّ والتّفويضي كليهما[١]. وعليه فإنّ القَدَرَ اسمٌ للشيءِ وضِدِّه كالقُرْء، اسمٌ للحيضِ والطُّهرِ معاً. ولا نُطيل البحثَ بإيراد أقوال المعتقدين بذلك، والإجابة

---

(١) البحار (٥ / ٥).

عليها، وانّما نكتفي بإيراد الأحاديث التي نجد فيها جواباً لتلكم الأقوال توضيحاً وبياناً للأمر بحوله تعالى.

روايات من أئمّة أهل البيت (ع) في القضاء والقدر

أوّلاً: عن أوّل أئمّة أهل البيت عليّ بن أبي طالب (ع) روي في توحيد الصدوق بسنده إلى الإمام الحسن (ع)، وفي تاريخ ابن عساكر بسنده إلى ابن عبّاس واللفظ للأوّل قال:

دخل رجل من أهل العراق على أمير المؤمنين (ع)، فقال: أخبِرنا عن خروجنا إلى أهل الشام أبقضاءٍ من الله وقدرٍ؟ فقال له أمير المؤمنين (ع): أجل يا شيخ، فوالله ما عَلَوْتُم تلعةً ولا هَبطتُم بطنَ وادٍ إلّا بقضاءٍ من الله وقدرٍ، فقال الشيخ: عند اللهِ أحتسبُ عَنائي[1] يا أمير المؤمنين، فقال: مهلاً يا شَيخُ، لعلّكَ تظنُّ قضاءً حتماً وقَدَراً لازِماً[2] لَوْ كانَ كذلِكَ لبَطَلَ الثَّوابُ والعِقابُ والأمرُ والنَّهيُ الزَّجرُ، ولَسَقَطَ معنى الوعيد والوعد، ولم يكن على مُسيءٍ لائمةٌ ولا لمُحْسنٍ مَحْمَدَةٌ، ولَكانَ المُحْسِنُ أوْلىٰ باللّائمةِ من المُذْنِبِ والمُذْنِبِ أوْلىٰ بالإحْسانِ مِنَ المُحْسِنِ[3] تِلْكَ مَقالَةُ عَبَدةِ الأوْثانِ وخُصَماءِ

---

(١) أي إن كان خروجنا وجهادنا بقضائه وتعالى وقدره لم نستحق أجراً، فرجائي أن يكون عنائي عند الله محسوباً في عداد أعمال من يتفضل عليهم بفضله يوم القيامة.

(٢) بالمعنى الذي زعمته الجبرية.

(٣) لأنّهما في أصل الفعل سيّان، إذ ليس بقدرتهما وإرادتهما مع أن المحسن يمدحه النّاس وهو يرى ذلك حقّاً له وليس كذلك فليستحق اللّائمة دون المذنب، والمذنب يذمّه النّاس وهو يرى ذلك حقّاً عليه وليس كذلك فليستحق الإحسان كي ينجبر تحمّله لأذى ذمّ النّاس دون المحسن.

الرَّحمٰنِ وقَدَريّةِ هذهِ الأُمّةِ ومَجوسها. يا شيخُ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كلّفَ تَخييراً، ونهىٰ تَحذيراً، وأعطىٰ على القليلِ كثيراً، وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً، ولَمْ يُطَعْ مُكْرَهاً، ولَمْ يَخلُق السّمٰوات والأرض وما بينهما باطِلاً، ذلك ظَنُّ الّذينَ كَفَروا فَـويْلٌ لِلَّذينَ كَفَرُوا مِن النّار[1].

قال: فنهض الشيخ وهو يقول:

«أنْتَ الإمامُ الّذي نَـرْجو بـطاعَتِهِ يَوم النّـجاةِ مـن الرَّحمٰـنِ غُـفراناً»

«أوْضَحْتَ مِنْ دِينِنا ما كانَ مُلْتَبِساً جـــزاكَ ربّك عـنّا فـيهِ إحْسـاناً»

«فَلَيْسَ مَـعْذِرَةً في فِـعْلِ فـاحِشَةٍ قَدْ كُنْتُ راكبها فسقاً وَعِصْياناً»[2]

ثانياً: عن السادس من أئمّة أهل البيت (ع)، الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمّد الصادق (ع): إنَّ الناس في القَدَرِ على ثلاثة أوجهٍ:

رَجلٌ يَزْعُم أنّ اللهَ عزّ وجلّ أجْبَرَ النّاسَ على المعاصي فهذا قد ظَلَم الله في حُكْمِهِ فهو كافر.

ورَجلٌ يَزْعُم أنّ الأمْرَ مُفَوّضٌ إليهم فهذا قد أوهنَ الله في سلطانِهِ فـهو كافر.

ورَجلٌ يَزْعُم أنَّ الله كلّفَ العِباد ما يطيقون ولم يُكلّفهم ما لا يُطيقون وإذا أحسنَ حَمِدَ الله وإذا أساءَ استغفرَ الله فهذا مُسْلِمٌ بالِغ[3].

---

(١) كما في سورة ص: ٢٧.

(٢) توحيد الصدوق ص ٣٨٠، وترجمة الإمام علي (ع) في تاريخ ابن عساكر (٣ / ٢٣١) تحقيق الشيخ المحمودي.

(٣) توحيد الصدوق ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.

ثالثاً: وعن الثامن من أئمّة أهل البيت الإمام أبي الحسن الرضا (ع) قال:

أ - إنّ الله عزّ وجلّ لم يُطَعْ بإكراهٍ، ولم يُعْصَ بِغَلَبَةٍ، ولم يُهْمِلِ العِبادَ في مُلكه، هو المالِكُ لِما ملّكهُم والقادِرُ على ما أقدَرَهُم عليهِ، فإن ٱئتَمَرَ العِبادُ بِطاعَتِهِ لم يكن الله منها صادّاً، ولا منها مانعاً، وان ٱئتمَرُوا بمعصيتهِ فَشاءَ أن يَحولَ بينهم وبين ذلك فَعَلَ وإنْ لم يَحُلْ وفعلوه فليسَ هو الّذي أدخَلَهم فيه[1].

يعني أن الإنسان الذي اطاع الله لم يكن مجبراً على الطاعة، والإنسان الذي عصاه لم يغلب مشيئة الله بل الله شاء أن يكون العبد مختاراً في فعله.

ب - قال:

قال الله تبارك وتعالى:

يا ابنَ آدم بمشيئتي كُنتَ أنتَ الّذي تشاء لنفسك ما تشاءُ، وبقوّتي أدّيتَ إليَّ فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي، جَعَلْتُك سَميعاً بصيراً قوياً، ما أصابكَ مِن حَسَنةٍ فمنَ اللهِ وما أصابكَ مِن سيّئةٍ فمن نفسك[2].

وفي رواية عملت بالمعاصي بقوّتي التي جعلتها فيك[3].

وعن الإمام أبي عبدالله الصادق (ع) قال:

أ - لا جَبْرَ ولا تَفْويضَ ولكن أمْرٌ بَيْنَ أمْرَين قال: قلت: وما أمْرٌ بَيْنَ أمْرَين؟ قال: مثل ذلك رجل رأيته على معصية فنهيته فلم يَنْتَهِ فتركتَه ففعل تلك المعصية، فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنتَ أنتَ الّذي أمرته

---

(١) توحيد الصدوق ٣٦١.

(٢) توحيد الصدوق ٣٢٨، ٣٤٠، ٣٤٤، ٣٦٢، والكافي (١ / ١٦٠).

(٣) التوحيد ص ٣٦٢.

بالمعصية[1].

ب ـ ما استطعت أن تلوم العبد عليه فهو منه وما لم تستطع أن تلوم العبد عليه فهو من فعل الله.

يقول الله للعبد لِمَ عَصَيْتَ؟ لِمَ فَسَقْتَ؟ لِمَ شَرِبْتَ الخَمْرَ؟ لِمَ زَنيتَ؟ فهذا فِعْلُ العَبْدِ، ولا يقولُ لَهُ لِمَ مَرِضْتَ؟ لِمَ قَصُرْتَ؟ لِمَ ٱبْيَضَضْتَ؟ لِمَ ٱسْوَدَدْتَ؟ لأنّه مِنْ فِعْلُ الله تعالى[2].

شرح الروايات

إنّ للجبر والتفويض جانبين:

أ ـ ما كان منهما من صفات الله.

ب ـ ما كان منهما من صفات الإنسان.

فما كان منهما من صفات الله: فينبغي أخذه منه بوساطة الأنبياء، وأوصياء الأنبياء عن الأنبياء، وما كان من صفات الإنسان فانّ قولنا: أفعل هذا أو لا افعله دليل على أنّا نفعل ما نفعله باختيارنا، وقد عرفنا ممّا سبق أنَّ سير الإنسان في حياته لا يشابه سير الذرّة والكواكب والمجرّات المسخّرات بأمر الله في كلّ حركاتها وما يصدر منها من آثار.

ولم يفوّض الله إليه أمر نفسه وكلّ ما سخّر له ليفعل ما يشاء كما يُحبُّ، وكما تهوى نفسه، بل إنّ الله أرشده بوساطة أنبيائه كيف يؤمن بقلبه بالحقّ، وهداه إلى الصالح النافع في ما يفعله بجوارحه، والضّارّ منه. فاذا اتبع هدى

---

(١) الكافي (١ / ١٦٠)، والتوحيد ص ٣٦٢.

(٢) الطرائف.

الله، وسار على الطريق المستقيم خطوة أخذ الله بيده وسار به عشر خطوات ثمّ جزاه بآثار عمله في الدّنيا والآخرة سبعمائة مرّة اضعاف عمله والله يضاعف لمن يشاء بحكمته ووفق سنّته.

وقلنا في المثل الذي ضربناه في ما سبق، بانّ الله أدْخَلَ الإنسان المؤمن والكافر في هذا العالم في مطعم له من نوع (سلف سرويس) كما قال سبحانه في سورة الإسراء:

﴿كُلّاً نُمِدُّ هٰؤلاءِ وَهٰؤلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّك وَما كان عَطاءُ رَبِّكَ مَحظوراً﴾ (الآية ٢٠).

فلولا إمداد الله عبيده بكل ما يملكون من طاقات فكريّة وجسديّة، وما سخَّر لهم في هذا العالم لما استطاع المؤمن أن يعمل عملاً صالحاً، ولا الضالّ الكافر أن يعمل عملاً ضارّاً فاسداً، ولو سلبهم لحظة واحدة أي جزء ممّا منحهم من الرؤية والعقل والصحّة و... و... لما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً، إذاً فإنّ الإنسان يفعل ما يفعل بما منحه الله بمحض اختياره، وبناءً على ما بيّنّاه، أنّ الإنسان لم يفوّض إليه الأمر في هذا العالم، ولم يجبر على فعلٍ بل هو أمر بين الأمرين، وهذه هي مشيئة الله وسنّته في أمر أفعال العباد، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

الدِّينُ وَالْإِسْلَام

أ ـ الدِّين:

في اللّغة: الطاعة والجزاء.

وفي المصطلح الإسلامي: الشّريعة.

وذلك معنى قوله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ ٱللهِ الإِسْلام...﴾. (آل عمران / ١٩)

كما يأتي بيانه بإذنه تعالى.

ب ـ الإِسْلَام:

في اللّغة: أسلَمَ إسلاماً: إنقاد، فهو مسلم.

وفي المصطلح الإسلامي: دخل في الإسلام فهو مسلم.

ويتحقّق دخول الإنسان في الإسلام بالإقرار واللّسان وقوله: أشهدُ أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّداً رسولُ الله.

ومعنى الشّهادَةِ الأُولى: الإقرار بأن لا خالق ولا معبود إلّا الله.

ومعنى الشّهادَةِ الثانية: الإقرار بأنّ الله الرَّبَّ أرسل محمّداً (ص) بشريعة الإسلام، وأنّ المُقِرَّ يتعهّد بالعمل بتلك الشريعة.

والإسلامُ: اسم لجميع الشرائع ٱلتي أُنزلت على رُسل الله قبل خاتم الرُّسل (ص) كما يظهر ذلك من قوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللهِ الإِسلامُ وَمَا ٱختلفَ الَّذينَ أُوتوا الكِتَابَ إلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُم...﴾ (الآية ١٩).

وقوله تعالى فيها:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ ٱلخَاسِرِين﴾ (الآية ٨٥).

وكما أخبر الله سبحانه وتعالى أنّ إبراهيم (ع) كان مسلماً وقال تعالى:

﴿مَا كانَ إبراهيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً ولٰكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِمًا...﴾.

(آل عمران / ٦٧)

وحكى (في سورة البقرة) عن وصيّة إبراهيم (ع) لبنيه أن يكونوا مسلمين وقال سبحانه:

﴿وَوَصَّىٰ بهَا إبراهيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُون﴾ (الآية ١٣٢).

وكان ذلك معروفاً ـ أيضاً ـ لدى الكفّار في الأمم السابقة كما يظهر ذلك من قول فرعون عند موته حيث أخبر الله عنه وقال تعالى في سورة يونس:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ فَأَتْبَعَهُم فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّىٰ إذا أَدْرَكَهُ ٱلغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إله إلّا الَّذي آمَنَتْ بِهِ بَنو إِسْرَائِيلَ وأنا مِنَ ٱلمُسْلِمِين﴾ (الآية ٩٠).

وما أخبر تعالى عن شأن عيسى (ع) مع الكفّار ومحاورته للحواريّين بقوله:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عيسىٰ مِنْهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَاري إلىٰ اللهِ قَالَ الحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللهِ آمَنَّا باللهِ وٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُون﴾. (آل عمران / ٥٢)

إذاً فقد كان اسم شريعة إبراهيم وموسى وعيسى (ع): الإسلام، وإنّما غيَّر أهل الكتب اسم دينهم، فتسمّى الذين زعموا أنّهم على شريعة موسى باسم اليهودية نسبةً إلى مدينة يهودا في جبل صهيون[١].

---

(٢) راجع مادّة يهودا والنّاصرة من «قاموس كتاب مقدّس» (فارسي) ص: ٩٨٠.

وتسمّى الذين زعموا أنّهم على شريعة عيسى باسم آلنّصارى نسبة إلى آلنّاصرة البلدة آلتي ولد فيها عيسى بن مريم (ع). واسم المسيحي نسبة إلى لقب عيسى المسيح (ع).

وهكذا حرّفوا اسم دين الله كما حرَّفوا كتابيه: آلتَّوراة والإنجيل.

وأقرّهم الله على ما سمّوا به أنفسهم وسمّاهم في آلقرآن الكريم: اليهود والنّصارى، لأنّ الدِّين الذي يدينون به ليس الإسلام الذي جاء به الرّسولان: موسىٰ وعيسىٰ (ع)، وليسوا بمسلمين.

وقد أوحى الله سبحانه شريعة الإسلام إلى رسله في الكتب التي أنزلها إليهم وبلّغتها الرّسل إلى أممهم وفسَّروا الكتب بحديثهم، فمن أظهر الخضوع والإنقياد وقبول الشريعة آلتي جاءت بها الرّسل من عند الله فهو مسلم، فإن كان منه إيماناً بالقلب وإقراراً باللِّسان وعملاً بالأركان فهو مؤمن، وإلّا فهو منافق كالآتي بيانه.

المُؤْمِن والإيمانُ

آمن إيماناً فهو مؤمن:

أ ـ في اللّغة:

أَذْعَنَ وصدَّق.

ب ـ في المصطلح الإسلامي:

يقال المؤمن لمن آمن بالله ورسله منذ آدم حتى ٱلرّسول الخاتم، وأذعن وصدّق بما أوحى الله إليهم.

ولا يتم ذلك بأن يؤمن الإنسان ببعض ما أوحى الله ويكفر ببعض كما قال الله تعالى في سورة البقرة:

﴿آمَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كَلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الآية ٢٨٥).

وقد فصّل الله القول في ذلك في قوله تعالى في سورة النّساء:

﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً * إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ ٱللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً * بَشِّرِ ٱلْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ

ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً * وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً * ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ ٱللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (الآيات ١٣٦ ـ ١٤١).

في هذه الآيات يطلب الله تعالى من الذين آمنوا ٱلإيمان بجميع ما فصّل ذكره فيها: وهو ٱلإيمان بالله ورسوله ـ الخاتم ـ والكتاب الذي نزل عليه، والكتاب الذي أنزله من قبله، وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ويقابل هؤلاء المؤمنين: المنافقون الذين آمنوا ـ بألسنتهم ـ ثمّ كفروا ـ في قلوبهم ـ فعلوا ذلك مرّات متعدّدة. ومن أفعالهم: اتّخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين يطلبون العزّة عندهم والعزّة جميعها لله، وعلى المؤمنين إذا سمعوا آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها أن لا يقعدوا معهم حتّى يخوضوا في حديث غيره، وإن لبث المؤمنون في تلك المجالس مع المستهزئين كانوا منافقين مثلهم، وينهى الله المؤمنين ـ أيضاً ـ عن ٱتّخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

وبناءً على ذلك فإنّ على المؤمنين (أي المسلمين) أن يؤمنوا بالله في بذل الطاعة في كلّ ما أمر، والإمتناع عن فعل كل ما نهى عنه: وعند ذلك يكون المؤمن مؤمناً حقّاً.

وخلاصة القول: إذا كان الإنسان يؤمن بما يرتضي مما أنزل الله ويرضيه، ويترك مما أنزل الله ما لا يرتضيه فليس بمؤمن، ومن ثمّ يخاطب الله المؤمنين ويقول لهم:

﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا آمِنوا بِما... و... و...﴾. (النّساء / ١٣٦)

النِّـفاقُ والمُـنَافِق

أ ـ في اللّغة:

نافق اليربوع؛ إذا ضرب برأسه النّافِقاءَ من جحره ومرق منه؛ وذلك لأنَّ لجحر اليربوع باباً ظاهراً يسمّى (ٱلْقاصعاءُ)، ومخرجاً قد رقّق التراب من جانبه دون أن يظهر ذلك من سطح الأرض؛ فإذا هوجم من بابه القاصعاء ضرب برأسه النَّافِقاءَ ومرق منه وهرب، وعندئذ يقال: «نافق اليربوع».

ب ـ في المصطلح الإسلامي:

نافَقَ الرَّجل نِفاقاً: أظهر ٱلإسلام وعَمل بعمله وأبطن ٱلْكفر؛ فهو منافقٌ.

قال الله سبحانه في سورة «ٱلمنافقون»:

﴿إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللهِ وَٱللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَٱللهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۞ ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً...﴾ (الآيتان ١ و ٢).

أي ٱتَّخذوا ما يحلفون به ستراً سميكاً. إذاً فهم يستـرون نـفاقهم بسـتر سميك من اليمين الكاذبة، والله يكشف للرَّسول (ص) زيف قولهم.

وقال سبحانه في سورة ٱلنِّساء:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ ٱللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَـامُوا إِلَىٰ ٱلصَّـلاةِ قَـامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ ٱلنَّاسَ...﴾ (الآية ١٤٢).

ثمّ إنّ الإسلام الذي أنزله الله في الكتب السماوية قد بلَّغه الرُّسل إلى أُممهم، وفسّروا الكتب بحديثهم.



مُصْطلحات الإمامة والخلافة

- الخليفة والخلافة
- أمير المؤمنين
- الإمام
- الوصيّ
- الأمر وأُولو الأمر
- الشّورىٰ
- البَيْعَة
- أهل البيت (ع)
- السُنّة والشّيعة أو مدرسة الخلفاء ومدرسة أهل البيت (ع)


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الخليفة والخلافة

الخلافة في لغة العرب: النيابة عن الغير[1].

والخليفة: مَن يخلف غيره، ويقوم مقامه، ويسدّ مسدّه[2].

وبهذا المعنى ورد في القرآن الكريم، في قوله تعالى:

أ ـ في سورة الأعراف:

﴿واْذكُروا إذ جَعَلَكُم خُلَفاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوح...﴾ (الآية / ٦٩).

﴿واْذكُروا إذ جَعَلَكُم خُلَفاءَ مِن بَعْدِ عاد...﴾ (الآية / ٧٤).

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلفٌ وَرِثوا الكتاب...﴾ (الآية / ١٦٩).

ب ـ في سورة مريم:

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهم خَلفٌ أضاعُوا الصّلاة...﴾ (الآية / ٥٩).

ج ـ في سورة الأنعام:

﴿إن يَشَأ يُذْهِبْكُم وَيَستخْلِفُ مِن بَعدِكم ما يَشاء...﴾ (الآية / ١٣٢).

وكذلك ورد في غيرها ونظائرها من آيات كريمة.

وورد في المعنى اللغوي ـ أيضاً ـ في حديث الرّسول (ص) في قوله: «اللّهمّ اَرحم خُلفائي، اللّهمّ اَرحم خُلفائي، اللّهمّ اَرحم خُلفائي».

قيل له: يا رسول الله (ص) مَن خلفاؤك؟

---

(١) مفردات الراغب، مادّة: (خلف).

(٢) نهاية اللغة، لابن الأثير، ولسان العرب، مادّة: (خلف).

قال: «الّذين يأتون من بعدي يروون حديثي وسنّتي».

واستعمل ـ أيضاً ـ في المعنى اللغوي في عصر الصحابة كالآتي:

أ ـ على عهد الخليفة الأوّل:

قال ابن الأثير في نهاية اللّغة:

وفي حديث أبي بكر، جاءه أعرابيّ فقال له: أنت خليفة رسول الله؟

فقال: لا.

فقال: ما أنت؟

قال: أنا الخالفة من بعده.

قال ابن الأثير: الخالفة: الّذي لا غناء عنده ولا خير فيه، وإنّما قال ذلك تواضعاً...[١]

ب ـ على عهد الخليفة الثاني:

روى السيوطي (ت: ٩١١ هـ) في تاريخه وقال: (فصل في نبذ من أخباره وقضاياه) أخرج العسكري في (الأوائل) والطبراني في (الكبير) والحاكم في (المستدرك): (أنّ عمر بن عبدالعزيز سأل أبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة: لأيّ شيء كان يكتب: «مِن خليفة رسول الله (ص)» في عهد أبي بكر؟ ثمّ كان عمر كتب أوّلاً: «مِن خليفة أبي بكر»، فمَن أوّل مَن كتب: «مِن أمير المؤمنين»؟ فقال: حدّثتني الشفاء ـ وكانت من المهاجرات ـ أنّ أبا بكر كان يكتب: مِن خليفة رسول الله، وكان عمر يكتب: مِن خليفة خليفة رسول الله، حتى كتب عمر إلى عامل العراق أن يبعث إليه رجلين جلدين يسألهما

---

(١) وعن ابن الأثير نقل ذلك في لسان العرب.

عن العراق وأهله، فبعث إليه لبيد بن ربيعة وعديّ بن حاتم، فقدما المدينة، ودخلا المسجد، فوجدا عمرو بن العاص، فقالا: إستأذن لنا على أمير المؤمنين، فقال عمرو: أنتما والله أصبتما اسمه. فدخل عليه عمرو، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: ما بدا لك في هذا الاسم؟ لتخرجنّ ممّا قلت. فأخبره وقال: أنت الأمير ونحن المؤمنون، فجرى الكتاب بذلك من يومئذ).

وروى عن النووي في تهذيبه، وقال:

قال عمر للناس: أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فسُمّي أمير المؤمنين، وكان قبل ذلك يقال له: خليفة خليفة رسول الله، فعدلوا عن تلك العبارة لطولها.[1]

---

(١) تاريخ السيوطي، ط. مطبعة السعادة بمصر، ١٣٧١ هـ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨. والحاكم في المستدرك (٣ / ٨١ ـ ٨٢). والأوائل للعسكري ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

أمير المؤمنين

ممّا أوردنا سابقاً عرفنا أنّ لفظ أمير المؤمنين آستعمل منذ عصر الخليفة عمر بن الخطّاب وأُريد به الحاكم الاسلامي الأعلى، وبقي متداولاً كذلك إلى عصر العثمانيين.

الإمـام

الإمام في اللّغة: الإنسان الذي يُؤتمّ به ويُقتدى بقوله أو فعله مُحِقّاً كان أو مُبطِلاً[1]، كما ورد في قوله تعالى:

﴿يومَ ندعو كُلَّ أُناسٍ بإمامِهم فَمَن أُوتي كتابه بيمينه فأُولئك يقرءُون كتابهم ولا يُظلَمون فتيلاً * ومَن كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ وأضلّ سَبيلاً﴾. (الإسراء / ٧١، ٧٢)

ومن الثاني ما ورد ذكره في قوله تعالى:

﴿فَقاتِلوا أئمّة الكفر إنّهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون﴾. (التوبة / ١٢)

والإمام في الاسلام هو الهادي إلى سبيل الله بأمرٍ من الله إنساناً كان كما ورد ذكره في قوله تعالى:

﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلماتٍ فأتمّهنّ، قال إنّي جاعِلُكَ للنّاسِ إماماً، قال ومِن ذرّيّتي قال لا ينال عهدي الظّالمين﴾. (البقرة / ١٢٤)

وقوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا...﴾. (الأنبياء / ٧٣)

أو كان كتاباً كما ورد في قوله تعالى:

﴿ومِن قبلِهِ كتاب موسىٰ إماماً ورحمة﴾. (هود / ١٧)

وندرك من فحوى الآيتين المذكورتين أعلاه أنّ شرط الإمام في الاسلام إن كان كتاباً أن يكون منزلاً مِن قِبَل الله على رسله لهداية النّاس، كما كان شأن كتاب محمّد (ص): القرآن الكريم، ومن قبله كتاب موسى: التوراة،

---

(١) راجع مادّة: (أمّ) في معاجم اللّغة.

وكذلك شأن كتب سائر الأنبياء[1].

وإن كان إنساناً أن يكون معيّناً مِن قِبَل الله لقوله تعالى:

﴿إنّي جاعِلُكَ للنّاس إماما﴾ و ﴿عهدي﴾.

وأن يكون غير ظالم لنفسه ولا لغيره، أي غير عاصٍ لقوله تعالى: ﴿لا ينال عهدي الظّالمين﴾.

وفي ضوء ما سبق يصحّ القول بأنّ الإمام في الاصطلاح الاسلامي هو: .

أ ـ الكتاب المنزل من قِبَل الله على رسله لهداية النّاس.

ب ـ الإنسان المعيّن من قِبَل الله لهداية النّاس، وشرطه أن يكون معصوماً من الذنوب.

---

(١) راجع مادّة: (الكتاب) في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

الوصيّ

ورد مصطلح الوصيّ والوصيّة ومشتقّاتها في كلام العرب بالمعاني الآتية:

يُقال لإنسان حيّ يعهد لإنسان آخر أن يقوم بأمر يهمّه بعد وفاته: الموصي، وللآخر: الوصيّ، وللأمر الموصى به: الوصيّة؛ وتجري الوصيّة بلفظ الوصيّة ومشتقّاتها تارةً مثل أن يقول الموصي لوصيّه: أوصيك بعدي برعاية أهلي أو إدارة مدرستي، وأن تفعل كذا وكذا، وأُخرى بلفظ يؤدّي معنى الوصيّة، مثل أن يقول الموصي لوصيّه: أطلب منك أن تقوم بعدي برعاية أهلي وإدارة مدرستي وتفعل كذا وكذا...

ويخبر الموصي الآخرين عن وصيّه أحياناً بلفظ: أوصيتُ إلى فلان، ووصيّي فلان، وأُخرى يقول: عهدتُ إلى فلان، أو: أوكلتُ إليه أن يقوم بكذا، وكلا اللّفظين يؤدّيان معنىً واحداً، وهكذا نظائرهما.

كان هذا موجز معنى مصطلح الوصيّ والوصيّة ومشتقّاتها في لغة العرب، وبنفس المعنى وردت في القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة؛ قال الله سبحانه في سورة البقرة (الآيات: ١٨٠ ـ ١٨٢):

﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصيّة﴾ ـ إلى قوله تعالى ـ: ﴿فمن خافَ من موصٍ جَنَفاً أو إثماً فأصلح بينهم﴾، وفي سورة المائدة (الآية: ١٠٦):

﴿يا أيّها الّذين آمنوا شهادة منكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصيّة اثنان ذوا عدل منكم...﴾، وكذلك وردت في سورة النّساء (الآيتان: ١١ و ١٢).

وممّا ورد في السنّة النبويّة ما رواه كلّ من البخاري في أوّل كتاب الوصايا من صحيحه، ومسلم في كتاب الوصيّة من صحيحه[1].

إنّ رسول الله (ص) قال: «ما حقّ آمرئ مسلم له شيء يوصي فيه أن يبيت ليلتين إلّا ووصيّته مكتوبة عنده».

وللوصيّة أحكامها في الفقه الاسلامي. وبناءً على ما ذكرناه إنّ لفظَي الوصيّ والوصيّة من المصطلحات الاسلامية.

والوصيّة من الأنبياء والرّسل أن يعهد الرّسل إلى أوصيائهم بعدهم إلى النّاس ورعاية أُمّتهم من بعدهم.

وفي هذه الأُمّة فعل خاتم الأنبياء (ص) مثل مَن سبقه من الرّسل وعهد إلى الامام عليّ (ع) تبليغ شريعته ورعاية أُمّته من بعده، وبواسطته عهد ذلك إلى بنيه الأئمّة الأحد عشر من بعده، وأخبر النبيّ المسلمين بكلّ ذلك، تارةً بلفظ الوصيّ والوصيّة ومشتقاتها، وأخرى بألفاظ أُخرى تؤدّي المعنى نفسه. فلُقِّب الامام عليّ (ع) بلقب الوصي وأصبح عَلَماً له.

(١) صحيح البخاري (٢ / ٨٣). وصحيح مسلم بشرح النووي (١١ / ٧٤).

الأمر وأُولو الأمر

لمعرفة معنى (الأمر) و (أُولي الأمر) وهل هما مصطلحان شرعيّان أم لا ؟ نستعرض في ما يلي موارد استعمالهما في لغة العرب وعُرْف المسلمين والنصوص الاسلامية كتاباً وسنّةً، فنقول:

أ ـ في لغة العرب:

ورد في سيرة ابن هشام، والطّبري، وغيرهما، أنّ رسول الله كان يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب، يدعوهم إلى الاسلام، ويخبرهم أنّه نبيّ مُرسل من قِبَل الله، ويسألهم أن يُصدّقوه ويمنعوه حتى يبيِّن عن الله ما بعثه به.

قال: وإنّه أتى بني عامر بن صعصعة ذات مرّة فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يُقال له بيحرة بن فراس[1]: والله لو أنّي أخذتُ هذا الفتىٰ من قريش لأكلتُ به العرب. ثمّ قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثمّ أظهرك الله على مَن خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»، قال: فقال له: أفنُهدف نحورنا[2] للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك.[3]

❁ ❁ ❁

---

(١) قال أبن هشام: فراس، أبن عبدالله بن سلمة بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. سيرة أبن هشام (٢ / ٣٣).

(٢) (أفنُهدف نحورنا) معناه نصيِّرها هدفاً. والهدف: الغرض الذي يُرمى بالسهام إليه.

(٣) سيرة أبن هشام (٢ / ٣١ ـ ٣٤). والطبري، ط. أوربا (١ / ١٢٠٥ ـ ١٢٠٦).

إنّ هذا العربي كان يفهم (أمر رسول الله (ص)) على أنّه سيادة وحكم على العرب، فأراد أن يعقد مع الرّسول (ص) حلفاً يكون لقبيلته الحكم والسيادة على العرب من بعد الرّسول (ص)، لكنّ الرّسول (ص) امتنع من إجابته رغم حاجته الشديدة يومذاك إلى المؤازرين، لأنّ الأمر ليس إليه وإنّما الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء.

وكذلك كان شأن هوذة بن عليّ الحنفيّ في طلبه من الرّسول (ص) حين دعاه الرّسول (ص) إلى الاسلام كما في طبقات ابن سعد، ما ملخّصه:

كتب رسول الله (ص) إلى هوذة بن عليّ الحنفيّ يدعوه إلى الاسلام، فكتب في جواب النبيّ (ص): ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتّبعك، فقال النبيّ (ص): «لو سألتني سيابة من الأرض ما فعلت»[1].

نرى أنّ الرّسول (ص) قصد من (سيابة): الأرض المهملة. إذن فقد طلب هوذة من الرّسول (ص) أن يجعل له بعض الأمر: إمارة ما على أرض أو قبيلة وما شابهها، فأجابه الرّسول (ص) أنّه لا يؤمّره ولا على سيابة من الأرض، وهذا القول من الرّسول (ص) نظير قول أهل الكوفة أو البصرة عندما وظّف واليهم على كلّ واحد منهم نقل كميّة من الحصباء إلى مسجدهم الجامع ليفرشه بالحصباء، وأمّر عليهم أحدهم وكان يتعصّب في قبول الحصباء منهم،

---

(١) طبقات ابن سعد، ط. أوربا (١ / ق٢ / ١٨).

وقالوا في السيابة: واحدة السياب: البسر الأخضر، وعلى هذا لم يكن من المناسب أن يقول ولا سيابة أي لا بسر من الأرض، بل كان المناسب أن يقول ولا بسر من التمر. ونرى أنّ السيابة مشتقّة من السيب وهو كلّ سيب وخلي، ومنه السّائبة: أي الدابّة المهملة، ويكون المعنى: الأرض الخالية المتروكة.

فقالوا: يا حبّذا الإمارة ولو على الحجارة! وكذلك الأمر في الخبر السابق، فإنّ هوذة طلب من الرّسول الإمارة (ولو على الحجارة) فأجابه الرّسول (ص): لا، ولا على الحجارة.

ب ـ في عُرْف المسلمين:

كان أكثر آستعمال (الأمر) في عُرْف المسلمين يوم السّقيفة وما بعدها، قال سعد بن عبادة للأنصار يوم السقيفة:

(استبدّوا بهذا الأمر دون النّاس...).

وأجابته الأنصار بقوله: (نولّيك هذا الأمر).

ثمّ ترادّوا الكلام وقالوا: (فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا: نحن عشيرته وأولياؤه، فعلَام تنازعوننا هذا الأمر من بعده؟...).

وقال أبو بكر في آحتجاجه عليهم يومذاك: (ولن يُعرف هذا الأمر إلّا لهذا الحيّ من قريش...).

وقال ـ أيضاً ـ في قريش: (هم أحقّ النّاس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم).

وقال عمر ـ أيضاً ـ يوم السّقيفة: (مَن ذا ينازعنا سلطان محمّد وإمارته ونحن أهله وعشيرته).

وقال الحُباب بن المنذر في جوابه: (لا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر... فأنتم والله أحقّ بهذا الأمر...).

وقال بشير بن سعد عندئذ في حقّ قريش: (لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً)[1].

---

(١) كل هذه المحاجات وردت في خبر السقيفة بتاريخ الطبري، ط. أوربا

ج ـ في النصوص الإسلامية:

لقد ورد في حديث الرّسول ذكر (الأمر) كثيراً. ونكتفي هنا بتسجيل كلمة الرّسول (ص) في جواب العامريّ:

«إنّ الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء».

وقد ورد في كتاب الله تعالى:

﴿يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأُولي الأمر منكم﴾.

(النّساء / ٥٩)

۞ ۞ ۞

في كلّ هذه الموارد سواء في لغة العرب، وعُرْف المسلمين، والنصوص الإسلامية سنّةً وكتاباً، إنّما أُريد من (الأمر) أمر الإمامة والحكم على المسلمين.

وعلى هذا فإنّ (الأمر) أستعمل في الشّرع الاسلاميّ بنفس المعنى الّذي أستعمل فيه لدى العرب والمسلمين، ولا مانع بعد ذلك أن نسمّي (أُولي الأمر) مصطلحاً شرعيّاً وتسمية إسلامية وأنّه أُريد به الإمام بعد النبيّ (ص)، ولا خلاف في ذلك، ولكنّ الخلاف بين المدرستين في من يصدق عليه تسمية أُولي الأمر، فإنّ مدرسة أهل البيت (ع) ترى أنّه لمّا كان المقصود من أُولي الأمر: الأئمّة، فلابدّ أن يكون منصوباً من قِبَل الله، معصوماً من الذّنوب.

وترى مدرسة الخلافة أنّ (أُولي الأمر): مَن بايعه المسلمون بالحكم. وبناءً على ذلك يرون وجوب طاعة كلّ من بايعوه، وعلى هذا الأساس أطاعوا الخليفة يزيد بن معاوية، فقتلوا وسبّوا آل بيت رسول الله (ص) بكربلاء،

← (١ / ١٨٣٧ ـ ١٨٥١).

وأباحوا مدينة الرّسول (ص) ثلاثة أيّام، ورموا الكعبة بالمنجنيق، بحثنا ذلك في المجلّد الثالث من كتاب (معالم المدرستين).

الشّـورىٰ

التشاور، والمشاورة، والمشورة في لغة العرب: استخراج الرّأي بمراجـعة البعض البعض الآخر.

وشاوره: استخرج ما عنده من رأي.

وأشار عليه بالرّأي، يشير: إذا ما وجّه الرّأي.

﴿وأمرهم شورىٰ بينهم﴾ (الشورىٰ / ٣٨)، من صار هذا الشيء شـورىٰ بين القوم إذا تشاوروا فيه[١].

لم يتغيّر معنى مشتقّات هذه المادّة في أستعمال القرآن الكريم، والحـديث الشريف، ولدى المسلمين عمّا كانت عليه في لغة العرب، وإنّما الكلام في مورد الشورىٰ والمشاورة في الشّرع الإسلامي وحكمها. وقد بحثنا هذا الموضوع في المجلّد الأوّل من كتاب (معالم المدرستين).

---

(١) راجع مادّة: (شور) من: مفردات الراغب. ولسان العرب. ومعجم ألفاظ القرآن الكريم.

البَيْـعَة

أ ـ البيعة في لغة العرب:

البيعة في لغة العرب: الصّفقة على إيجاب البيع[1]، وصـفق يـده بـالبيعة والبيع، وعلى يده صفقاً: ضرب بيده على يده عند وجوب البيع، وتصافقوا: تبايعوا[2]. كان هذا معنى البيعة لدى العرب.

أمّا العهد والحلف: فقد كانت العرب تعقد الحلف والعهد بأساليب مختلفة، مثل ما فعل بنو عبد مناف حين أرادوا أن يُقاتلوا بني عبدالدار على من يقوم بحجابة البيت وسقاية الحاجّ وغيرهما من أعمال السيادة بمكّة.

فروى ٱبن إسحاق أنّ بني عبد مـناف أخـرجـوا جـفنة مـملوءة طـيباً فوضعوها في المسجد عند الكعبة، ثمّ غمسوا أيديهم فـيها، وتـعاقدوا هـم وحـلفاؤهم، ثمّ مسـحوا الكـعبة بأيـديهم تـوكيداً عـلى أنـفسهم، وسمّـوا (المطيّبين)[3].

وروى ـ أيضاً ـ في أمر تجديد الكعبة: أنّ البنيان عندما بلغ موضع الرّكن ٱختصموا فيه، كلّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأُخـرى، حـتّى تحاوروا وتحالفوا، وأعدّوا للقتال، فقربت بنو عبدالدار جفنة مملوءة دماً، ثمّ تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسمّوا (لعقة الدم)[4].

---

(١) لسان العرب، مادة: (بيع).

(٢) لسان العرب، مادّة: (صفق).

(٣) سيرة ٱبن هشام (١ / ١٤١ ـ ١٤٣).

(٤) سيرة ٱبن هشام (١ / ٢١٣).

ب ـ البيعة في الإسلام:

كانت البيعة، أي: صفق اليد على اليد، في لغة العرب علامة على وجوب البيع، وأصبحت في الاسلام علامة على معاهدة المبايع المبايَع له أن يبذل له الطّاعة في ما تقرّر بينهما، ويُقال: بايعه عليه مبايعة: عاهده عليه.

وورد في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿إنّ الّذين يُبايعونك إنّما يُبايعون الله، يدُ الله فوقَ أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه ومَن أوفىٰ بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾. (الفتح / ١٠)

ونذكر من سنّة الرّسول (ص) ثلاث مرّات أخذ الرّسول (ص) فيها البيعة من المسلمين:

١ ـ البيعة الأُولىٰ:

إنّ أوّل بيعة جرت في الاسلام هي بيعة العقبة الأُولىٰ، أخبر عنها عبادة ابن الصامت وقال:

(وافىٰ موسم الحجّ من الأنصار أثنا عشر رجلاً ممّن أسلم منهم في المدينة، وقال عبادة:

بايعنا رسول الله (ص) بيعة النّساء، وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنّة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأُخذتم بحدّه في الدنيا فهو كفّارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عزّ وجلّ: إن شاء عذّب، وإن شاء غفر[1]. وسُمّيت هذه البيعة ببيعة العقبة الأُولىٰ).

---

(١) سيرة ابن هشام (٢ / ٤٠ ـ ٤٢).

٢ ـ البيعة الثانية الكبرى بالعقبة:

روى كعب بن مالك وقال:

خرجنا من المدينة للحجّ وتواعدنا مع رسول الله (ص) العقبة أواسط أيّام التشريق، وخرجنا بعد مضيّ ثلث اللّيل متسلّلين مستخفين حتّى آجتمعنا في الشّعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً وآمرأتان. فجاء رسول الله (ص) ومعه عمّه العبّاس، فتكلّم رسول الله (ص) فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام ثمّ قال:

«أبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون نساءكم وأبناءكم». فأخذ البَرَاء بن معرور بيده ثمّ قال: نعم والّذي بعثكَ بالحقّ لنمنعنّك ممّا نمنع به أُزُرَنا[1]، فبايِعْنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب...

فقال أبو الهيثم بن التّيهان: يا رسول الله إنّ بيننا وبين الرّجال حبالاً، وإنّا قاطعوها (يعني اليهود)، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثمّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسّم رسول الله (ص) ثمّ قال: «بل الدم الدم والهدم الهدم...» أي: ذمّتي ذمّتكم وحُرمتي حُرمتكم.

وقال رسول الله (ص): «أخرِجوا إليّ منكم آثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأخرجوا منهم آثني عشر نقيباً؛ تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، قال رسول الله (ص): «أنتم على قومكم بما فيكم كفلاء ككفالة الحواريّين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي» يعني: المسلمين. قالوا: نعم.

وآختلفوا فيمن كان أوّل من ضرب على يده، أسعد بن زرارة أم أبو

---

(١) أُزُرَنا: نساؤنا، والمرأة يُكنّى عنها بالازار.

الهيثم بن التّيهان[1].

٣ ـ بيعة الرّضوان، أو بيعة الشّجرة:

في سنة سبع من الهجرة، استنفر رسول الله (ص) أصحابه للعمرة، فخرج معه ألف وثلاثمائة، أو ألف وستّمائة، ومعه سبعون بدنة، وقال: لست أحمل السّلاح، إنّما خرجتُ مُعتمراً. وأحرموا من ذي الحليفة، وساروا حتّى دنوا من الحديبية على تسعة أميال من مكّة، فبلغ الخبر أهل مكّة فراعهم، وآستنفروا من أطاعهم من القبائل حولهم وقدّموا مائتي فارس عليهم خالد ابن الوليد أو عكرمة بن أبي جهل، فاستعدّ لهم رسول الله (ص) وقال: إنّ الله أمرني بالبيعة. فأقبل النّاس يبايعونه على ألّا يفرّوا، وقيل: بايعهم على الموت، وأرسلت قريش وفداً للمفاوضة، فلمّا رأوا ذلك تهيّبوا وصالحوا رسول الله (ص)...[2].

هذه ثلاثة أنواع من البيعة على عهد الرّسول (ص) وهي:

أ ـ البعية على الإسلام.

ب ـ البيعة على إقامة الدولة الإسلاميّة.

ج ـ البيعة على القتال.

والبيعة الثالثة تجديد للبيعة الثانية، وذلك لأنّ الرّسول (ص) كان قد آستنفرهم للعمرة. وبعد تبدّل الحالة من العمرة إلى القتال، كانت الحالة الحادثة مخالفة للعمل الّذي آستنفرهم له وخرجوا من أجله، فكأنّه كان مخالفاً لما عاهدهم عليه، فلذلك آحتاج إلى أخذ البيعة للقيام بالعمل الجديد،

---

(١) سيرة آبن هشام (٢ / ٤٧ ـ ٥٦).

(٢) إمتاع الأسماع للمقريزي، ص ٢٧٤ ـ ٢٩١.

وفعل ذلك وأعطىٰ ثمره في إرعاب أهل مكّة، وحصول النتيجة المطلوبة.

ونختم البحث بستّ روايات في البيعة وطاعة الإمام:

١ ـ روى ابن عمر قال: كنّا نبايع رسول الله (ص) على السّمع والطّاعة ثمّ يقول لنا: «فيما استطعت»[١].

٢ ـ وفي رواية، وقال عليّ: «ما استطعتم»[٢].

٣ ـ وفي رواية، وقال جرير: قال: «قل: في ما استطعت»[٣].

٤ ـ وروى الهرماس بن زياد قال: مددت يدي إلى النبيّ (ص) وأنا غلام ليبايعني، فلم يبايعني[٤].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله (ص):

«على المرء المسلم السّمع والطّاعة فيما أحبّ وكره، إلّا أن يُؤمر بمعصية فإذا أُمِرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[٥].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب البيعة، ج ٥. وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب البيعة على السمع والطاعة في ما استطاع، ح ٩٠. وسنن النسائي، كتاب البيعة، باب البيعة في ما يستطيع الإنسان.

(٢) سنن النسائي، كتاب البيعة، باب البيعة في ما يستطيع الإنسان.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب البيعة، ح ٥.

(٤) البخاري، كتاب الأحكام، باب بيعة الصغير. وسنن النسائي، كتاب البيعة، باب بيعة الغلام.

والهرماس بن زياد، أبو حيدر البصري الباهلي: من قيس عيلان. مات باليمامة بعد المائة. راجع ترجمته بأسد الغابة، وتقريب التهذيب.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ح ٣. وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأُمراء في غير معصية، ح ١٨٣٩. وسنن ابن ماجة، كتاب الجهاد، باب لا طاعة في مَعصية الله، ح ٢٨٦٣. وسنن النسائي، كتاب البيعة، باب جزاء من أمر بمعصية. ومسند أحمد (٢ / ١٧، ١٤٢).

٥ ـ وعن ابن مسعود قال:

قال (ص): «سيلي أُموركم بعدي رجال يطفئون السنّة ويعملون بالبُدعة، ويؤخّرون الصّلاة عن مواقيتها». فقلت: يا رسول الله! إن أُدركتهم كيف أفعل؟ قال: «تسألني يا ابن أُمّ عبد كيف تفعل؟ لا طاعة لمن عصى الله»[1].

٦ ـ وعن عبادة بن الصّامت في حديث طويل آخره:

«فلا طاعة لمن عصى الله تبارك وتعالى، فلا تعتلوا بربّكم»[2].

وفي رواية:

«لا تضلّوا بربّكم»[3].

يتّضح لنا من دراسة البيعة في سنّة الرّسول (ص) أنّ للبيعة ثلاثة أركان:

أ ـ المُبايع.

ب ـ المُبايَع له.

ج ـ المعاهدة على الطّاعة للقيام بعمل ما.

وتقوم البيعة أوّلاً على تفهّم ما يطلب الطاعة على القيام به، ثمّ تنعقد المعاهدة بضرب يد المُبايع على يد المُبايَع له بالكيفيّة الواردة في السنّة، والبيعة على هذا مصطلح شرعيّ، غير أنّ شروط تحقّق البيعة المشروعة في الاسلام غير واضحة لكثير من المسلمين اليوم، فنقول:

---

(١) سنن ابن ماجة (٢ / ٩٥٦، ح ٢٨٦٥). ومسند أحمد (١ / ٤٠٠)، وفي لفظ: ليس طاعة لمن عصى الله.

(٢) مسند أحمد (٥ / ٣٢٥)، عن عبادة بن الصامت، وأنّه روى الحديث في دار عثمان عندما شكاه معاوية إلى عثمان فجلبه عثمان إلى المدينة، ومختصر الحديث برواية عبادة في ص ٣٢٩ منه.

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٧ / ٢١٥).

تنعقد البيعة في الاسلام إذا توفّرت فيها الشروط الثلاثة التالية:

أ ـ أن يكون المُبايِع ممّن تصحّ منه البيعة، ويبايع مُختاراً.

ب ـ أن يكون المُبايَع لَه ممّن تصحّ مبايعته.

ج ـ أن تكون البيعة لأمر يصحّ القيام به.

وعلى ما بيّنّا لا تصحّ البيعة من صبيّ أو مجنون، لأنّهما غير مكلّفين بالأحكام في الاسلام، ولا تنعقد بيعة المُكره، لأنّ البيعة مثل البيع، فكما لا ينعقد البيع بأخذ المال من صاحبه قهراً ودفع الثمن له، كذلك البيعة لا تنعقد بأخذها بالجبر وفي ظلّ السّيف.

وكذلك لا تصحّ البيعة للمتجاهر بالمعصية، ولا تصحّ البيعة للقيام بمعصية الله. إذن فالبيعة مصطلح إسلاميّ، ولها أحكامها في الشّرع الاسلاميّ.

الخلاصة:

البيعة في لغة العرب: الصّفقة على إيجاب البيع. وفي الاسلام أمارة على معاهدة المُبايِع المُبايَع له على أن يبذل له الطّاعة في ما تقرّر بينهما، ولا تنعقد إذا لم تتوفّر شروطها، فإنّها لا تصحّ من صبيّ أو مجنون، ولا تنعقد البيعة من مُكره ولا تصحّ للمتجاهر ولا تصحّ للقيام بمعصية الله.

وقد بايع رسول الله (ص) على الاسلام أوّلاً، وعلى إقامة الدولة الإسلاميّة ثانياً، كما بايع المسلمين على القتال، وأشار الله سبحانه وتعالى إلى الأخير في قوله تعالى:

﴿إنّ الّذين يُبايعونك إنّما يُبايعون الله يدُ الله فوقَ أيديهم﴾. (الفتح / ١٠)

أهل البيت (ع)

في المصطلح الاسلامي:

ورد لفظ «أهلُ البيت (ع)» في قوله تعالى في سورة الأحزاب:

﴿إنّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُم الرِّجْسَ أهْلَ ٱلبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطهِيراً﴾ (الآية / ٣٣).

وفسّره الرّسول (ص) في سنّته قولاً وعملاً، فقد روى الحاكم (ت: ٤٠٥ هـ) في المستدرك على الصحيحين ما موجزه:

[إنّ رسول الله (ص) لمّا رأى الرّحمة هابطة قال: «أُدعوا لي، أُدعوا لي» قالوا: مَن يا رَسول الله!؟ قال: «أهلَ بيتي؛ عليّاً وفاطِمَةَ (ت: ١١ هـ) والحَسَن والحُسين»، فجيء بهم، فألقىٰ عليهم النبيّ (ص) كساءه ثمّ رفع يديه، ثمّ قال: «اللّهمّ هولاءِ آلي فَصَلِّ علىٰ مُحمَّدٍ وَآلِ مُحمَّدٍ»، وأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿إنّما يُريد الله...﴾][1].

وروت أُمّ سَلَمَة (ت: بين سنة ٦١ و ٦٤ هـ) كيفيّة الخبر في روايات متعدِّدة وموجزها:

[إنّ ذلك كان في يوم أُمّ سَلَمَة وفي بيتها، وأنّ الرّسول (ص) جلّلهم بكساء كان عليه، ثمّ قال: «هؤلاء أهل بَيْتي فَأَذْهِبْ عَنْهُم الرّجس وطَهِّرْهُم

(١) مستدرك الحاكم (ت: ٤٥٠ هـ)، (٣ / ١٤٧ ـ ١٤٨)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، أي البخاريّ (ت: ٢٥٦ هـ)، ومُسْلِم (ت: ٢٦١ هـ).

تَطْهِيراً»، فنزلت الآية حين آجتمعوا، فقالت أمّ سَلَمَة: ما أنا مِنْ أهل البيت؟ قال: «إنّكِ إلىٰ خير، وهؤلاء أهل بيتي، إنّك من أزواج النبيّ»][1].

ومن أجل أن يُعرِّف النبيّ (ص) مصطلح (أهل البيت) للمسلمين، قال صلوات الله عليه وعلى أهل بيته: «نزلت هذه الآية في خمسة؛ فيَّ وفي عَليٍّ وحَسَنٍ وحُسَيْنٍ وفاطِمةَ، إنّما يُريد الله ليُذهب...» الآية.

ومزيداً للتوضيح كان (ص) كلّما خرج إلى الصّلاة يمرُّ بباب فاطمة وعليّ ـ وكان باب دارهم شارعاً إلىٰ مسجد الرّسول (ص) ـ فيقول: «الصّلاةُ يا أهلَ البيتِ، إنّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» يفعل ذلك كلّ يوم خمس مرّات.

الخلاصة:

كان الرّسول (ص) في بيت أُمّ المؤمنين أُمّ سَلَمَة لمّا رأىٰ آثار رحمة الله هابطة، فدعا عليّاً وفاطِمَةَ والحَسَنَ والحُسَيْنَ (ع)، وجَلّلهم ونفسه بالكساء، فنزلت آية التطهير، فقال الرّسول (ص): «هٰؤلاءِ هُمْ أهْلُ بَيْتِي»، فقالت أُمّ سَلَمَة: ما أنا من أهلِ البيت؟، فقال: «إنّكِ إلىٰ خير، هؤلاء أهل بيتي. إنّكِ من أزواج النبيّ».

(١) أخرجنا الروايات في كتابنا «حديث الكساء» ص ٦ ـ ٩ من تفسير الطّبري وسُنَن الترمذيّ ومُستدرك الحاكم وسُنَن البيهقيّ وغيرها من المصادر.

السنّة والشّيعة
أو مدرسة أهل البيت ومدرسة الخلفاء

إنقسم المسلمون بعد رسول الله (ص) إلىٰ مدرستين:

أ ـ المدرسة التي ترىٰ وجوب طاعة الخلفاء، بدءاً بالخليفة الأوّل أبي بكر، وانتهاءً بآخر خليفة من الخلفاء العثمانيّين في تركيا، بما فيهم يزيد بن معاوية الذي قتل سبط الرّسول (ص)، وسبىٰ ذراريه وسار بهم من بلد إلى بلد، وأباح المدينة ثلاثة أيّام، ورمى الكعبة بالمنجنيق، إلى نظرائه من الخلفاء، وسُمّي أتباء هذه المدرسة بـ (أهل السنّة والجماعة). وكان بدء هذه التسمية سنة ٤١ هـ بعد تجمّعهم على بيعة معاوية كما صرّح بذلك ابن كثير في تاريخه، وقال: «وسُمّيَ هذا العام عام الجماعة لاجتماع الكلمة فيه علىٰ أمير واحد»[١].

ب ـ المدرسة التي ترىٰ وجوب طاعة أئمّة أهل البيت (ع). وسُمّيَ أتباع هذه المدرسة بـ (الشّيعة)، أي شيعة أهل البيت (ع). وكذلك سُمّيَ محبّو أهل البيت ـ أيضاً ـ بـ (الشّيعة).

وفي كلتا التسميتين تسامح ملحوظ، فإنّ أتباع مدرسة الخلفاء لا يعبأون بسنّة الرّسول (ص) المرويّة عن طرق أئمّة أهل البيت، فإنّ الشّيخين مسلماً والبخاري لم يخرجا روايات سبط الرّسول (ص) الأكبر الإمام الحسن (ع) في

(١) تاريخ ابن كثير، ط. مطبعة السعادة بمصر، (٨ / ٢١)، وقال مثله في تاريخ الخميس للدياربكري (ت: ٩٦٦ هـ)، ط. بيروت، (٢ / ٢٩١).

صحيحيهما، ولم يخرج الشّيخ البخاري روايات الإمام جعفر الصّادق (ع) (ت: ١٤٨ هـ) في صحيحه، بينا أخرج الحديث عن عمران بن حطّان الخارجي (ت: ٨٤ هـ)[1] الّذي أثنىٰ علىٰ ضربة ٱبن مُلجم (ت: ٤٠ هـ) للوصي الإمام عليّ (ع) بقوله:

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها — إلّا ليبلغ من ذي العرشِ رِضوانا

إنِّي لأذكرهُ يوماً وأحسبهُ — أوفى البريّةِ عند الله ميزانا

كما تسامحوا في التسمية بـ(الشيعة)، فإنّهم وصفوا بعض أئمّة علماء الحديث بمدرسة الخلفاء بالتشيّع لأنّهم فضّلوا الإمام عليّاً (ع) على من قاتَله، أو رووا في فضله رواية عن رسول الله (ص).

مثل أبي بكر عبدالرزّاق بن همام الصنعاني (ت: ٢١١ هـ)؛ فقد قال ابن حجر في ترجمته بـ «تقريب التهذيب»: «ثقة حافظ مُنصِف شهير... وكان يتشيّع»[2].

فما وجه تشيُّعه وقد خرّج أحاديثه جميع أصحاب الصّحاح والسنن والمسانيد؟

وقال الذهبيّ في ترجمته بـ «تذكرة الحفّاظ»: «كان من أوعية العلم»، وقال: «ونقموا عليه التشيّع، وما كان يغلو فيه بل كان يحبّ عليّاً ويبغض مَن قاتله». وكان يقول: «والله ما ٱنشرح صدري قطّ أن أفضّل عَلِيّاً علىٰ أبي بكر وعمر»[3].

---

(١) راجع تراجم الإمام الحسن (ع) والإمام جعفر الصّادق (ع)، وعمران بن حطّان في كتابي: «تهذيب التهذيب»، و«تقريب التهذيب» لابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢ هـ)، وترجمة الإمام عليّ في الإستيعاب.

(٢) تقريب التهذيب (٢ / ٥٠٥)، رقم الترجمة: ١١٨٣.

(٣) تذكرة الحفّاظ للذّهبيّ (ت: ٧٤٨ هـ)، ص ٣٦٤.

ومثال آخر من ذلك الحاكِم؛ فقد قال الذهبيّ في ترجمته بتذكرة الحفّاظ ما موجزه:

[الحافظ الكبير إمام المحدِّثين، أبو عبدالله، محمّد بن عبدالله النّيسابوريّ المعروف بابن البَيْع.

سمعَ من ألفي شيخ أو نحو ذلك، بلغت تصانيفه قريباً من خمسمائة جزء، ومن تآليفه: «فضائل الشّافعيّ (ت: ٢٠٤ هـ)»، ونقل أنّ مشايخ الحديث كانوا يذكرون أيّامه، وأنّ الأئمّة من مقدّمي عصره كانوا يقدِّمونه على أنفسهم ويراعون حقّ فضله ويعرفون له الحرمة الأكيدة.

وسُئل عن حديث الطّير فقال: «لا يصحّ، ولو صحّ لما كان أحد أفضل من عليّ (رض) بعد النبيّ (ص)].

ثمّ تغيّر رأي الحاكِم وأخرج حديث الطّير في مُستدركه وجمع فيه أحاديث وزعم أنّها علىٰ شرط البخاريّ ومسلم، منها: «حديث الطّير»، و «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعليٌّ مَوْلاه». فأنكرها عليه أصحاب الحديث فلم يلتفتوا إلى قوله.

وقال الذهبيّ:

[أمّا «حديث الطّير» فله طرق كثيرة جدّاً قد أفردتها بمصنّف ومجموعها هو يوجب أن يكون الحديث له أصل.

وأمّا حديث «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعليٌّ مَوْلاه»، فله طرق جيّدة، وقد أفردت ذلك أيضاً].

يعني الذهبيّ: أنّه ألّف في حديث «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعليٌّ مَوْلاه»، كتاباً خاصّاً.

وقال الذهبيّ: [قالوا فيه:

ثقة في الحديث، رافِضيٌّ خَبيث.

كان يظهر التسنُّن في التقديم والخلافة، وكان مُنحرفاً عن معاوية وآله - يعني يزيد - متظاهراً بذلك ولا يعتذر منه].

وقال الذهبيّ:

[قلت: أمّا انحرافه عن خصوم عليّ فظاهر، وأمّا أمر الشّيخين فمعظّم لهما بكلِّ حال، فهو شيعي لا رافضيّ].

وقال: [فإنّه غضّ فضائله بسوء تصرُّفه][1].

۞ ۞ ۞

وقد سمّينا في بحوثنا المدرسة الأُولىٰ بـ(مدرسة الخلفاء)، والمدرسة الثانية بـ(مدرسة أهل البيت).

وينبغي أن نذكر الفروق بين المدرستين في البحث الآتي:

الفروق بين المدرستين:

ترىٰ مدرسة الخلفاء: أنّ الله ورسوله تركا المسلمين هملاً بعد وفاة الرّسول (ص)، فانتخبوا من بينهم الصحابيّ أبا بكر خليفة لهم وبايعوه، فأصبح ذلك حاكماً على المسلمين تجب عليهم طاعته، وأنّه استمرّ الأمر كذلك إلى عهد الأمويّين والعبّاسيّين وإلى آخر العثمانيّين[2].

---

(١) تذكرة الحفّاظ، ص ١٠٣٩ - ١٠٤٥.

(٢) وقال نظير ذلك في شأن جمع القرآن الكريم فقد قالوا: إنّ الله ورسوله لم يهتمّا بأمر جمع القرآن الكريم وتركاه أوزاعاً، فاختلفت نسخ المصاحف التي بأيدي الصّحابة في النصّ القرآني، وأدّىٰ ذلك إلى الإختلاف بينهم، فأمر الخليفة عثمان (ت: ٣٥ هـ) بجمع ←

وترىٰ مدرسة أهل البيت (ع) أنّ الله تعالىٰ يعيّن بعد الرّسُل (ع) أوصياء يحافظون على شريعتهم، كما كان شأن شيثَ وصيٍّ آدم من بعده، وسامَ بعد نُوحٍ، واليَسَعَ بعد مُوسىٰ، وأنّ أوصياء خاتم الرّسل (ص) إثنا عشر، وهم أئمّة المسلمين من بعده، أوّلهم عليٌّ بن أبي طالب (ع) وآخرهم المهديُّ (عج)، ابن الحسن العسكريّ (ع) (ت: ٢٦٠ هـ)، وأنّ الرّسول (ص) بلّغ المسلمين ذلك من قِبَلِ الله كما بلّغهم سائر أحكام الاسلام وعقائده[1]، وأنّ أُولئك الأوصياء بعد الرّسول (ص) حفظوا سنّته وبيانه لتفسير كتاب الله من التبديل والتحريف والكتمان وبلّغوهما للناس جيلاً بعد جيل.

← القرآن الكريم ووحّد نسخ المصاحف المختلفة في النصّ القرآني ـ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ـ بينما برهنّا في الجزء الأوّل من «القرآن الكريم وروايات المدرستين» على أنّ الرّسول (ص) هو الذي جمع القرآن الكريم كما هو بأيدينا بأمر من الله ووحي منه، وأملاه كذلك على الصّحابة مع تفسير آياته فكتبوهما معاً في ما كتبوا من آي القرآن الكريم، ولمّا كان مع ما كتبت الصّحابة من القرآن في المصاحف التي كانت لديهم ما تلقّوه من الرّسول (ص) من تفسير آيات القرآن الكريم وكان في ذلك التفسير ما يشين أُسرة الخلافة من آل أُميّة وغيرهم من قبائل قريش الذين آذوا الرّسول (ص) بمكّة، وحاربوه بعد هجرته إلى المدينة، ووقع الخلاف ـ بسبب ذلك التفسير المكتوب مع آيات القرآن الكريم ـ بين ذوي عصبة الخلافة ومَن كان يقرأ القرآن الكريم مع ذلك التفسير مثل الصحابي ابن مسعود (ت: ٣٢ هـ). فأمر الخليفة عثمان بكتابة نسخ من القرآن الكريم مجرّدة من حديث الرّسول (ص) في تفسير القرآن الكريم ووزّعها على بلاد المسلمين؛ وأحرق سائر المصاحف التي كانت بأيدي الصّحابة بما كان فيها من أحاديث الرّسول (ص) في تفسير القرآن مكتوبة مع آيات القرآن الكريم، فرووا وقالوا: إنّ النسخ التي كانت بأيدي الصّحابة كانت تختلف بعضها عن بعض في النصّ القرآني ـ معاذ الله!! ـ وأنّ الخليفة عثمان وحّد النّسخ المختلفة في النصّ القرآني.

(١) راجع بحث «النصوص الواردة عن رسول الله (ص) في تعيين ولي الأمر من بعده» في الجزء الأوّل من معالم المدرستين، الطّبعة الرابعة، إلى آخر الكتاب.

وبالإضافة إلى ما ذكرنا، تختلف المدرستان في الإعتماد على الوسائط إلى الرّسول (ص) لأخذ سنّته، وذلك إنّ مدرسة الخلفاء تقول بعدالة جميع الصّحابة، ولا يتطرّق الشكّ عندهم في عدالة أيّ فرد منهم، ولذلك فإنّهم يأخذون سنّة الرّسول (ص) من أيّ فرد وصف عندهم بأنّه صحابيّ.

لَستُ أدري كيف يكون كلّ الصّحابة عدولاً، وإنّ الله سبحانه يقول في سورة التوبة: ﴿ومِن أهلِ المدينةِ مَرَدُوا على النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُم نَحْنُ نَعْلَمُهُم﴾ (الآية ١٠١).

وإنّ الّذين أخبر الله بنفاقهم وإنّ الرّسول (ص) لا يعلم نفاقهم، كانوا من الصّحابة من أهل المدينة.

وكيف يكون كلّ الصّحابة عدولاً والرّسول (ص) يقول لهم: «لا تَرْجِعوا بَعْدي كُفّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ»[1].

فإنّ الّذين خاطبهم الّرسول (ص) بهذا القول كانوا ممّن يعاشرونه من الصّحابة.

لستُ أدري كيف يكون كلّ الصّحابة عدولاً وقد قال الرّسول (ص):

«إنّه يُجاء برجالٍ مِن أُمّتي، فيؤخَذُ بهم ذاتَ الشّمال، فأقول: يا رَبِّ أُصيحابي.

فيُقال: إنّك لا تدري ما أحْدَثوا بَعْدَكَ.

(١) صحيح البخاريّ (٤ / ١٤٩)، كتاب الفتن، باب قول النبيّ (ص): «لا ترجعوا بعدي كفّاراً...». وكتاب العلم، باب ٤٤. وكتاب الأضاحي، باب ٥. وصحيح مسلم. وكتاب الإيمان، ح ١١٨ ـ ١٢٠. وكتاب القسامة، ح ٢٩. وسنن أبي داود، كتاب السنّة، باب ١٥. وسنن الترمذيّ، كتاب الفتن، باب ٢٨. وسنن الدّارميّ، كتاب المناسك، باب ٧٦. ومسند أحمد (٢ / ٨٥، ٨٧، ١٠٤) و (٥ / ٣٧، ٣٩، ٤٤، ٤٥، ٤٩، ٦٨).

فأقولُ كما قالَ العَبْدُ ٱلصّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهيداً ما دُمْتُ فيهِمْ فَلَمّا تَوَفَّيْتَني كُنْتَ أَنْتَ الرَّقيبَ عَلَيْهِمْ﴾. (المائدة / ١١٧)

فَيُقال: إنّ هٰؤلاءِ لَمْ يزالُوا مُرْتَدِّينَ علىٰ أعْقابِهِمْ مُنْذُ فارَقْتَهُمْ»[١].

وفي رواية:

«لَيَرِدَنّ عَلَيَّ ناسٌ مِنْ أصْحابِيَ الحَوْضَ حَتّىٰ إذا عَرَفْتُهُمْ ٱخْتَلَجُوا دُوني، فَأقولُ: أصحابي. فَيَقُولُ: لا تَدْري ما أحدَثوا بَعْدَك»[٢].

وفي صحيح مسلم:

«لَيَرِدَنّ عَلَيَّ الحَوْضَ رِجالٌ مِمَّن صاحَبَني حَتّىٰ إذا رأيتُهُم رَفعوا إلَيَّ ٱخْتَلَجوا دوني، فَلَأقُولَنَّ: أيْ رَبِّ أُصَيْحابي. فَلَيُقالَنَّ لي: إنّك لا تَدري ما أحْدَثُوا بَعْدَك»[٣].

وإليكم موردين من مصاديق أحاديث الرّسول (ص) أو بالأحرىٰ صدق تنبّئه عن الحوادث الكائنة بعده:

المورد الأوّل ـ قتل الصّحابيّ أبي الغادِيَة الصَّحابيَّ عمّار بن ياسر (ت: ٣٧ هـ)، وإليكم خبر ذلك:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة المائدة، باب (وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلمّا توفّيتني)، وكتاب الأنبياء، باب (وٱتّخذ الله إبراهيم خليلاً). والترمذي، أبواب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحشر، وتفسير سورة طه.

(٢) البخاري، كتاب الرّقاق، باب في الحوض، (٤ / ٩٥). وراجع كتاب الفتن، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وٱتّقوا فتنة لا تصيبنّ...﴾ (الأنفال / ٢٥)، منه. وابن ماجة، كتاب المناسك، باب الخطبة يوم النّحر، ح ٥٨٣٠. وراجع مسند أحمد (١ / ٤٥٣)، (٣ / ٢٨)، (٥ / ٤٨).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبيّنا، ح ٤٠.

جاء في ترجمة أبي الغادِيَة في أُسد الغابة:

[أبو الغادِيَةِ الجُهْنيّ بايع النبيّ (ص). سكن الشّام، قال أبو الغادِيَة: خَطبنا رسول الله (ص) غداة العَقَبَةِ فقال: «ألا إنّ دماءَكُمْ وأمْوالَكُمْ حَرامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا في بَلَدِكُمْ هذا في شَهْرِكُمْ هذا، ألا هَلْ بَلَّغت».

قال: نعم.

وكان من شيعةِ عثمان (رض) وهو قاتِل عمّار بن ياسر. وكان إذا آستأذن على معاوية (ت: ٦٠ هـ) وغيره يقول: قاتِل عمّار بالباب، وكان يصف قتله لعمّار إذا سُئل عنه كأنّه لا يبالي به.

وفي قصّته عجب عند أهل العلم. روى عن النبيّ (ص) النّهي عن القتل، ثمّ يقتل مثل عمّار. والله لو أنّ عمّاراً قتله أهل الأرض لدخلوا النّار][1].

أمّا عمّار فإليكم ترجمته:

[أبو اليقضان، عمّار بن ياسر المَذْحِجيُّ العَنْسيُّ، وهو من السّابقين الأوّلين إلى الاسلام، وهو حليف بني مَخْزوم، وأُمّه سُمَيَّةُ وهي أوّل من آستشهد في سبيل الله عزّ وجلّ (عام ٧ هـ)، وهو وأبوه وأُمّه من السّابقين.

أسلم عمّار ورسول الله (ص) في دار الأرْقَم (ت: ٥٥ هـ) هو وصُهَيْبُ بنُ سَنان (ت: ٣٨ هـ) في وقت واحد. قال عمّار: «لقيتُ صُهيب بن سَنان على باب دار الأرْقَم ورسول الله (ص) فيها، فقلتُ: ما تُريد؟ فقال: وما تُريد أنت؟ فقلت: أردتُ أن أدخل على محمّد (ص) وأسمع كلامه. فقال: وأنا أُريد ذلك، فدخلنا عليه فعرض علينا الإسلام فأسلمنا».

أخذه المشركون فعذّبوه فلم يتركوه حتّى سبّ النبيّ (ص) وذكر آلهتهم

---

(١) أُسد الغابة (٥ / ٢٦٧).

بخير ثمّ تركوه، فلمّا أتى الرّسول (ص) قال: «ما وراءك ؟» قال: شرٌّ يا رسول الله ؛ ما تُرِكْتُ حتّى نِلْتُ مِنْكَ وذكَرْتُ آلهتهم بخير. قال: « كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟»، قال: مُطمئنّاً بالإيمان. قال: «فَإِنْ عادوا لَكَ فَعُدْ لَهُم».

وكان رسول الله (ص) مرّ بعمّار وأُمّهِ وأبيهِ وهُم يُعذّبون بالأبْطَح في رمضاء مكّة. فقال: «صَبْراً آلَ ياسِرْ! مَوْعِدُكُمُ الجنّة».

مرّ رسول الله (ص) بعمّار بن ياسر وهو يبكي ويَدْلُكُ عينيه. فقال رسول الله (ص): «ما لَكَ ؟ أخذك الكفّار فغطّوك في الماء فقُلْتَ كذا وكذا ؟ فإن عادوا لَكَ فَقُلْ كما قُلْت».

شهد بَدْراً وأُحُداً وغيرهما. وقال النبيّ (ص) فيه: «مَنْ عادىٰ عمّاراً عاداه الله. ومَنْ أبغضَ عمّاراً أبغضهُ الله».

وجاء عمّار يستأذن النبيّ (ص) فقال: «إئذنوا له! مَرْحَباً بالطَّيِّب المُطيَّب».

وقال له (ص): «أبْشِرْ يا عَمّارُ! تَقْتُلُكَ الفِئَةُ الباغِيَةُ».

قدم رسول الله (ص) المدينة أوّل ما قدمها ضحىً فقال عمّار: ما لرسول الله بُدٌّ من أن نجعل له مكاناً إذا أستظلّ من قائلته ليستظلّ فيه ويصلّي فيه. فجمع حجارة فبنىٰ مسجد قباء. فهو أوّل مسجد بُنِيَ وعمّارُ بناه.

وشهد عمّارُ قتال مُسَيْلَمَةَ (ت: ١٢ هـ) فشوهِد يوم اليمامَةِ على صخرةٍ قد أشرف يصيح: يا معشر المسلمين! أمِنَ الجنّة تفرّون ؟! إليَّ إليَّ. أنا عمّارُ بن ياسِر. هلمّوا إليَّ. وقد قُطِعَت أُذنه فهي تذبذب وهو يُقاتل أشدّ القتال.

شهد مع عليّ (ع) الجَمل وصِفّين. فكان لا يأخذ في ناحية ولا وادٍ من أودية صفّين إلّا رأيتُ أصحاب النبيّ (ص) يتبعونه كأنّه عَلَم لهم.

وقال لهاشم بن عُتْبَةَ بنِ أبي وَقّاص (ت: ٣٧ هـ): يا هاشمُ! تفرّ من الجنّة؟! الجنّة تحت البارقة. اليوم ألقى الأحِبّة؛ مُحمّداً وحزبه.

وقال في يوم صفّين: إئتوني بشربة، فأُتيَ بشربة لبن فقال: إنّ رسول الله (ص) قال: «آخِر شربة تشربها من الدّنيا شربة لبن»، وشربها ثمّ قاتل حتّىٰ قُتِل. وكان عمره يومئذ أربعاً وتسعين سنة وقيل ثلاثاً وتسعين وقيل إحدىٰ وتسعين.

شهد خُزَيْمَةُ بن ثابت الجَمل وهو لا يسلُّ سيفاً، وشهد صِفّين ولم يُقاتِل وقال: لا أُقاتِل حتّىٰ يُقتل عمّارٌ فأنظر مَنْ يَقتله؛ فإنّي سمعتُ رسول الله (ص) يقول: «تَقتُلُهُ الفئةُ الباغية»، فلمّا قُتِلَ عمّارٌ؛ قال خُزَيْمَةُ: ظهرت لي الضّلالة، ثمّ تقدّم فقاتل حتّىٰ قُتِلَ (سنة ٣٧ هـ).

ولمّا قُتِلَ عمّار قال: (أدْفنوني في ثيابي فإنّي مخاصم). قتله أبو الغادِيَة الجَهْنيُّ، طعنه فسقط، فلمّا وقع أكبّ عليه آخر فاحتزّ رأسه، فأقبلا يختصمان كلٌّ منهما يقول: أنا قتلته. فقال عَمرو بن العاصِ (ت: ٤٣ هـ): واللهِ إن يختصمان إلّا في النّار، والله لَوَدَدْتُ أنّي مِتُّ قَبلَ هذا اليوم بعشرين سنة. ودفنه عليّ في ثيابه ولم يغسله][1].

لَسْتُ أدري كيف يكون الصّحابيّ أبو الغادِية عادلاً يصحّ أخذ حديث الرّسول (ص) منه بعد قتله الصحابيّ البرّ حبيب رسول الله (ص)؛ عمّار ابن ياسِر؟ لَسْتُ أدري!.

المورد الثاني: خبر مُعاويةَ وعليٍّ كالآتي بيانه:

أ ـ الصّحابيّ الشهير خليفة المسلمين مُعاويَةُ بنُ أبي سُفيان.

---

(١) أُسد الغابة (٤ / ٤٣ ـ ٤٧)، والطّبري (٣ / ٢٣١٥ ـ ٢٣١٧)، ط. أوربا.

ب ـ الصّحابيّ الوَصيُّ ابنُ عَمّ الرّسول وزَوْج أبنته وخليفة المسلمين عليُّ ابن أبي طالب (ع).

شارك مُعاوية (ت: ٦٠ هـ) قومه في حربهم لرسول الله (ص) في بَـدْر وتحت راية أبيه في أُحُدٍ والخَنْدَق. وأسلم بعد فتح مكّة وأعطاه الرّسول (ص) من غنائم حُنين سهم المؤلّفة قلوبهم على الإسلام[1]، وسكن المدينة في عصر الرّسول (ص) زهاء سنة ونصف السّنة.

وعندما جهّز الخليفة أبو بكر في سنة ١٣ هـ جيشاً لفتح بلاد الشّام وولّىٰ عليه يزيد بن أبي سُفيان (ت: ١٨ هـ)؛ سارَ معاوية في رِكاب أخيه، ولمّا توفّي أخوه في طاعون عَمْواسَ سنة ١٨ هـ، ولّاه الخليفة عمر (ت: ٢٣هـ) علىٰ جُنْد أخيه، وعندما أستخلف عثمان؛ عزلَ سائر الولاة عن تلك البلاد وجمعها لمعاوية.

ولمّا قامت الفتنة ضدّ عثمان آستنصره وأستمدّ منه، فأرسل جيشاً من الشّام وأوصىٰ أمير الجيش وقال له: (إذا بلغتَ ذا خَشَب[2]، أنزل جيشك هناك ولا تتعدّاه ولا تقل: يرى الحاضر ما لا يرى الغائب، فأنا الحاضر وأنت الغائب)، فبقي هناك حتّى قُتِلَ عثمان، فاسترجعهم معاوية إلى الشّام، فلمّا بايع المسلمون الإمام عليّاً (ع) طلب معاوية منه إمارة الشّام ومصر طعمة ليبايعه، فأبىٰ عليه الإمام عليّ (ع) فأشهر في بلاد الشّام أنّ الإمام عليّاً (ع) قتل عثمان، وحرّضهم على الطّلب بدمه من الإمام عليّ (ع)، وأستوثق له ذلك بعد حرب الجمل[3].

---

(١) سيرة ابن هشام (٤ / ١٣٩ ـ ١٤٠).

(٢) ذا خُشُبْ: وادٍ على مسيرة ليلة من المدينة، معجم البلدان.

(٣) راجع مصادر الأخبار في باب: «مع معاوية» من كتاب «أحاديث أمّ المؤمنين عائشة».

أشرنا إلى هنا إلىٰ سيرة معاوية حتّى عهد بيعة الإمام عليّ (ع)، وأوردنا تفصيل سيرته وما ورد من الرّسول (ص) في حقّه في فصل: (مع معاوية) من كتابنا «أحاديث أمّ المؤمنين عائشة».

◈ ◈ ◈

كان ذٰلكم شأن معاوية.

أمّا الإمام عليٌّ (ع) فقد أخذه الرّسول (ص) إلى بيته وهو طفل صغير كما وصف ذلك الإمام بنفسه وقال ما موجزه:

«وَضَعَني في حِجْرِهِ وأنا وَلَدٌ، يَضُمُّني إلىٰ صَدْرِهِ، وَيَكْنِفُني في فِراشِهِ، وَيُمِسُّني جَسَدَهُ، يَرْفَعُ لي كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أخْلاقِهِ عِلْماً وَيَأمُرُني بالإقْتِداءِ بِهِ، وَلَقَدْ كانَ يُجاوِرُ في كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأراهُ وَلا يَراهُ غَيْرِي، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ ٱلشَّيطانِ حِينَ نَزَلَ ٱلوَحْيُ عَلَيْهِ فقال: هٰذا ٱلشَّيْطانُ أيِسَ مِن عِبادَتِهِ، وَلَمْ يَجْمَع بَيْت واحِد يَوْمَئذٍ في الإسْلام غَيْرَ رَسُولِ اللهِ (ص) وَخَدِيجةَ (ت: ١٠ من البعثة) وأنا ثالثهما»[١].

كان ذٰلكم شأنه مع رسول الله (ص) حتّى هاجروا إلى المدينة. ومواقفه في بَدْرٍ وأُحُدٍ والخَنْدَق وغيرها معروفة... كان يُقاتل فيها جيش قريش الذي فيه مُعاوية.

أمّا تعلُّمه من الرّسول (ص) فقد كان الرّسول (ص) يملي عليه كلّما ينزل عليه من وحي ويكتب الإمام في كتاب مدرج من الجلد طوله سِتّون ذراعاً وآسمه الجامِعَة[٢].

---

(١) لقد نقلنا هاهنا جُملاً من الخطبة القاصعة من نهج البلاغة.

(٢) راجع فصل «أحاديث أئمّة أهل البيت مسندة إلى الله ورسوله» من الجزء الثاني

وأستمّر ذلك بينهما حتّى آخر ساعة من حياة الرّسول (ص) كما روت ذلك أمّ سَلَمَةَ وقالت: «فأكبّ عليه ـ علىٰ عليّ ـ رسول الله (ص) وَجَعَلَ يُسارُّهُ ويُناجيهِ ثُمَّ قُبِضَ مِن يَوْمِهِ ذلِكَ فَكانَ أقرَبَ النَّاسِ بهِ عَهْداً»[1].

وبعد وفاة الرّسول (ص) جلسَ الوصيُّ في البيت ثلاثة أيّامٍ كما وصّاه الرّسول (ص) حتّى أكمل جَمْعَ القرآن الذي كان في بَيْتِ الرّسول (ص) والذي كانِ قَدْ كُتِبَ بِأمْرٍ مِنَ الرّسول (ص)[2].

كان هذا بعض شأن الوصيّ مع النبيّ (ص)، وعندما بُويع بالخلافة بعد عثمان وجهّز معاوية جيشاً لقتاله باسم الطّلب بدم عثمان والتقوا بصفّين في ربيع ـ الأوّل سنة ٣٦ هـ وقُتِلَ من أهل الشّام خمسة وأربعون ألفاً ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً وبان الإنكسار في جيش معاوية؛ أشار عليهم عمرو بن العاص برفع المصاحف يدعون إلى الرّجوع إليها، فانخدع جيش العراق وأجبروا الوصيّ على قبول التحكيم وأن يكون الحَكَم أبا موسى الأشعري (ت: ٤٤ هـ).

← من معالم المدرستين.

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣ / ١٣٨)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، واعترف بصحّته الذهبيّ (ت: ٧٤٨ هـ) في تلخيص المستدرك. وأخرجه ابن عساكر في باب: (إنّه كان أقرب النّاس عهداً برسول الله (ص)) من ترجمة الإمام عليّ (ع) (٣ / ١٤ ـ ١٧)، بطرق متعدّدة، وفي مُصنّف ابن أبي شَيْبَة (ت: ٢٣٥ هـ) (٦ / ٣٤٨). ومجمع الزوائد للهيثمي (ت: ٨٢٧ هـ)، (٩ / ١١٢). وكنز العمّال، لعليّ المتّقي (ت: ٩٧٥ هـ) ط. الثانية؛ كتاب الفضائل، فضائل عليّ بن أبي طالب، ح ١٧٤، (١٥ / ١٢٨)، وأخرجه سبط أبن الجوزي، في تذكرة خواص الأمّة، باب حديث النّجوىٰ والوصيّة عن كتاب الفضائل لأحمد بن حنبل.

(٢) أوردنا خبره في بحث «من تاريخ القرآن» من المجلّد الأوّل من: «القرآن الكريم وروايات المدرستين».

ولمّا عيّن معاوية عمرو بن العاص واجتمعا للتحكيم؛ خدع عمرو أبا موسىٰ فتقدّم وخلع عليّاً ومعاوية، وتقدّم عمرو بعده فنصب معاوية للخلافة وخلع عليّاً، فاستتبّ الأمر لمعاوية في الشّام سنة ٣٧ هـ[١]. فأخذ يبعث الغارات على المسلمين الذين كانوا تحت حكم الوصيّ (ع)، وكان ممّن أرسل في تلكم الغارات الصحابيّين نعمان بن بشير الأنصاريّ (ت: ٦٦ هـ) وعبدالله ابن مسعدة الفزاريّ، وكذلك سفيان بن عوف الغامديّ في ستّة آلاف رجل، وقال له في ما أوصاه: فاقتل من لقيته ممّن ليس هو علىٰ رأيك، وأخرب كلّ ما مررت به من القرىٰ وأحرب الأموال فإنّ حَرَبَ الأموال[٢] شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب.

فقصد إلى الأنبار[٣]، وقتل رجالاً ونساءً. فبلغ ذلك الوصيّ، فخطب أهل الكوفة وقال في خطبته:

«هذا أخو غامد قد جاء الأنبار فقتل عاملها وقتل رجالاً كثيراً ونساءً. والله لقد بلغني أنّه كان يأتي المرأة المسلمة والأُخرى المعاهدة فينزعها حجلها ورعاثها... فلو أنّ أمرءً مسلماً مات دون هذا أسفاً لم يكن عليه ملوماً...».

وأرسل معاوية، الصّحابيّ بُسْر بن أبي أرطاة في ثلاثة آلاف وقال له:

«... فاطرد النّاس، وأخِفْ مَنْ مَررتَ به، وانْهَب أموال كلّ مَنْ أصبتَ له مالاً ممّن لم يكن له دَخْل في طاعتنا».

---

(١) راجع كتاب «أحاديث أمّ المؤمنين عائشة» القسم الأوّل، ط. بيروت ١٤٠٥ هـ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٢) حَرَبَهُ حَرَباً: سَلَبَهُ جميع ما يملك.

(٣) الأنبار: مدينة كانت غربي بغداد وتبعد عنها عشر فراسخ، راجع مادّة الأنبار من معجم البلدان.

وأمرهم أن يسيروا في البلاد فيقتلوا كلّ من وجدوه من شيعة عليّ، ولا يكفّوا أيديهم عن النّساء والصّبيان.

وفي رواية ابن عساكر: ليستعرض النّاس فيقتل مَن كان في طاعة عليّ. فسار حتّى دخل المدينة وأخاف أهلها وبقيّة الأنصار، وهدم فيها دوراً وقتل قوماً من بني كعب على مائهم في ما بين مكّة والمدينة وألقاهم في البئر.

وفي مروج الذّهب للمسعوديّ (ت: ٣٤٦ هـ): قتل بين المسجدين خلقاً كثيراً وكذلك قتل بالجرف[1] خَلْقاً كثيراً من الأبناء[2]، ولم يبلغه عن أحد يالي علياً أو يهواه إلّا قتله.

وفي الأغاني، لأبي فرج الإصفهانيّ: وأتى نَجْران[3] فقتل أصهار عُبَيْدِالله ابن العبّاس (ت: ٥٨ هـ) عامِل عليٍّ على اليَمن ـ وكان غائباً ـ ووجد ٱبْنَيْنِ له صبيّين فذبحهما بُسْرٌ بيده. فقالت ٱمرأة له: يا هذا! قتلتَ الرّجال! فَعَلَامَ تقتل هٰذين؟! والله ما كانوا يُقتَلون في الجاهليّة والإسلام. والله يا ٱبن أرْطاة إنّ سلطاناً لا يقوم إلّا بقتل الصبيّ الصّغير، والشّيخ الكبير، ونزع الرّحمة، وعقوق الأرحام؛ لسلطان سوء[4].

قالوا: فولهت عليهما أُمُّهما، وكانت لا تعقل، ولا تصغي إلّا لمن يخبرها بقتلهما، ولا تزال تنشدهما في المواسم:

ها مَنْ أحسَّ بـابنَيَّ اللّـذينِ هُمـا   كالدُّرَّتَينِ تَشَـظَّىٰ عـنهما الصَّـدَفُ

---

(١) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة، معجم البلدان.

(٢) كان يُقال لأبناء أهل فارس الذين هاجروا إلى اليمن وسكنوها: الأبناء.

(٣) نَجْرَانُ: من أراضي اليَمن من ناحية مكّة، معجم البلدان.

(٤) إبن الأثير (٣ / ١٥٣ ـ ١٥٤)، وفي ابن عساكر (٣ / ٢٢٤ ـ ٢٢٥) قريب منه، والأبيات في الأغاني (١٥ / ٤٥)، والغارات برواية ابن أبي الحديد عنه.

ها مَنْ أحسَّ بابنَيَّ اللَّذينِ هُما قَلْبي وَسَمْعي فَقَلْبي اليوم مُختَطَفُ

ها مَنْ أحسَّ بابنَيَّ اللَّذينِ هُما مُخُّ العِظامِ فمُخّي اليوم مُزدَهفُ

مِنْ ذُلِّ والهة حيرىٰ مُدَلَّهَةٌ عَلَىٰ صَبِيَّينِ ذُلّاً إذ غدا السَّلَفُ

نُبِّئْتُ بُسْراً وما صدَّقتُ ما زَعَموا مِنْ قَوْلِهِمْ ومِنْ الإفْكِ الّذي اقْتَرَفوا

أحنىٰ عَلىٰ وَدَجَيْ إبْنَيَّ مُرهَفَةً مِنَ الشِّفارِ كذاك الإثْمُ يُقْتَرَفُ

وفي الإستيعاب، لابن عبدالبرّ (ت: ٤٦٣ هـ) وأُسد الغابة[1]: أغار بُسْر ابن أرطاة (ت: ٨٦ هـ) على هَمْدان، وقتل، وسبىٰ نساءهم، فكُنَّ أوّل مسلمات سُبين في الإسلام، فأُقِمْنَ في السّوق.

وقتل معاوية، الصّحابيّ حِجْر بن عديّ (ت: ٥١ هـ) ومَن معه بمرج عذراء، لأنّهم لم يلعنوا عليّاً (ع) ولم يبرأوا منه.

وقتل في سبيل أخذ البيعة لابنه يزيد؛ الصّحابيّ سعد بن أبي وقّاص (ت: ٥٥ هـ)، والصّحابيّ سبط الرّسول (ص) الأكبر الحسن بن عليّ (ع).

◈ ◈ ◈

ذكرنا من موارد مصاديق ما أنبأ به الرّسول (ص) أصحابه وقال لهم: «لا تَرْجِعوا بَعْدي كُفّاراً يَضْرِبُ بَعْضَكُمْ رِقابَ بَعْضٍ»؛ قتل الصّحابيّ أبي الغادِية الصّحابيّ عمّار بن ياسر، وقتل الصّحابي معاوية في صفّين من قتل، وقتل الصّحابيّ بُسْر وغيره من ولاته من قتلوا، وقتله الصّحابيّ حجراً ومَن

---

(١) الإستيعاب (١ / ٦٥ ـ ٦٦)، وأُسد الغابة (١ / ١٨٠)، إلى قوله: «سُبينَ في الإسلام». و «همدان» بطن من كهلان من القحطانيّة، وديار هَمْدان باليمن من شرقيّه وكانت هَمْدان من شيعة عليّ. (نهاية الأرب للقلقشندي) (ت: ٨٢١ هـ)، ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨، وراجع الجمهرة، لابن حزم (ت: ٤٥٦ هـ)، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٢.

معه لامتناعهم عن لعن الصّحابيّ عليّ (ع) والتبرّي منه. وقد سنّ الصّحابيُّ معاوية لعن الصّحابيّ عليّ (ع) في خُطبِ الجمعة على جميع منابر المسلمين منذ سنة ٤٠ هـ، إلى سنة ١٣٢ هـ، واستيلاء بني العبّاس على الخلافة ما عدا مدّة خلافة عُمر ابن عبدالعزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ).

أمّا الإعتذار بأنّ ذلك القتل في صِفّين كان في سبيل الطّلب بدم الخليفة عثمان، فيكشف زيفه قتل عشرات الألوف في غارات الصّحابة؛ المسلمين الذين لم يشهدوا قتل عثمان.

ويكشف زيفه ـ أيضاً ـ قول معاوية بعد دخوله الكوفة وبعد صُلحه مع الإمام الحسن (ع) في خطبته لأهل الكوفة:

«إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، إنّكم تفعلون ذلك؛ وإنّما قاتلتكم لأتأمّرَ عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارِهون»[١].

وقال: «ألا إنّ كلّ شيءٍ أعطيته الحَسَن فَتَحْتَ قَدَمَيَّ هاتَين»[٢].

۞ ۞ ۞

لم نورد ما أوردناه آنفاً عن بعض الصّحابة لغاية المدح أو الذّم، بل كانت غايتنا غاية علماء دراية الحديث عندما يذكرون في ترجمة الرّواة ما يستدلّون به على عدالة الرّاوي وعدمها، ومن باب الجرح والتعديل، ولنبرهن على عدم صحّة القول بعدالة جميع الصّحابة ومن هنا نشأت تسمية مَن أخذَ سنّة

---

(١) مقاتل الطّالبيّين، لأبي الفرج الإصفهاني، ص ٧٠. وتاريخ ابن كثير (٨ / ١٣١) واللّفظ للأوّل.

(٢) مقاتل الطّالبيّين، ص ٦٩. وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٤ / ١٦).

الرّسول (ص) من أيّ فرد من الصّحابة بـ «أهْلِ السُّنَّة».

ومن الأحاديث التي عُدّتْ من سُنّة الرّسول (ص) وتسالموا على صحّتها ما رواها مسلم في صحيحه بأسانيده وقال: قال رسول الله (ص):

«يَكُونُ بَعْدِي أئمّةٌ لا يَهْتَدُونَ بِهُدايَ وَلا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ ٱلشَّياطِين في جُثمانِ إنس».

قال، قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركتُ ذلك؟

قال: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ للأميرِ، وإنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأخَذَ مالَكَ، فاسْمَعْ وَأطِعْ».

وروي عن ابن عبّاس (ت: ٦٨ هـ) أنّ رسول الله (ص) قال:

«مَنْ رَأىٰ مِنْ إمامِهِ شَيْئاً يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ، فَإنَّهُ مَنْ فارَقَ الجَماعَةَ شِبْراً فَماتَ؛ ماتَ مِيتَةً جاهِلِيّة».

وفي أُخرى:

«لَيْسَ أحَدٌ خَرَجَ مِنَ ٱلسُّلْطانِ شِبْراً فَماتَ عَلَيْهِ إلّا ماتَ مِيتَةً جاهِلِيّة».

وروي عن عبدالله بن عمر بن الخطّاب (ت: ٧٣ هـ) أنّه حين كان من أمر الحرَّةِ ما كان زمن يزيد بن معاوية (ت: ٦٤ هـ) قال: سمعتُ رسول الله (ص) يقول:

«مَنْ خَلَعَ يَداً مِنْ طاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ القِيامَةِ لا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ ماتَ وَلَيْسَ في عُنُقِهِ بَيْعَةٌ ماتَ مِيتَةً جاهِلِيَّة»[1].

---

(١) صحيح مسلم (٦ / ٢٠ ـ ٢١)، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة.
وروى الحديث عن حُذيفة (وهو ابن اليمان العَبْسِيّ) كان أبوه قد أصاب دماً في ←

وتسالَم علماء مدرسة الخلفاء جيلاً بعد جيل على صحّتها مثل ما قال النّوويّ (ت: ٦٧٧ هـ) في شرحه لصحيح مسلم بباب لزوم طاعة الأُمراء في غير معصية:

«وقالَ جماهيرُ أهْلِ ٱلسُّنَّةِ من الفُقَهاءِ والمُحَدِّثينَ والمُتَكَلِّمينَ: لا يَنْعَزِلُ بالفِسْقِ والظُّلْمِ وَتَعْطِيلِ الحُقُوقِ، وَلا يُخْلَعُ وَلا يَجُوزُ الخُرُوجُ عَلَيْهِ بِذلِكَ، بَلْ يَجِبُ وَعْظُهُ وَتَخْوِيفُهُ للأحاديثِ الوارِدَةِ في ذلك». وقال قبله:

«وأمّا الخروجُ عليهم وقِتالهم فَحَرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فَسَقَة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمعَ أهلُ ٱلسُّنَّةِ أنّه لا ينعَزِل السُّلطان بالفسْق»[1].

وقال القاضي أبو بكر محمّد بن الطَّيِّب الباقِلّانيّ (ت: ٤٠٣ هـ) في كتاب التمهيد[2]، في باب ذكر ما يُوجب خلع الإمام وسقوط فرض طاعته ما مُلخّصه.

[قال الجمهور من أهل الإثبات وأصحاب الحديث: لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه بغصب الأموال، وضرب الأبشار، وتناول النفوس المحرّمة، وتضييع الحقوق، وتعطيل الحدود، ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في شيء ممّا يدعو إليه من معاصي الله. وٱحتجّوا في ذلك بأخبار كثيرة متظافرة عن النبيّ (ص) وعن الصّحابة في وجوب طاعة

← الجاهليّة، فهرب إلى المدينة، وتزوّج بها، وحالف بني عبد الأشهَل، وسُمّي اليمان لمحالفته اليمانيّة، وٱسمه حُسَيْلٌ. شهد حُذيفة الخَنْدَق وما بعدها، ووليّ لعمر المدائن، ومات بها سنة ست وثلاثين، أربعين ليلة بعد بيعة الإمام عليّ (ع)، روى عنه أصحاب الصّحاح ٢٢٥ حديثاً. ترجمته في الإستيعاب وأُسد الغابة والإصابة لابن حجر (ت: ٨٥٢ هـ) وبجوامع السِّيرة لابن حزم (ت: ٤٥٦ هـ) ص ٢٧٧.

(١) (١٢ / ٢٢٩) في شرحه على مسلم، وراجع سُنن البيهقيّ (٨ / ١٥٨ ـ ١٥٩).

(٢) التمهيد، ط. القاهرة، ١٣٦٦ هـ.

الأئمّة وإن جاروا وٱستأثروا بالأموال، أنّه قال (ع): «إسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجْدَع، ولو لعبد حَبَشيٍّ، وصلُّوا وراء كلّ بَرٍّ وفاجِر».

وروي أنّه قال: «أطِعْهُمْ وإنْ أكَلوا مالَكَ، وَضَرَبُوا ظَهْرَك»].

وفي مقابل تلكم الروايات عن أُولئكم الصّحابة، وتلكم الأقوال عن أُولئك العلماء؛ نجد الصّحابيّ ٱلسّبط الشّهيد الحسين بن عليّ (ع) يروي عن جدِّه الرّسول (ص) أنّه قال:

«مَنْ رَأىٰ سُلْطاناً جائِراً، مُسْتَحِلّاً لِحُرَمِ اللهِ، ناكِثاً لِعَهْدِ اللهِ، مُخَالِفاً لِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ (ص) يَعْمَلُ في عِبادِهِ بالإثْمِ والعُدْوانِ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بِفِعْلٍ وَلا قَوْلٍ؛ كانَ حَقّاً عَلَى الله أن يُدْخِلَهُ مَدْخَلَهُ، ألا وإنَّ هؤُلاءِ قَدْ لَزِمُوا طَاعَةَ الشَّيْطانِ، وَتَرَكُوا طَاعَةَ الرَّحْمٰنِ، وأظْهَرُوا الفَسَادَ، وَعَطَّلُوا الحُدودَ، وٱسْتَأْثَرُوا بِالفَيْءِ، وأحَلُّوا حَرَامَ ٱللهِ وَحَرَّمُوا حَلَالَهُ، وأنا أحَقُّ مَنْ غَيَّر...»[1].

◈ ◈ ◈

---

(١) قال ذلك السّبط الشهيد في لقائه الحرّ بن يزيد الرّياحي (ت: ٦١ هـ) قائد جيش ابن زياد (ت: ٦٧ هـ) الذي أرسله ليُقابل السّبط في مسيره إلى العراق.

راجع مصدر الخبر في ذكر حوادث سنة (٦١ هـ) من تاريخ الطّبري، ط. مصر الأولىٰ (٦ / ٢٢٩). وابن الأثير، ط. مصر الأولىٰ (٤ / ٩ ـ ٢١). وتاريخ ابن كثير، ط. دمشق الأولىٰ (٨ / ١٧٢ ـ ١٨٢). والأخبار الطّوال للدّينوريّ (ت: ٢٨٢ هـ) ص ٢٤٨ ـ ٢٥٣. وأنساب الأشراف للبلاذريّ (ت: ٢٧٩ هـ) ص ١٦٩ ـ ١٧٦. وقد تغيّرت اللّفظ من الطّبريّ.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مُصْطلحات الفِقْه

- الفِقْه
- الإجتهاد
- السُّنَّة
- البِدْعَة
- الزّكاة
- الصّدَقة
- الفَيء
- الصّفيّ
- الأنْفال
- الغَنِيمَة والمَغْنَم
- الخُمْس


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفِقْــه

أ ـ الفِقْه في اللّغة، كما ورد في المعاجم: الفهم.

ب ـ الفِقْه في الكتاب والسنّة، كما يأتي بيانه:

قال الله سبحانه:

﴿فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدّين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذورن﴾. (التوبة / ١٢٢)

وقال رسول الله (ص): «نضّر الله عبداً سمع مقالتي هذه فبلغها، فرُبّ حامل فقهٍ غير فقيه، ورُبّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه»[١].

وروي أنه قال: «فقيه أشدّ على الشيطان من ألف عابد»[٢].

و «مَنْ فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلّم»[٣].

و «خياركم أحاسنكم أخلاقاً إذا فقهوا»[٤].

---

(١) ابن ماجة، المقدّمة باب ١٨ «من بلغ علما» الحديث، ٢٣ و ٢٣١ و ٢٣٦. وكتاب المناسك، باب الخطبة يوم النحر. وسنن أبي داود، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، ح ٣٦٦٠، باب ١٠. والترمذي، كتاب العلم، باب ٧ ما جاء في الحثّ على تبليغ السماع، (١٠ / ١٣٦) وراجع ١٢٤ منه. والدارمي (١ / ٧٤ ـ ٧٦)، المقدّمة، باب ٢٤. ومسند أحمد (٣ / ٢٢٥) و(٤ / ٨٠ و ٨٢) و(٥ / ١٧٣).

(٢) سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، (١٠ / ١٥٤).

(٣) صحيح البخاري (١ / ١٨). وكتاب العلم، باب ٢٠، ومسلم، كتاب الفضائل ح ١٥. ومسند أحمد (٤ / ٣٩٩).

(٤) مسند أحمد (٢ / ٤٦٧ و ٤٦٩ و ٤٨١).

و «خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[1].

و «خصلتان لا تجتمعان في منافق: حسن سمت ولا فقه في الدِّين»[2].

و «من يُرد الله به خيراً يفقّهه في الدِّين»[3].

و «إنّ رجالاً يأتونكم من أقطار الأرضين يتفقّهون في الدّين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»[4].

وإنّه دعا لابن عباس وقال: «اللّهمّ فقّهه في الدِّين»[5].

وورد في محاورات أهل البيت والصحابة بعد رسول الله:

قول الإمام عليّ: «ألا أخبركم بالفقيه حقّ الفقيه؟ قالوا بلى يا أمير المؤمنين، قال: من لم يقنط النّاس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يرخّص لهم في معاصي الله»[6].

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري: «ما أُدركت فقهاء أرضنا إلّا يسلّمون في

---

(١) صحيح البخاري (٢ / ١٧٥)، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، ح ١٩٩، باب خيار النّاس. وسنن الدارمي، المقدّمة ص ٧٣ باب ٢٤. ومسند أحمد (٢ / ٢٥٧ و ٢٦٠ و ٣٩١ و ٤٣١ و ٤٨٥ و ٤٩٨ و ٥٢٥ و ٥٣٩) و (٣ / ٣٦٧ و ٣٨٣) و (٤ / ١٠١).

(٢) سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، (١٠ / ١٥٧).

(٣) صحيح البخاري (١ / ١٦)، و (٤ / ١٧٥). وسنن الدارمي (١ / ٧٤)، ومسند أحمد (١ / ٣٠٦) و (١ / ٢٣٤) و (٤ / ٩٢ و ٩٣ و ٩٥ ـ ٩٩ و ١٠١).

(٤) سنن الترمذي (١٠ / ١١٩). وسنن ابن ماجة، المقدّمة، الباب ٢٢.

(٥) صحيح البخاري (١ / ٢٨). ومسند أحمد (١ / ٢٦٦ و ٣١٤ و ٣٢٨ و ٣٣٥).

(٦) سنن الدارمي (١ / ٨٩). والكافي (١ / ٣٦). وتحف العقول، باب ما روى عن أمير المؤمنين، فصل وروى عنه في قصار هذه المعاني. ومعاني الأخبار للصدوق، باب معنى الفقيه حقّاً، ص ٣٧٤. وكنز العمال، كتاب العلم، باب الترغيب فيه، الحديث ٢٧٨، (١٠ / ١٠٣). وحلية الأولياء (١ / ٧٧). والبحار (١٧ / ٤٠٧).

كلّ آثنين من النّهار»[1].

وقال عمر: «تفقّهوا قبل أن تسوّدوا»[2].

«فمن سوّده قومه على فقه كان حياة له ولهم، ومن سوّده قومه على غير فقه كان هلاكاً له ولهم»[3].

وقال آبن عبدالرحمٰن في وصف آبن عباس: «إنّه قارئ لكتاب الله، فقيه في دين الله»[4].

وفي باب آختلاف الفقهاء من سنن الدارمي: «كتب عمر بن عبدالعزيز إلى الآفاق ليقضي كلّ قوم بما آجتمع عليه فقهاؤهم»[5].

وفيه أيضاً: «وإذا جلسوا العشاء ـ الآخرة ـ جلسوا في الفقه»[6]، «ولا بأس بالسمر في الفقه»[7]، «وكانوا يتجالسون بالليل ويذكرون الفقه»[8].

وفي صحيح البخاري باب السمر في الفقه[9]. وقال الشعبي: «لمّا قدم عديّ بن حاتم الكوفة أتيناه في نفر من فقهاء أهل الكوفة»[10].

وعن عمران المنقريّ قال: قلت للحسن يوماً في شيء قاله: «يا أبا سعيد ليس هكذا يقول الفقهاء! فقال: ويحك ورأيت أنت فقيهاً قطّ، إنّما الفقيه

---

(١) صحيح البخاري (١ / ١٤١)، كتاب التهجد، باب ٢٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم (١ / ١٦)، وسنن الدارمي (١ / ٧٩).

(٣) سنن الدارمي (١ / ٧٩).

(٤) مسند أحمد (١ / ٣٤٩).

(٥) سنن الدارمي (١ / ١٥١).

(٦) سنن الدارمي (١ / ١٤٩).

(٧)، (٨) سنن الدارمي (١ / ١٥٠).

(٩) صحيح البخاري (١ / ٧٩)، كتاب المواقيت، باب ٤٠.

(١٠) سنن ابن ماجة، ح ٨٧.

الزاهد في الدّنيا، الراغب في الآخرة، البصير بأمر دينه، المداوم على عبادة ربّه»[1].

هذا بعض ما ورد في كتب حديث مدرسة الخلفاء، وورد في كتب حديث مدرسة أهل البيت:

أ ـ عن رسول الله (ص): «الفقهاء أُمناء الرّسل ما لم يدخلوا في الدّنيا»[2]، «من حفظ على أُمّتي أربعين حديثاً من أمر دينها ينتفعون بها في أمر دينهم، بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً»[3].

ب ـ في نهج البلاغة من كلام الإمام عليّ: «من اتّجر بغير فقه فقد ارتطم في الرّبا»[4]، «وربيعاً لقلوب الفقهاء»[5]، «وتفقّه في الدِّين»[6].

ج ـ وعن الإمام الصادق: «ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقّهوا في الحلال والحرام»[7]، «لا يكون الرجل منكم فقيهاً حتى يعرف معاريض كلامنا»[8].

وقوله: «من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مُخالِفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه»[9].

---

(١) سنن الدارمي (١ / ٨٩).

(٢) البحار (٢ / ١١٠).

(٣) البحار (٢ / ١٥٦) الحديث ١٠، ونظيره الحديث ٩.

(٤) نهج البلاغة، باب الحكم، الرقم ٤٤٧ (٣ / ٢٥٩).

(٥) نهج البلاغة، في وصف القرآن، الخطبة ١٩٦ (٢ / ٢٥٢).

(٦) نهج البلاغة، من وصية له للإمام الحسن، رقم ٣١ (٣ / ٤٢).

(٧) البرقي في المحاسن، الحديث ١٦١. والبحار، ط. أمين الضرب (١ / ٦٦).

(٨) البحار، (٢ / ١٨٤)، ح ٥.

(٩) سفينة البحار (٢ / ٣٨١) بمادّة فقه.

كان هذا مدلول الفقه والفقيه في الكتاب والسنّة. ثمّ آختص لدى علماء مدرسة أهل البيت بالعلم بالأحكام الشرعيّة عن أدلّتها التفصيلية.

قال جمال الدّين الحسن بن زين الدّين (ت: ١٠١١ هـ) في كتابه، معالم الدّين، المشهور بـ(معالم الأصول):

الفقه في اللّغة: الفهم.

وفي الاصطلاح: «هو العلم بالأحكام الشرعيّة الفرعيّة عن أدلّتها التفصيلية»[١].

يقصد بالاصطلاح، اصطلاح علماء مدرسة أهل البيت (ع).

---

(١) معالم الدّين، تصحيح عبدالحسين محمّد علي البقال، ص ٦٦.

الإجْتِهـاد

أوّلاً ـ الإجتهاد في اللّغة:

قال ٱبن الأثير: «الاجتهاد بذل الجهد في طلب الأمر، وهو ٱفتعال مـن الجهد الطاقة»[1].

وفي هذا المعنى، ٱستعمل على عهد الرّسول وأصـحابه إلى آخـر القـرن الأوّل.

فقد ورد عن رسول الله:

أ ـ أمّا السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم[2].

ب ـ صلّوا عليّ وٱجتهدوا في الدّعاء[3].

ج ـ فضل العالم على المجتهد مائة درجة[4]، أي المجتهد في العبادة.

وعن محـمّد القرظي: «كان في بـني إسرائـيل رجـل فـقيه عـالم، عـابد مجتهد»[5].

وعن عائشة: «كان رسول الله يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجـتهد في غيره[6]. أي يجتهد في العبادة».

---

(١) مادّة: (جهد) من نهاية اللّغة لابن الأثير.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الصّلاة، ح ٢٠٧. ومسند أحمد (١ / ٢١٩).

(٣) سنن النسائي (١ / ١٩٠)، باب الأمر بالصّلاة على النبي. وفي مسند أحمد (١ / ١٩٩) باختصار.

(٤) مقدّمة سنن الدارمي، (١ / ١٠٠).

(٥) موطأ مالك، كتاب الجنائز، ح ٤٣.

(٦) صحيح مسلم، كتاب الاعتكاف، ح ٨. وسنن ابن ماجة، كتاب الصيام، ح ١٧٦٧.

وفي حديث طلحة عن رجلين على عهد رسول الله: «كان أحدهما أشدّ آجتهاداً من الآخر، فغزا المجتهد منهما فاستشهد»[1].

وعن أبي سعيد: «كان رسول الله (ص) إذا حلف وآجتهد في اليمين، قال»[2].

وفي خبر عبدالله بن أبي في غزوة المصطلق: «فاجتهد بيمينه ما فعل»[3].

وفي سؤال الصحابية أمّ حارثة عن شأن آبنها حارثة من رسول الله (ص): إن كان في الجنّة، صبرت وإن كان غير ذلك آجتهدت عليه في البكاء[4].

نعرف من هذه الموارد والكثرة الكاثرة من نظائرها، أنّه كان المتبادر من الاجتهاد في القرن الأوّل، هو بذل الجهد، ثمّ تطوّر مدلول الاجتهاد لدى المسلمين، وأصبح يدلّ في آصطلاحهم على آستنباط الأحكام الشرعيّة من أدلّتها التفصيليّة.

ثانياً ـ الإجتهاد في آصطلاح المسلمين:

قال الغزالي في تعريف الاجتهاد: «هو عبارة عن بذل المجهود وآستفراغ الوسع في فعل من الأفعال. ولا يستعمل إلّا في ما فيه كلفة وجهد... لكن صار اللفظ في عرف العلماء مخصوصاً ببذل المجتهد وسعه في طلب العلم بأحكام الشريعة...»[5].

---

(١) سنن ابن ماجة، كتاب الرؤيا، ح ٣٩٢٥. ومسند أحمد، (١ / ١٦٣) و(٢ / ٣٢٣ و ٣٦٣) و(٦ / ٨٢ و ١٢٣ و ٢٥٦) و(٥ / ٤٠).

(٢) مسند أحمد، (٣ / ٣٣ و ١٤٨).

(٣) صحيح البخاري، (٣ / ١٣٦) كتاب التفسير، تفسير سورة (المنافقون). وصحيح مسلم، كتاب المنافقين، ح ١. ومسند أحمد (٤ / ٣٧٣).

(٤) صحيح البخاري، (٢ / ٩٣) كتاب الجهاد. ومسند أحمد (٣ / ٢٦٠ و ٢٨٣).

(٥) أبو حامد محمّد الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) في كتاب المستصفى في أصول الفقه، ط

وقال الدهلوي: «حقيقة الاجتهاد استفراغ الجهد في إدراك الأحكام الشرعيّة من أدلّتها التفصيلية الراجعة كلياتها إلى أربعة أقسام: الكتاب والسنّة والإجماع والقياس»[1].

وكذلك عرّف محمّد أمين أدلّة الأحكام في كتاب تيسير التحرير[2].

كان هذا لدى أتباع مدرسة الخلفاء، وقد شاع هذا الاصطلاح لدى علماء مدرسة أهل البيت بعد القرن الخامس كما ورد في كتاب مبادئ الوصول للعلّامة الحلّي (ت:٧٢٦ هـ) في الفصل الثاني عشر. البحث الأوّل في الاجتهاد ما ملخّصه:

«الاجتهاد: هو استفراغ الوسع في النظر فيما هو من المسائل الظنيّة الشرعيّة، على وجه لا زيادة فيه.

ولا يصحّ في حقّ النبيّ (ص) لقوله تعالى ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ (النجم ٤). ولأنّ الاجتهاد إنّما يفيد الظنّ، وهو (ع) قادر على تلقّيه من الوحي.

مصطفى البابي بمصر سنة ١٣٥٦ هـ (٢ / ١٠١)، راجع ترجمته بكشف الظنون (٢ / ١٦٧٣)، وراجع الأحكام للآمدي (٤ / ١٤١).

(١) نقل ذلك محمّد فريد وجدي في مادّة جهد من دائرة معارف القرن العشرين (٣ / ٢٣٦) عن رسالة الإنصاف في بيان سبب الاختلاف لأحمد بن عبدالرحيم الدهلوي الفاروقي الحنفي المحدث الفقيه (ت ١١٧٦ أو ١١٧٩ هـ) ترجمه الزركلي في الأعلام (١ / ١٤٤).

(٢) أصل الكتاب اسمه التحرير في أُصول الفقه للعلّامة كمال الدّين محمّد بن عبدالواحد الشهير بابن همام الحنفي (ت: ٨٦١ هـ) وشرحه تلميذه الفاضل محمّد بن محمّد بن أمير الحاج الحلبي الحنفي (ت: ٨٧٩ هـ) وشرح الشرح، المحقق محمّد أمين، المعروف بأمير بادشاه البخاري، نزيل مكّة وسماه تيسير التحرير. ورجعنا إليه. ط. مصطفى البابي بمصر، سنة ١٣٥١ هـ (ج ١ / ١٧١) راجع تراجمهم بكشف الظّنون (١ / ٣٥٨).

ولأنّه كان يتوقّف في كثير من الأحكام حتى يرد الوحي ولو ساغ له الاجتهاد لصار إليه.

ولأنّه لو جاز له، لجاز لجبرئيل (ع).

وذلك يسدّ باب الجزم، بأنّ الشرع الذي جاء به محمّد (ع) من الله تعالى.

ولأنّ الاجتهاد قد يخطئ وقد يصيب، فلا يجوز تعبّده (ع) به لأنّه يرفع الثقة بقوله.

وكذلك لا يجوز لأحد من الأئمّة (ع) الاجتهاد عندنا، لأنّهم معصومون، وإنّما أخذوا الأحكام بتعليم الرّسول (ع)، وأما العلماء فيجوز لهم الاجتهاد، باستنباط الأحكام من العمومات، في القرآن والسنّة، وبترجيح الأدلّة المتعارضة.

أمّا بأخذ الحكم من القياس والاستحسان فلا»[1].

۞ ۞ ۞

ونرى أنّ علماء مدرسة أهل البيت (ع) حين آستعملوا مصطلح الاجتهاد والمجتهد لم يتركوا اصطلاح الفقه والفقيه بل جمعوا بين الاصطلاحين كما فعل ذلك جمال الدّين صاحب المعالم فإنّه قال في أوّل كتابه كما مرّ علينا.

«الفقه في اللّغة: الفهم.

وفي الاصطلاح: هو العلم بالأحكام الشرعيّة الفرعيّة عن أدلّتها التفصيليّة».

وعقد بعد ذلك فصلاً لتعريف الاجتهاد وقال في فصل آخر:

---

(١) مبادئ الوصول إلى علم الأصول، ص: ٢٤٠ ـ ٢٤١.

«الاجتهاد في اللّغة: تحمّل الجهد... وأمّا في الاصطلاح: فهو استفراغ الفقيه وسعه في تحصيل الظنّ بحكم شرعيّ...»[1].

(١) معالم الدّين، المطلب التاسع في الاجتهاد والتقليد، ص ٣٨١.

السُّنَّة

أ ـ في اللّغة:

ٱلسِّيْرَةُ.

ب ـ في المصطلح الإسلامي:

سُنَّةُ ٱلرّسولِ في المصطلح الإسلامي: حديثه وسيرته وتقريره.

وتقريره أن يرى رسول الله (ص) عملاً من مسلم ولا ينهاه عن ذلك؛ فإنّه قد أقرّ بسكوته صحّة ذلك الفعل.

أمّا ما استحدث في الدِّين من أمر ولم يُؤخذ من ٱلْكِتابِ وٱلْسُّنَّةِ فهو بِدْعَة. كما سندرسه في البحث الآتي بإذنه تعالى.

البِـدْعَة

البِدْعَة إحداث أمر في الشريعة، لم يرد فيها نصٌّ، سواءٌ أكـانت أصـلها مبتدعة أو خصوصيّتها مبتدعة[1].

والمقصود من النصّ، نصّ من القرآن الكريم وسنّة الرّسـول (ص) مـن حديثٍ أو عملٍ أو تقريرٍ، وتقرير الرّسول (ص) أنْ يـرى الرَّسـول (ص) مسلماً يعمل عملاً ولا ينهاه (ص) عن ذلك العمل، عندئذ يعدّ ذلك العمل ممَّا أقرّ الرّسول (ص) فِعْلَه.

قال رسول الله (ص): «إنّ أَفْـضَلَ الهَـدْيِ هَـدْيُ مُحَـمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمـورِ مُحْدَثاتُها، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَة»[2].

وقال (ص): «مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتي فَعَمِلَ بِها النَّاسُ كانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِها لا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِم شيئاً، وَمَن ٱبْتَدَعَ بِدْعَةً فَعُمِلَ بِها، كانَ عَلَيْهِ أَوْزَارُ مَنْ عَمِلَ بِها لا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِ مَنْ عَمِلَ بِها شَيئاً»[3].

---

(١) راجع مادّة (بدع) في سفينة البحار.

(٢) سنن الدّارمي (ت: ٢٥٥ هـ)، ج ١ / المقدّمة، باب ٢٣، ص ٦٩.

(٣) سنن ابن ماجة (ت: ٢٧٥ هـ) المقدّمة، باب ١٥، الحديث ٢٠٩.

الزّكاة

الزّكاة في اللّغة: الطّهارة والنّماء والبركة والمدح[1] مثل قوله تعالى: ﴿أيّها أزكىٰ طعاماً﴾ (الكهف / ١٩) أي أطهر. وما روي عن الإمام الباقر (ع) أنّه قال «زكاة الأرض يبسها»[2] أي طهارتها يبسها. وقول الإمام علي (ع): «العلم يزكو على الإنفاق»[3] أي ينمو. وقولهم: «زَكا الزّرع»[4] إذا حصل منه نموّ وبركة. وقوله تعالى: ﴿الّذين يُزكّون أنفسهم﴾ (النّساء / ٤٩) أي يمدحونها.

وفي الشّرع: ما يخرجه الإنسان من حقّ الله تعالى إلى مستحقّيه، وتسميته بذلك لما يكون فيها رجاء البركة أو لتزكية النفس أي تنميتها بالخيرات والبركات أو لهما جميعاً فإنّ الخيرين موجودان فيها[5].

وزكّى أدّى زكاة ماله.

هذا ملخّص ما ذكره أهل اللّغة في بيان معنى الزّكاة[6].

---

(١) راجع مادّة: (زكا) من نهاية اللّغة لابن الأثير.

(٢) بمادّة (زكا) من نهاية اللّغة.

(٣) نهج البلاغة، كتاب الحكم، العدد ١٤٧.

(٤) بمادّة (زكا) من مفردات الراغب.

(٥) راجع مادّة (زكا) من مفردات الراغب.

(٦) راجعنا في هذا وما يأتي بترجمة المصطلحات الآتية الراغب في مفرداته، وابن الأثير في نهاية اللّغة، وابن منظور في لسان العرب، والقاموس وشرحه مضافاً إلى تفاسير القرآن مثل تفسير الطبري والطبرسي وغيرهما.

الصَّدَقة

قال الراغب في مفرداته: «الصّدقة ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة كالزّكاة لكنّ الصّدقة تقال في الأصل للمتطوّع به، والزّكاة للواجب»[1].

وقال الطبرسي في مجمع البيان: «الفرق بين الصّدقة والزّكاة أنّ الزّكاة لا تكون إلّا فرضاً، والصّدقة قد تكون فرضاً وقد تكون نفلاً»[2].

ومن ثمّ نرى أنّ الزّكاة لوحظ فيها معنى الوجوب وقصد منها حقّ الله في المال، كما لوحظ في الصّدقة التطوّع أي اعطاء المال قربة إلى الله تعالى وقد تُلحظ فيها الرّحمة على المعطى له مثل قول إخوة يوسف له: ﴿وتصدّق علينا﴾ (يوسف / ٨٨).

وبما أنّ الزّكاة لوحظ فيها الوجوب أي حقّ الله في المال نرى أنّها تشمل أنواع الصدقات الواجبة والخُمُس الواجب وغيرهما من كلّ ما كتب الله على الإنسان في المال.

ويشهد لهذا ما جاء في كتاب رسول الله (ص) لملوك حمير: «وآتيتم الزّكاة من المغانم خُمس الله وسهم النبيّ وصفيّه وما كتب الله على المؤمنين من الصّدقة»[3].

---

(١) بمادّة (صدق).

(٢) مجمع البيان (١ / ٣٨٤) بتفسير الآية ٢٧٢ من سورة البقرة.

(٣) يأتي ذكر مصادر الكتاب في ما بعد إن شاء الله في بحث مصطلح الخُمُس.

فإن لفظ «من» بعد الزّكاة لبيان أنواع الزّكاة المذكورة بعدها وهي:

أ ـ من المغانم خُمْس الله.

ب ـ سهم النبيّ وصفيّه.

ج ـ ما كتب الله على المؤمنين من الصّدقة. أي القسم الواجب من الصّدقة.

۞ ۞ ۞

وهكذا جعل الصّدقة الواجبة قسماً واحداً من أقسام الزّكاة. وقد حصر الله الصّدقة بالمواضع الثمانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿إنّما الصّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرّقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السّبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ (التوبة / ٦٠)، ولم يحصر الزّكاة بمورد ما، بل قرنها بالصّلاة في خمس وعشرين آية من كتابه الكريم[١]، وكلّما قرنت الزّكاة بالصّلاة في كلام الله وكلام رسوله قصد منها مطلق حقّ الله في المال والذي منه: حقّه في ما بلغ النصاب من النقدين والأنعام والغلّات أي الصدقات الواجبة، ومنه حقّه في المغانم أي الخُمس، وحقّه في غيرهما.

وإذ قرنت في كلامهما بالخُمس، قصد منها الصّدقات الواجبة خاصّة. وكذلك إذا أضيفت في الكلام إلى أحد موارد أصناف الصّدقة مثل «زكاة الغنم» أو «زكاة النقدين» قصد منها عند ذاك أيضاً صدقاتها الواجبة. ويسمّى العامل على الصّدقة في الحديث والسيرة بالمُصدِّق[٢] ولا يقال «المُزكِّي» ويقال لمعطي الصّدقة: «المُتصَدِّق»[٣] ولا يقال المُزكّي أو المُتزكّي، و«الصّدقة»

---

(١) راجع مادّة: (الزّكاة) من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(٢) راجع مادّة (صدق) بمفردات الراغب ونهاية اللّغة ولسان العرب.

(٣) قال الله تعالى: ﴿إنّ المصدّقين والمصدّقات﴾ الحديد / ١٨ وقال ﴿والمتصدّقين

هي التي حُرِّمت على بني هاشم[1] وليست الزّكاة، ولم ينتبه مسلم إلى هـذا وكتب في صحيحه «باب تحريم الزّكاة على رسول الله (ص) وعلى آله...»[2] وأورد في الباب ثمانية أحاديث تنصّ على حـرمة الصّـدقة عـليهم وليست الزّكاة كما قال، وعلى هذا فكلّ ما جاء في القرآن الكريم من أمثال قوله تعالى ﴿وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة﴾[3] فهو أوّلاً أمر بإقامة كلّ ما يسمّى صلاة، سواء اليوميّة منها أو صلاة الآيات أو غيرهما. وثانياً أمر بأداء حقّ الله في المال سواء حقّه في موارد الصّدقة الواجبة، أو حقّه في موارد الخُمُس أو في غيرهما.

وكذلك المقصود في ما روي عن رسول الله أنّه قال: «إذا أدّيت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك»[4] أي أنك إذا أدّيت حقّ الله في مالك أي جميع حقوق الله في المال فقد قضيت ما عليك، وكذلك ما روي عنه انه قال «من استفاد مالاً فلا زكاة عليه حتى يحول الحول»[5] أي لا حقّ لله في ماله. وجـاء في أحاديث أئمّة أهل البيت: (وحقّ في الأموال الزّكاة)[6]. ولعلّ سبب خفاء ذلك

← والمتصدّقات﴾ الأحزاب / ٣٥، وراجع أبواب الزّكـاة في صـحيح مسـلم (٣ / ١٧٢)، وسنن أبي داود (١ / ٢٠٢)، والترمذي (٣ / ١٧٢). ولا يعبأ بما جاء عند بعض المتأخرين مثل المتقي في كنز العمال.

(١) يأتي تفصيله في ما بعد إن شاء الله.

(٢) صحيح مسلم (٣ / ١١٧).

(٣) راجع مادّة: (الزّكاة) في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(٤) سنن الترمذي (٣ / ٩٧) باب ما جاء إذا أدّيت الزّكاة فقد قضيت ما عليك.

(٥) سنن الترمذي (٣ / ١٢٥) باب ما جاء لا زكاة على المال المستفاد حتى يحول عليه الحول.

(٦) الكافي (٢ / ١٩ و ٢٠)، وتفسير العياشي (١ / ٢٥٢)، والبحار (٦٨ / ٣٣٧ و ٣٨٩).

على النّاس، أنّ الخلفاء لمّا أسقطوا الخُمْس بعد رسول الله ولم يبق مصداق للزّكاة في ما يعمل به غير الصّدقات، نُسِيَ الخُمْس تدرُّجاً، ولم يتبادر إلى الذهن من الزّكاة في العصور الأخيرة غير الصّدقات!

الفَـيء

الفيء في اللّغة: الرجوع ومنه مـا يـقال الفيء لرجـوع الظـلّ بـعد زوال الشمس.

وفي الشّرع كما في لسان العرب: «ما حصل من أموال الكفّار مـن غـير حرب» و«ما ردّ الله تعالى على أهل دينه من أموال من خالف أهل دينه بلا قتال، إمّا بأن يجلوا عن أوطانهم ويخلّوها للمسلمين أو يصالحوا على جزية يفتدون بها من سفك دمائهم، فهذا المال هو الفيء في كتاب الله»[1].

وقوله تعالى في سورة الحشر: ﴿وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللّه وللرّسول ولذي القُربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل﴾ (الآية ٧).

هذه الآية وسورة الحشر كلّها، نزلت في قصّة بني النضير. وذلك أنّ يهود بني النضير، نقضت عهدها مع رسول الله، وأرادت أن تغدر به وتقتله بإلقاء صخرة عليه حين ذهب مع عشرة من أصحابه إليهم، فأخبره الوحي بما بيّتوا من نيّة الغدر فخرج مسرعاً كأنّه يريد حاجة، ومضى إلى المدينة فلمّا أبطأ لَحِقَ به أصحابه فبعث النّبيّ إليهم يخبرهم بغدرهم ويأمرهم بالجلاء. فأبوا وتحصّنوا ١٥ يوماً ثمّ نزلوا على أنّ لهم ما حملت الإبل غير الحلقة أي السلاح فخرجوا على ستمائة بعير وذهبوا إلى خيبر وغيرها، فجعل الله ما خلّفوه من سلاح كثير وأراضٍ ونخيل لرسول الله، فقال عمر: ألا تُخمّس ما أصبت؟ (أي تأخذ خمسه وتقسم الباقي على المسلمين) فقال رسول الله (ص): لا أجعل

---

(١) بمادّة الفيء.

شيئاً جعله الله لي دون المسلمين بقوله: ﴿ما أفاء الله على رسوله﴾ الآية كهيئة ما وقع فيه السهمان للمسلمين.

وقال الواقدي وغيره:

إنّما كان ينفق على أهله من بني النضير، كانت له خالصة، فأعطى من أعطى منها وحبس ما حبس، واستعمل على أموال بني النضير مولاه أبا رافع[1].

---

(١) كلّ ما ذكرناه في قصّة بني النضير فمن مغازي الواقدي ص ٣٦٣ ـ ٣٧٨، وكذلك قاله المقريزي في إمتاع الأسماع ص ١٧٨ ـ ١٨٢ غير أنه ذكرها بإيجاز. وراجع تفسير الآية بتفسير الطبري.

وأبو رافع اسمه إبراهيم أو صالح. قيل كان عبداً قبطياً للعباس فوهبه للنّبيّ فاعتقه وزوّجه مولاته سلمى، أسلم بمكّة وشهد أُحداً وما بعدها وكان ابنه رافع كاتباً لعلي (ع)، توفي في خلافة عثمان أو بعده. أسد الغابة (١ / ٤١ و ٧٧).

الصّفيّ

الصّفيّ ويُجمع على الصّفايا كان يقال في العصر الجاهلي، لما يأخذه الرئيس من المال المسلوب من العدىٰ قبل القسمة. وفي الشرع الإسلامي، لما كان لرسول الله خالصاً دون المسلمين من مال منقول وغير منقول من أراضٍ وعقار، غير سهمه في الخُمس[1]، يستفاد ما ذكرناه مما ننقله في ما يأتي:

روى أبو داود بسننه[2] عن الخليفة عمر أنّه قال:

أ ـ كانت لرّسول الله ثلاث صفايا: بنو النضير وخيبر وفدك... الحديث.

ب ـ وفي حديث آخر له:

إنّ الله خصّ رسول الله (ص) بخاصّة لم يخصّ بها أحداً من النّاس، فقال ﴿فما أوجفتم عليه من خيلٍ ولا رِكاب ولكنّ الله يلّسط رسله على من يشاء والله على كلّ شيء قدير﴾ (الحشر / ٦) وكان الله أفاء على رسوله بني النضير... الحديث.

ج ـ وقال في حديث آخر بعد أن ذكر الآية الآنفة: «هذه لرسول الله خاصّة قرى عربيّة فدك وكذا وكذا».

وروى أبو داود عن الزهري أنّه قال:

صالَحَ النّبيّ أهل فدك وقرى وهو محاصر قوماً آخرين فأرسلوا إليه

---

(١) نهاية اللّغة لابن الأثير.

(٢) سنن أبي داود، باب: في صفايا رسول الله من كتاب الخراج (٣ / ١٤١) والأموال لأبي عبيد ص ٩.

بالصلح، قال: ﴿فما أوجفتم عليه من خيلٍ ولا رِكاب﴾ يقول، بغير قتال، قال: وكانت بنو النضير للنبيّ خالصاً لم يفتحها عنوة «اِفتتحوها على صلح» ويثبت مما ذكرنا أنّ البحّاثة ابن الأثير لم يصب في قوله بمادّة (صفا) من نهاية اللّغة حين قال: الصفي ما كان يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة ويقال له الصفيّة والجمع الصفايا. ومنه حديث عائشة: كانت صفيّة (رض) من الصفيّ، يعني صفيّة بنت حييّ كانت ممّن اصطفاه النّبيّ (ص) من غنيمة خيبر وقد تكرّر ذكره في الحديث. أي ذكر الصفيّ والصفايا.

وقال: «وفي حديث عليّ والعبّاس أنّهما دخلا على عمر (رض) وهما يختصمان في الصوافي التي أفاء الله على رسوله (ص) من أموال بني النضير، الصوافي: الأملاك والأراضي التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لها واحدها صافية، قال الأزهري: يقال للضياع التي يستخلصها السلطان لخاصّته: الصوافي».

وأخذ من الأزهري وابن الأثير من جاء بعدهما من اللغويّين مثل ابن منظور بمادّة «صفا» من لسان العرب.

وخلاصة قولهم: إنّ الصفيّ ويجمع على الصفايا يقال: لما يصطفيه الرئيس من غنائم الحرب غير المنقولة. والصافية وتجمع على الصوافي لما يستخلصها السلطان من أراض وضياع. ولست أدري كيف يصحّ ذلك وقد رأينا الخليفة عمر يسمّي فدك وخيبر وقرى عربيّة أُخرى بصفايا رسول الله.

ووجدنا أبا داود[1] المتوفّى سنة (٢٧٥ هـ) يعقد باباً في سننه باسم «باب

---

(١) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني صاحب كتاب السنن، قال: كتبت عن

صفايا رسول الله» يذكر شأن تلك القرى التي جاءت في حديث عمر وغير عمر.

ورأينا التقسيم المذكور قد استفيد من الأزهريّ[1] المتوفّى سنة (٣٧٠ هـ) أي بعد ما يقارب قرناً من أبي داود، ولعلّه أخذه من المتعارف في عصره وليس من قبله، وخاصّة من القرامطة الذين عاشرهم دهراً وهو في أسرهم واستفاد من محاوراتهم كثيراً.

وخلاصة القول:

إنّ الصفايا ومفردها الصفيّ كانت تطلق حتى عصر أبي داود على كلّ ما كان خالصاً لرسول الله من أموال وضياع وعقار.

رسول الله خمسمائة ألف حديث انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب يعني السنن، جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه، سكن البصرة وتوفي بها. وراجع تفسير الخبر في تفسير الآية في الدرّ المنثور.

(١) الأزهري أبو منصور محمّد بن أحمد بن الأزهر الهروي الشافعي اللغوي، أسرته القرامطة فبقي معهم دهراً طويلاً يسكن البادية، فاستفاد من محاوراتهم ألفاظاً جمة. من تصانيفه التهذيب ولعله استفاد ما ذكره في تعريف «الصوافي» من محاورات القرامطة في ما يخص الغزو والسلب والنهب. وعلى هذا فليس تعريفه هذا تعريف مصطلح شرعي ليفسر بموجبه ما جاء في الحديث الشريف.

الأنْفال

الأنفال جمع النفل والنقل في اللّغة: العطيّة والهبة، والنفل بالسكون: الزيادة على الواجب ونفّله نفلاً وتنفيلاً ونفله وأنفله إيّاه أعطاه نفلاً أي زيادة، ومنه: نفله سلب القتيل، ونوافل الصّلاة[1].

واستعمل لفظ الأنفال في الشرع الإسلامي لأوّل مرّة بسورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الأنفال...﴾ الآية. وشأن هذه السورة أن المسلمين خاضوا أوّل معركة حربية تحت لواء قائدهم الأعظم رسول الله (ص) في غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة، ولما أنتهت المعركة بفوزهم الساحق على قريش اختلفوا في ما ظفروا به من جهة العدىٰ ورجعوا إلى رسول الله (ص) في ذلك، فنزلت الآيات الكريمة من أوّل سورة الأنفال:

﴿يسألونك عن الأنفال قُل الأنفال لله والرّسول فاتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ الآيات.

في سيرة ابن هشام والطبري وسنن أبي داود[2] وغيرها واللّفظ للأوّل: «إنّ رسول الله (ص) أمر بما في العسكر مما جمع النّاس فجمع فاختلف المسلمون فيه، فقال من جمعه، هو لنا، وقال الذين كانوا يقاتلون العدوّ ويطلبونه: والله لولا نحن ما أصبتموه، لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله (ص) مخافة أن يخالف إليه

---

(١) راجع مادّة (نفل) من معاجم اللّغة خاصّة لسان العرب.

(٢) سنن أبي داود (٣ / ٩) باب في النفل من كتاب الجهاد.

العدوّ: والله ما أنتم بأحقّ به منّا، لقد رأينا أن نقتل العدوّ إذ منحنا الله أكتافهم، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، ولكنّا خفنا على رسول الله (ص) كرّة العدوّ، فقمنا دونه، فما أنتم بأحقّ به منّا».

وروى آبن هشام ـ أيضاً ـ عن عبادة بن الصامت أنّه قال عن سورة الأنفال: «فينا أصحاب بدر نزلت حين آختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله (ص) فقسّمه بين المسلمين على السواء».

وروى عن أبي أسيد الساعدي قال: أصبت سيف بني عائذ المخزوميين ويسمّى المرزبان يوم بدر فلمّا أمر رسول الله (ص) النّاس أن يردّوا ما في أيديهم من النّفل أقبلت حتى ألقيته في النفل.

قال ابن هشام: ثمّ أقبل رسول الله (ص) قافلاً إلى المدينة ومعه الأسارى من المشركين حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب، فقسّم هنالك النّفل الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء[1].

نفهم من كلّ ما سبق أن الله سبحانه حين آستعمل لفظة الأنفال في الآية

---

(١) سيرة ابن هشام (٢ / ٢٨٣ ـ ٢٨٦)، وفي طبعة أُخرى (٢ / ٢٩٦) وتفسير الآية بتفسير الطبري وغيره.

وعبادة بن الصامت: أبو الوليد الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة الأُولى والثانية ومشاهد رسول الله كلّها، وكان أحد نقباء الأنصار وممن حفظ القرآن على عهد النبي، توفي سنة ٣٤ أو ٤٥ بالرملة أو بيت المقدّس، ترجمته بأسد الغابة (٣ / ١٠٧).

وأبو أسيد مالك بن ربيعة الأنصاري الخزرجي، شهد بدراً وما بعدها. اختلف في وفاته أكانت في ستين أو خمس وستين للهجرة، ترجمته بأسد الغابة (٤ / ٢٧٩).

وبنو عائذ بن عبدالله بن عمر بن مخزوم من قريش، نسبهم في نسب قريش لمصعب الزبيري ص ٢٩٩.

ومضيق الصفراء بوادي الصفراء بينه وبين بدر مرحلة، معجم البلدان.

الكريمة قصد منها معناها اللغوي وهو الهبة والعطيّة، أي أنّ ما آستوليتم عليه من أموال العِدىٰ ليس من بـاب السّـلب والنّهب وفـق قـواعـد الجـاهليّة لتتملّكوهُ، بل هو عطاء من الله، ثمّ هو لله ولرسوله وعليكم أن تـردّوه إلى رسوله ليعمل فيه وفق رأيه.

ومن هنا نعرف المناسبة في ما آستعملت فيه لفظة الأنفال بأحاديث أئمّة أهل البيت، وأُريد بها: «كلّ ما أُخِذَ من دار الحرب بغير قتال، وكلّ أرض آنجلى عنها أهلها بغير قتال، وعلى قطائع الملوك إذا كانت في أيديهم من غير غصب، والآجام وبطون الأودية والأرضون الموات ومـا شـابهها»[1] فـإنّها جميعاً عطاء من الله، وهبه لرسوله ثمّ للأئمّة من بعده. وبهذا الاستعمال الأخير أصبحت الأنفال في العرف الإسلامي لدى مدرسة أئمّة أهل البيت (ع) آسماً لما ذكرناه بين القوسين آنفاً.

---

(١) راجع البحار للمجلسي، باب الأنفال من كتاب الخُمُس (٩٦ / ٢٠٤ ـ ٢١٤) ط. الجديدة.

الغَنِيمة والمَغْنَم

انّ الغنيمة والمغنم قد تطوّر مدلولاهما بعد العصر الجاهلي مرّتين: مرّة في التشريع الإسلامي، وأُخرى لدى المتشرّعة (أي بين المسلمين) حتى أصبح أخيراً مدلولاهما عندهم مساوقين للسلب والنهب والحرب. وبيان ذلك أنّ العرب كانت تقول:

سَلَبَهُ سَلْباً إذا أخذ سَلَبَهُ وسلب الرجل ثيابه، وما يأخذه القرن من قرنه مما يكون عليه ومعه من لباس وسلاح ودابة وغيرها، والجمع أسلاب.

وتقول: حَرَبَهُ حَرْباً، إذا سلبه كلَّ ماله وتركه بلا شيء، وحُرِب الرجل ماله سلبه فهو محروب وحريب والجمع حربي وحرباء، وحريبته ماله الذي سلب منه، وأخذتُ حريبته أي ماله الذي يعيش به، وأحربه: دلّه على ما يسلبه من عدوّه.

وتقول: نَهَبَهُ ونَهِبَهُ إذا أخذ ماله قهراً، والنهب والنهبى والنهيبى: أخذ المال قهراً والجمع نهابٌ ونُهُوبٌ، والنهب أيضاً ضرب من الغارة والسلب، وأنهب عرضه وماله أباحه لمن شاء.

هكذا فُسِّرت الألفاظ الآنفة في معاجم اللّغة[1] واُستعملت في تلكم المعاني أيضاً في السيرة والحديث ومن قبل الصحابة كما يأتي في ما يلي:

---

(١) مثل الصّحاح للجوهري، ونهاية اللّغة لابن الأثير، ولسان العرب لابن منظور والقاموس وشرحه.

في الحديث:

«من قتل قتيلاً فله سَلْبه»[1].

وفي قول رسول الله للمغنّي الذي ٱستجازه أن يغنّي في المدينة «وأحللت سلبك نُهبة لفتيان أهل المدينة»[2].

وفي السيرة:

لما أعطى رسول الله (ص) في غزوة حنين كلا من أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أُميّة وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دونهم قال عباس بن مرداس:

أتجعل نهبي ونهبُ العبيـ ـدِ بينَ عيينة والأقرع

الأبيات[3].

---

(١) سنن الدارمي (٢ / ٢٢٩) باب من قتل قتيلاً فله سلبه من كتاب السير، ومسند أحمد (٥ / ٢٩٥ و ٣٠٦ و ٣١٢)، وراجع سنن أبي داود، كتاب الجهاد (٢ / ٣)، وسنن أبي داود أيضاً باب في السلب يعطى القاتل من كتاب الجهاد (٢ / ١٣).

(٢) سنن ابن ماجة كتاب الحدود، الحديث ٢٦١٣.

(٣) صحيح مسلم (٣ / ١٠٨) باب إعطاء المؤلّفة قلوبهم من كتاب الزّكاة، وفي الاغاني بترجمة عباس بن مرداس (١٤ / ٢٩٠) وترجمته بأسد الغابة، والعبيد اسم لفرسه وغزوة حنين كانت في السنة الثامنة وبعد فتح مكّة.

وأبو سفيان بن حرب حارب رسول الله في أحد والخندق وفي غيرها. وأظهر الإسلام بعد الفتح وتوفي سنة ٣١ هـ.

وصفوان بن أُميّة القرشي الجمحي توفي بمكّة في عصر عثمان أو معاوية.

وعيينة بن حصن الفزاري قيل بن الخليفة عمر قتله، وقيل مات في عصر عثمان.

والأقرع بن حابس التميمي أُصيب بالجوزجان مع الجيش الغازي بلاد خراسان.

أعطى النبي هؤلاء في حنين سهم المؤلّفة قلوبهم فاعترض عليه ابن مرداس وقال دفعت سهمي وسهم فرسي العبيد إلى عيينة والأقرع.

وقالت قريش في قصّة بدر: «أُخرجوا إلى حرائبكم»[1].

وفي حديث رسول الله: «فإن قعدوا قعدوا موتورين محروبين»[2].

وفي حديث عمر: «إيّاكم والدَّين فانّ أوّله همّ وآخره حرب»[3].

وفي تاريخ عصر الصحابة: قال معاوية في وصيّته لسفيان بن عوف الغامدي لما بعثه لغزو بلاد المسلمين خارج بلاد الشام: «فاقتل من لقيته ممن ليس هو على رأيك، وأحرب كل ما مررت به من القرى، وأحرب الأموال فإنّ حَرَبَ الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب»[4]، يقصد أُسلب جميع أموالهم.

وفي الحديث: إنّ أصحاب النّبيّ أصابوا غَنَماً فانتهبوها فطبخوها فقال النبيّ (ص) «انّ النهبى أو النهبة لا تصلح» فأكفأوا القدور[5].

وفي غزاة كابل أصاب النّاس غَنَمًا فانتهبوها فأمر عبدالرحمٰن منادياً ينادي: إنّي سمعت رسول الله يقول: «من أنتهب نُهبَةً فليس منّا» فردّوا هذا

---

(١) بمادّة (حرب) من نهاية اللّغة لابن الأثير، وحرائب جمع حريبة.

(٢) مسند أحمد (٤ / ٣٢٨)، والبخاري (٣ / ٣١) واللفظ للأوّل، ومحروبين: مسلوبي المال.

(٣) موطأ مالك (٢ / ٢٣٦) باب جامع القضاء وكراهيته من كتاب الوصية، وآخره حرب: أي ذهاب المال.

(٤) ذكر هذا إبراهيم بن محمّد الثقفي (ت: ٢٨٠ هـ) في كتابه الغارات حسب رواية ابن أبي الحديد عنه في شرح النهج (٢ / ٥٨ ـ ٩٠) تحقيق محمّد أبي الفضل إبراهيم، والغامدي توفي بأرض الروم بعد الخمسين من الهجرة أميراً على الصائفة من قبل معاوية. راجع «أحاديث أمّ المؤمنين عائشة» ص ٢٤٢.

(٥) مسند أحمد (٥ / ٣٦٧)، وسنن ابن ماجة، كتاب الفتن، الحديث ٣٩٣٨، واللفظ للأوّل.

الغنم، فردّوها فقسّمها بالسّويّة[1].

كانت هذه معاني السلب والنهب والحَرَب. أمّا الغنيمة والمغنم فقد قال الراغب والأزهري في مادّة غنم: «الغنم معروف... والغنم إصابته والظفر به، ثمّ استعمل في كلّ مظفور به من جهة العدىٰ وغيرهم، قال تعالى: ﴿واْعلموا أنّما غنمتم من شيء﴾، ﴿فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيّباً﴾ والمغنم ما يغنم وجمعه مغانم قال تعالى: ﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾ إنتهى[2].

وفي لسان العرب وتهذيب اللّغة للأزهري ونهاية اللّغة، وفي معجم ألفاظ القرآن الكريم: «الغنم: الظفر بالغنم، ثمّ اْستعمل في كلّ ما يظفر به من جهة العدو وغيرهم. غَنِمَ كسمع غنماً والغنم ما يغنم وجمعه مغانم.

«الغنم: الفوز بالشيء من غير مشقّة».

«وغنم الشيء: فاز به. والاغتنام انتهاز الغنم»[3].

وفيه وفي نهاية اللّغة لابن الأثير بنفس المادّة: في الحديث «الرَّهنُ لمن رهنه، له غُنمُه وعليه غُرمُه» غُنمه: زيادته ونَماؤه وفاضل قيمته. انتهى.

وفي صحاح الجوهري: «المغنم والغنيمة بمعنى»[4].

---

(١) مسند أحمد (٥ ـ ٦٢ و ٦٣)، وعبدالرحمٰن بن سمرة القرشي توفي بالبصرة سنة خمسين أو إحدى وخمسين ترجمته بأسد الغابة (٣ / ٢٩٧).

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصبهاني بمادّة (غنم) والآية الأُولى بسورة الأنفال / ٤١ والثانية الآية ٦٩ منها والثالثة الآية ٩٤ من سورة النّساء، وتهذيب اللّغة للأزهري (ت: ٣٧٠ هـ) (٨/ ١٤٩)، ومعجم ألفاظ القرآن (٢ / ٢٩٣).

(٣) مادّة (غنم) بنهاية اللّغة لابن الأثير (٣ / ١٧٣)، ولسان العرب (١٢ / ٤٤٥) وتهذيب اللّغة للأزهري / (ت: ٣٧٠ هـ)، ومعجم مقاييس اللّغة لابن فارس (ت: ٣٩٥ هـ) (٤ / ٣٩٧)، وتفسير الفخر الرازي (١٥ / ١٦٦).

(٤) بمادّة (غنم) من صحاح اللّغة للجوهري، ص ١٩٩٩.

وجاء في الحديث من هذه المادّة وأُريد به الفوز بالشيء في باب ما يقال عند إخراج الزّكاة من سنن ٱبن ماجة عن رسول الله (ص): «اللّهمّ ٱجعلها مغنماً ولا تجعلها مغرماً»[1].

وفي مسند أحمد عن رسول الله (ص): «غنيمة مجالس الذكر الجنّة»[2].

وفي وصف شهر رمضان: «هو غُنم للمؤمن»[3]. إلى غير هذه الموارد من الحديث. وجاء في كتاب الله تعالى: ﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾ (النِّساء / ٩٤).

ويتلخّص ممّا سبق:

إنّ العرب كانت تقول في الجاهليّة والإسلام: سَلَبَهُ إذا أخذ ما مع المسلوب وما عليه من ثياب وسلاح ودابّة، وتقول: حَرَبَهُ إذا أخذ كلّ ماله، وكانت النهيبة والنهبى عندهم تساوق الغنيمة والمغنم في عصرنا.

ووجدنا غنم الشيء غنماً عندهم بمعنى فاز به بلا مشقة، والاغتنام: انتهاز الغُنم، والمغنم: ما يغنم وجمعه مغانم. وفي الحديث: «له غُنمه» أي نماؤه وفاضل قيمته، وفي وصف شهر رمضان: «هو غُنم للمؤمن»، وفي الدّعاء عند أداء الزّكاة: «اللّهمّ اجعلها مغنماً» و«غنيمة مجالس الذكر الجنّة».

وقالوا: الغُنم في الأصل: الظفر بالغنم ثمّ ٱستعمل في كلّ ما ظفر به من جهة العدىٰ وغيرهم. وأرىٰ شمول الغنم لما ظفر به من جهة العدىٰ وغيرهم صار في العصر الإسلامي لا قبله.

وذلك لأنّ المسلمين خاضوا أوّل معركة حربية تحت لواء رسول الله (ص)

---

(١) سنن ابن ماجة كتاب الزّكاة، الحديث ١٧٩٧.

(٢) مسند أحمد (٢ / ١٧٧).

(٣) مسند أحمد (٢ / ٣٣٠ و ٣٧٤ و ٥٢٤).

في بدر وتنازعوا في الأسلاب بعد انتصارهم وسلب الله عنهم ملكيّة ما أستولوا عليه من أموال العدىٰ وجعله لله ولرسوله وسمّاه بالأنفال، وبعد نزول هذا الحكم في سورة الأنفال، كان الغزاة في جميع الغزوات يأتون بكلّ ما ظفروا به إلى القائد ليتصرّف فيه كما يراه، ولم يكن لأحد منهم أن ينهب شيئاً جهاراً أو يغلّه سرّاً فقد حرّم رسول الله الانتهاب كما رواه ابن ماجة وأحمد واللّفظ للأوّل، قال: قال رسول الله: «ان النهبة لا تحلّ».

وقال: «من انتهب نهبة فليس منّا»[1].

وفي صحيح البخاري ومسند أحمد عن عبادة قال: بايعنا النبيّ على أن لا ننتهب[2].

وفي صحيح البخاري عن رسول الله (ص): «لا ينتهب نهبة ذات شرف وهو مؤمن»[3].

وفي سنن أبي داود باب النهي عن النُّهبى عن رجل من الأنصار قال: خرجنا مع رسول الله في سفرنا فأصاب النّاس حاجة شديدة وجهدوا وأصابوا غنماً فانتهبوا، فإنّ قدورنا لتغلي إذ جاء رسول الله يمشي على قوسه، فأكفأ قدورنا بقوسه ثمّ جعل يرمل اللحم بالتراب ثمّ قال: «انّ النهبة ليست بأحلّ من الميتة»[4].

---

(١) الحديثان في كتاب الفتن من سنن ابن ماجة، باب النهي عن النُّهبى ص ١٢٩٩، والحديث الأوّل بمسند أحمد (٤ / ١٩٤)، والثاني في مسنده (٣ / ١٤٠ و١٩٧ و٣١٢ و٣٢٣ و٣٨٠ و٣٩٥) و(٤ / ٤٣٩ و٤٤٣ و٤٤٦) و(٥ / ٦٢).

(٢) صحيح البخاري (٢ / ٤٩) كتاب المظالم. باب النُّهبى بغير إذن صاحبه، ومسند أحمد (٥ / ٣٢١)، وعبادة سبقت ترجمته.

(٣) صحيح البخاري (٣ / ٢١٤) كتاب الأشربة، وراجع (٢ / ٤٨).

(٤) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في النهي عن النُّهبى (٣ / ٦٦).

وحرّم الله ورسوله الإغلال قال الله سبحانه: ﴿ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة﴾. (آل عمران / ١٦١)

وفي حديث رسول الله (ص): «لا نهب ولا إغلال ولا إسلال ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة»[١]. الإغلال: السرقة الخفيّة، والإسلال: السرقة.

في هذا الحديث ذكر النهب والإغلال في عداد السرقة.

وفي حديث آخر قال: «أدّوا الخيط والمخيط، فما فوق ذلك فما دون ذلك، فانّ الغلول عار على أهله يوم القيامة وشنار وعار»[٢].

قال ابن الأثير: الغلول: الخيانة في المغنم، والسرقة من الغنيمة قبل القسمة، والشنار أقبح العيب.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص: كان رسول الله إذا أصاب غنيمة أمر بلالاً فنادى في النّاس فيجيئون بغنائمهم فيخمّسه ويقسّمه، فجاء رجل من ذلك بزمام من شعر، فقال: يا رسول الله هذا ما كنّا أصبنا من الغنيمة، فقال: «أسمعت بلالاً نادى ثلاثاً» قال: نعم، قال: «ما منعك أن تجيء به؟» فاعتذر، فقال: «كن أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبله منك»[٣].

وفي باب الغلول من كتاب الجهاد بسنن ابن ماجة: توفي رجل من أشجع بخيبر فقال النبيّ: «صلّوا على صاحبكم» فأنكر النّاس ذلك وتغيّرت له

---

(١) سنن الدارمي (٢ / ٢٣٠).

(٢) سنن الدارمي (٢ / ٢٣٠) باب «ما جاء أنه قال أدّوا الخيط والمخيط» من كتاب السير.

(٣) بسنن أبي داود (٢ / ١٣) باب تعظيم الغلول من كتاب الجهاد، وفي الكتاب باب في عقوبة الغال ذكر فيه أنهم كانوا يحرقون متاع الغال وفيه باب من كتم غالاً فهو مثله.

وجوههم فلمّا رأى ذلك قال: «إنّ صاحبكم قد غلّ»[1].

وفي باب «ما جاء في الغلول من الشدّة» من كتاب السير بسنن الدارمي عن عمر بن الخطاب قال: «قتل نفر يوم خيبر فقالوا: فلان شهيد حتى ذكروا رجلاً فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله: «كلّا إني رأيته في النّار في عباءة أو في بردة غلّها»[2].

وفي باب الغلول من كتاب الجهاد بسنن ابن ماجة: كان على ثقل النبيّ رجل يقال له كركرة فمات فقال النبيّ: «... وهو في النّار» فذهبوا ينظرون فوجدوا عليه كساء أو عباءة قد غلّها»[3].

وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود بلفظ آخر وفي آخر الحديث: فجاء رجل ـ حين سمع ذلك ـ بشراك أو بشراكين، فقال رسول الله (ص) «شراك أو شراكان من نار»[4].

۞ ۞ ۞

وإذا كان الإسلام قد منع أفراد الجيش من النّهب ـ أي آستملاك المال المظفور به من جهة العدىٰ جهاراً ـ حتّى أنّ الرّسول أكفأ قدور الجائعين الّذين كانوا قد نهبوا الأغنام وأرمل لحومها. ونهى عن الاستيلاء عليه سرّاً وسمّاه الغلول أي الخيانة، وقال الرّسول: «أدّوا الخيط والمخيط فما فوق ذلك فما دون

---

(١) بسنن ابن ماجة ص ٩٥٠.

(٢) بسنن الدارمي (٢ / ٢٣٠).

(٣) بسنن ابن ماجة ص ٩٥٠.

(٤) تمام الحديث في صحيح البخاري (٣ / ٣٧) باب غزوة خيبر، وصحيح مسلم (١ / ٧٥) بكتاب الإيمان، وسنن أبي داود (٢ / ١٣) من كتاب الجهاد، وراجع باب تحريم الغلول من كتاب الإمارة بصحيح مسلم (٦ / ١٠).

ذلك»، ولم يصلِّ على من غلَّ ولم يسمِّ القتيل الّذي غلّ عباءة بشهيد، وبذلك سلب الإسلام عن أفراد الجيش الغازي ملكيّة المال المظفور به من جهة العدىٰ مهما كان، ولو كان شراك نعل، وكيفما كان، سرّاً أو جهاراً، وسمّاه القرآن أنفالاً، وجعله لله ولرسوله وليتصرّف فيه رسول الله كيفما يرىٰ، فماذا فعل رسول الله بالمال المظفور به من جهة العدىٰ.

أعطى الرّسول في غزواته للرّاجل ما رأىٰ أن يعطيه وللفارس كذلك[1]، سواء أكانا ممّن آستولىٰ على المظفور به أو لم يكونا منهم، ورضخ للمرأة[2].

وأكثر من ذلك أنّه أعطىٰ لمن لم يشهد الغزاة بالمرّة، مثل ما فعل مع عثمان في غزاة بدر، ومع أصحاب جعفر في غزاة خيبر، كما في صحيح البخاري ومسندي الطّيالسي وأحمد وطبقات ابن سعد: أنّ رسول الله خلّف عثمان في غزاة بدر على زوجته ابنة رسول الله وكانت مريضة، وأسهم له في ما أصابوا كواحد ممّن حضر الغزوة[3].

وفي الصفحة نفسها من صحيح البخاريّ عن أبي موسىٰ قال: بلغنا مخرج النبيّ (ص) ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه في بضع وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة فألقتنا إلى النجاشي بالحبشة، ووافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فأقمنا معه حتّى قدمنا جميعاً فوافقنا النبيّ (ص) حين آفتتح

---

(١) في صحيح البخاري (٣ / ٣٦)، «باب غزوة خيبر» أنه قسم للفارس سهمين وللرّاجل سهماً.

(٢) رضخ له: أعطاه عطاءً غير كثير.

(٣) صحيح البخاريّ (٢ / ١٣١) باب إذا بعث الإمام رسولاً إلى حاجة أو أمر بالمقام هل يسهم له من كتاب الجهاد والسير، وبمسند الطّيالسي الحديث ١٩٨٥، ومسند أحمد (١ / ٦٨ و ٧٥)، و (٢ / ١٠١ و ١٠٢)، وطبقات ابن سعد (٣ / ٥٦)، وبداية المجتهد (١ / ٤١٠ ـ ٤١٢) في الفصل الثاني من كتاب الجهاد.

خيبر، فأسهم لنا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه وقسّم لهم معهم[1].

وكذلك أعطى النبيّ المؤلّفة قلوبهم في حنين ـ كما مرّ ذكره ـ أضعاف سهم المؤمن المجاهد.

هكذا سلبَ الإسلام ملكيّة المال المظفور به من جهة العدىٰ ممّن ظفر به وجعله لله ولرسوله، فتصرّف فيه الرّسول وقسّمه حسب ما رآه، وصحّ بهذا الاعتبار أن نقول: إنّ الّذي أصابه سهم من المظفور به سواء مَن حضر الغزوة أو من لم يحضرها، ظفر به بلا مشقّة لأنّه ظفر به من يد رسول الله وليس من الغزو، وصحّ بهذا الاعتبار أن نحسب المظفور به من نوع «الغنيمة والمغنم» بعدما كانت الغنيمة والمغنم لدى العرب تدلّان على ما ظفر به بلا مشقّة من غير جهة العدىٰ، وكان للّذي ظفر به من جهة العدىٰ تسميات أُخرى ذكرناها في ما سبق. وبهذا الاعتبار نزلت آية ﴿واعلموا أنّ ما غنمتم﴾ في هذه الغزوة بعد نزول آية الأنفال بصدر السورة، أو نزلت في غزوة أُحُد، وأصبح للغنيمة بعد نزول هذه الآية معنيان:

١ ـ معنى لغويّ: وهو الفوز بالشيء بلا مشقّة، وليس من ضمنه المظفور به من جهة العدىٰ؛ فانّ له تسميات خاصّة وهي: السّلب والنّهب والحرب.

٢ ـ معنى شرعيّ: وهو «ما ظفر به من جهة العدىٰ وغيرهم». كما فسّره الراغب، وهكذا جعل الإسلام أسلاب الحرب من مصاديق المغنم بعد أن لم تكن من مصاديقه.

ووجدنا الغنيمة والمغنم مستعملين في الحديث والسيرة، في معناهما اللّغويّ تارة، كما يستعمل اللّفظ في معناه الحقيقيّ دونما حاجة إلى قرينة كما مرّ بنا

---

(١) ذكرنا الحديث من البخاريّ باختصار.

سابقاً. وتارة في معناهما الشرعيّ مع وجود قرينة في الكلام، أو في حال التخاطب تدلّ على المعنى الشرعيّ المقصود.

هكذا آستعمل اللّفظان في المعنيين حتّى عصر آنتشار الفتوح على عهد الخليفة عمر فما بعد، حيث كثر آستعمال مشتقّات مادّة «غنم» في ما ظفر به من جهة العدىٰ خاصّة مع وجود قرائن حاليّة أو مقاليّة تدلّ على هذا القصد. وعندما جاء اللّغويون بعد ذلك، واستقرأوا موارد استعمال مادّة «غنم» لدى العرب في عصرهم فما فوق، وجدوها مستعملة كما يلي:

أ - في الفوز بالشيء بلا مشقّة، في العصر الجاهليّ وصدر الإسلام لدىٰ العرب عامّة.

ب - في الفوز بالشيء من جهة العدىٰ وغيرهم، بعد نزول آية الخُمْس لدى المسلمين خاصّة منذ عصر الرّسول حتى عصر الصّحابة.

ج - في ما ظفر به من جهة العدىٰ خاصّة، في عصر الفتوح مع قرائن لم ينتبه إليها، ثمّ استعملت متدرّجاً إلى عصر اللّغويين بلا قرينة في المجتمع الإسلاميّ خاصّة، وعندما قام روّاد اللّغة بتدوينها لم يتنبّهوا إلى تطوّر مدلول مادّة «غنم» كما ذكرنا، وأنتج ذلك أنّ بعضهم لاحظ آستعمالها في المدينة بعد تشريع الخُمْس مثل الراغب فقال: «استعمل في كلّ مظفور به من جهة العدىٰ وغيرهم».

ولاحظ ابن منظور وغيره تارة آستعمالها في العصر الجاهليّ، وقالوا: «غنم الشيء: فازَ به، والإغتنام: إنتهاز الغنم...».

وتارة آستعمالها في عصر الفتوح مع قرينة خفيت عليهم وبعدها بلا قرينة، فقالوا: «الغنيمة ما أُصيب من أموال أهل الحرب».

وتردّد صاحب القاموس في «الغنم» هل هو بمعنى الفوز والفيء[1] كليهما أي أنّه مشترك بين المعنيين، أو أنّ الغنيمة بمعنى الفيء وسائر مشتقّات المادّة بمعنى الفوز بالشيء[2].

هكذا خلطوا في تفسير مادّة «غنم»، والصّواب أن نلاحظ تطوّر مدلول المادّة كما ذكرنا ونقول: إنّ مادّة «غنم» كانت:

أ ـ في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، في اللّغة: حقيقة في الفوز بالشيء بلا مشقّة.

ب ـ بعد نزول آية الخُمْس في الشرع: حقيقة في ما ظفر به من جهة العدىٰ وغيرهم، إلى جنب حقيقتها اللّغوية فإنّها لم تكن منسيّة يومذاك.

ج ـ في عصر تدوين اللّغة فما بعد: حقيقة عند المتشرّعة ـ أي المسلمين ـ في ما ظفر به من جهة العدىٰ خاصّة، وذلك أيضاً إلى جانب حقيقتها اللّغويّة.

وعلى هذا فإنّا إذا وجدنا إحدى مشتقّات هذه المادّة مستعملة في الكلام حتّى صدر الإسلام، ينبغي أن نحملها على معناها اللّغويّ خاصّة أي «الفوز بالشيء بلا مشقّة» وفي غير ما ظفر به من جهة العدىٰ.

وإذا وجدناها مستعملة بعد تشريع الخُمْس عند المسلمين أو في التشريع الإسلامي، فإمّا أن تُحمل على معناها اللّغوي المذكور وإمّا على معناها الشرعيّ: «الظّفر بالشيء من جهة العدىٰ وغيرهم» فإنّها مشتركة بينهما.

وإذا وجدناها مستعملة عندهم في عصر تدوين اللّغة فما بعد، فالأرجح حملها على المشهور منها يومذاك عندهم، أعني الظّفر بمال العدىٰ خاصّة.

---

(١) فسّر صاحب القاموس الفيء في مادّة (الفيء) بالغنيمة.

(٢) بمادّة (غنم) من القاموس.

ويتّضح ممّا ذكرنا أنّا وجدنا إحدىٰ مشتقّات هـذه المـادّة مستعملة في الحديث وغيره بعد تشريع الخُمُس منذ عصر الرّسول وحتّى عصر الصّحابة، فلابدّ أن نحملها على أحد معنيين إمّا اللّغوي «الفوز بالشيء بلا مشقّة»، وإمّا الشرعيّ «الظّفر بالشيء من جهة العدىٰ وغيرهم» فينبغي والحالة هـذه أن نبحث عند ذاك عن قرينة تدلّ على المقصود.

وفي آستقرائنا لموارد آستعمال هـذه الكـلمة في ذلك العـصر غـالباً مـا وجدناها مصحوبة بقرينة حاليّة أو مقاليّة تدلّ على المـعنى الشرعـيّ، مـع وجود موارد كثيرة اُستعملت فيها في معناها اللّغويّ دونما قرينة.

الخُمْس

الخُمْس في اللّغة: أخذُ واحدٍ من خَمسة، وخمّستُ القوم: أخذتُ خُمُس أموالهم.

أمّا معناه الشرعيّ فينبغي لدركه أن نرجع أوّلاً إلى عُرْف العرب في العصر الجاهليّ لمعرفة نظامهم الاجتماعيّ يومذاك في هذا الخصوص، ثمّ نعود إلى التشريع الإسلاميّ لندرس الخُمْس فيه، وندرس أمره بعد ذلك لدى المسلمين بالتفصيل إن شاء الله تعالى، فإلى دراستها في ما يلي:

أوّلاً: في العصر الجاهليّ

كان الرئيس عند العرب يأخذ في الجاهليّة رُبع الغنيمة، ويُقال: ربع القوم يربعهم ربعاً أي أخذ رُبع أموالهم، وربع الجيش أي أخذ منهم رُبع الغنيمة، ويُقال للربع الّذي يأخذه الرئيس: المِرْباع. وفي الحديث، قال الرّسول لعديّ ابن حاتم قبل أن يسلم: «انّك لتأكل المِرْباع وهو لا يحلّ في دينك»[1]. وقال الشاعر:

لك المِرْباع منها والصّفايا وحكمك والنشيطة والفضول

الصّفايا ما يصطفيه الرئيس، والنشيطة ما أصاب من الغنيمة قبل أن تصير إلى مجتمع الحيّ، والفضول ما عجز أن يُقسّم لقلّته فخصّ به الرئيس[2].

---

(١) بمادّة «ربع» من القاموس واللّسان وتاج العروس ونهاية اللّغة لابن الأثير وفي صحاح الجوهري بعضه. وسيرة ابن هشام (٤ / ٢٤٩).

(٢) في نهاية اللّغة (٢ / ٦٢).

وفي النهاية: «إنّ فلاناً قد آرتبع أمر القوم، أي انتظر أن يؤمّر عليهم، وهو على رباعة قومه أي هو سيّدهم».

وفي مادّة «خُمس» من النهاية: ومنه حديث عديّ بن حاتم «ربعت في الجاهليّة وخمّست في الإسلام» أي قُدتُ الجيش في الحالين، لأنّ الأمير في الجاهليّة كان يأخذ رُبع الغنيمة، وجاء الإسلام فجعله الخُمس وجعل له مصاريف. إنتهى[1].

ثانياً: في العصر الإسلاميّ

هذا ما كان في الجاهليّة، أمّا في الإسلام فقد فُرِضَ الخُمس في التشريع الإسلاميّ، وذُكِرَ في الكتاب والسنّة كما يلي:

أ ـ الخُمس في كتاب الله:

قال الله سبحانه: ﴿وآعلموا أنّما غنمتم من شيءٍ فأنّ لله خُمسه وللرّسول ولذي القُربىٰ والمساكين وآبن السّبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم آلتقى الجمعان، والله على كلّ شيءٍ قدير﴾. (الأنفال / ٤١)

هذه الآية وإن كانت قد نزلت في مورد خاصّ، ولكنّها أعلنت حكماً عامّاً وهو وجوب أداء الخُمس من أيّ شيء غنموا ـ أي فازوا به ـ لأهل الخُمس. ولو كانت الآية تقصد وجوب أداء الخُمس ممّا غنموا في الحرب خاصّة؛ لكان ينبغي أن يقول عزّ آسمه: وآعلموا أنّ ما غنمتم في الحرب، أو أنّ ما غنمتم من العدىٰ، لا أن يقول: أنّ ما غنمتم من شيء.

في هذا التشريع: جعل الإسلام سهم الرئاسة الخُمس بدل الرُّبع في الجاهليّة، وقلّل مقداره، وكثّر أصحابه فجعله سهماً لله، وسهماً للرّسول،

---

(١) نهاية اللّغة (١ / ٣٢١)، ومسند أحمد (٤ / ٢٥٧).

وسهماً لذوي قربى الرّسول، وثلاثة أسهم لليتامىٰ والمساكين وابن السّبيل من فقراء أقرباء الرّسول، وجعل الخُمْس لازماً لكلّ ما غنموا من شيء عامّة ولم يخصّصه بما غنموا في الحرب، وسمّاه الخُمْس مقابل المِرْباع في الجاهليّة.

ولمّا كان مفهوم الزّكاة مسوقاً لحقّ الله في المال ـ كما أشرنا إليه في ما سبق ـ فحيث ما جاء في القرآن الكريم حثّ على أداء الزّكاة في ما ينوف على ثلاثين آية[1]، فهو حثّ على أداء الصّدقات الواجبة والخُمْس المفروض في كلّ ما غنمه الإنسان، وقد شرح الله في المال في آيتين: آية الصّدقة وآية الخُمس.

كان هذا ما استفدناه من كتاب الله في شأن الخُمس.

ب ـ الخُمْس في السنّة:

أمر الرّسول بإخراج الخُمْس من غنائم الحرب ومن غير غنائم الحرب، مثل الرّكاز كما روىٰ ذلك كلّ من ابن عبّاس، وأبي هريرة، وجابر، وعبادة ابن الصّامت، وأنس بن مالك كما يلي:

وفي مسند أحمد وسنن ابن ماجة ـ واللّفظ للأوّل ـ عن ابن عبّاس قال: «قضىٰ رسول الله (ص) في الرّكاز الخُمس»[2].

وفي صحيحي مسلم والبخاري، وسنن أبي داود، والترمذي، وابن ماجة، وموطأ مالك، ومسند أحمد واللّفظ للأوّل: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص): «العجماء جُرحها جُبار، والمعدِن جُبار، وفي الرّكاز الخُمس»، وفي بعض الروايات عند أحمد: البهيمة عقلها جُبار[3].

---

(١) راجع مادّة (الزّكاة) في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(٢) مسند أحمد (١ / ٣١٤)، وسنن ابن ماجة ص ٨٣٩.

(٣) صحيح مسلم (٥ / ١٢٧) باب «جرح العجماء والمعدن والبئر جُبار» أي هدر

وفي مسند أحمد عن الشعبيّ عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله (ص): «السّائمة جُبار، والجبّ جُبار، والمعدن جُبار، وفي الرّكاز الخُمس»، قال الشعبيّ: الرّكاز الكنز العادي[1].

وفي مسند أحمد عن عبادة بن الصّامت قال: من قضاء رسول الله (ص) أنّ المعدن جُبار، والبئر جُبار، والعجماء جرحها جُبار، والعجماء البهيمة من الأنعام وغيرها. والجُبار هو الهدر الّذي لا يُغرّم، وقضى في الرّكاز الخُمس[2].

وفي مسند أحمد عن أنس بن مالك قال: خرجنا مع رسول الله (ص) إلى خيبر، فدخل صاحب لنا إلى خربة يقضي حاجته فتناول لبنة ليستطيب بها فانهارت عليه تبراً فأخذها فأتى بها النبيّ (ص) فأخبره بذلك، قال: «زِنْها»، فوزنها، فإذا مائتا درهم، فقال النبيّ: «هذا ركاز وفيه الخُمس»[3].

من كتاب الحدود بشرح النووي (١١ / ٢٢٥)، وصحيح البخاريّ (١ / ١٨٢) باب «في الرّكاز الخُمس»، و (٢ / ٣٤) باب «من حفر بئراً في ملك لم يضمن» من كتاب المساقاة، وسنن أبي داود (٢ / ٢٥٤) باب «من قتل عمياً بين قوم» من كتاب الحدود، وباب «ما جاء في الرّكاز»، (٢ / ٧٠)، وسنن الترمذيّ (٣ / ١٣٨) باب «ما جاء في العجماء جرحها جُبار، وفي الرّكاز الخُمس لله»، وسنن ابن ماجة ص ٨٠٣ باب «من أصاب ركازاً» من كتاب اللّقطة، وموطأ مالك (١ / ٢٤٤) باب «زكاة الشركاء»، ومسند أحمد (٢ / ٢٢٨ و ٢٣٩ و ٢٥٤ و ٢٧٤ و ٢٨٥ و ٣١٩ و ٣٨٢ و ٣٨٦ و ٤٠٦ و ٤١١ و ٤١٥ و ٤٥٤ و ٤٥٦ و ٤٦٧ و ٤٧٥ و ٤٨٢ و ٤٩٣ و ٤٩٥ و ٤٩٩ و ٥٠١ و ٥٠٧، والأموال لأبي عبيد ص ٣٣٦.

(١) مسند أحمد (٣ / ٣٣٥ و ٣٣٦ و ٣٥٣ ـ ٣٥٤ و ٣٥٦)، ومجمع الزّوائد (٣ / ٧٨) باب «في الرّكاز والمعادن» وأبو عمرو عامر بن شراحيل الكوفيّ الشعبيّ، نسبة إلى شعب بطن من همدان. روى عن خمسين ومائة من أصحاب رسول الله. توفّي بالكوفة سنة ١٠٤ هـ، أنساب السمعاني ص ٣٣٦.

(٢) مسند أحمد (٥ / ٣٢٦).

(٣) مسند أحمد (٣ / ١٢٨)، ومجمع الزوائد (٣ / ٧٧) باب «في الرّكاز والمعادن».

وفي مسند أحمد: انّ رجلاً من مزينة سأل رسول الله مسائل جاء فيها: فالكنز نجده في الخرب والآرام؟ فقال رسول الله (ص): «فيه وفي الرّكاز الخُمْس»[1].

❁ ❁ ❁

استعرضنا في ما سبق روايات رسول الله (ص) التي أمرت بدفع الخُمْس عن أشياء غير غنائم الحرب، وفي ما يلي نستعرض كتب الرّسول (ص) وعهوده التي ورد فيها أمر بدفع الخُمس.

الخُمْس في كتب الرّسول (ص) وعهوده:

أ ـ في صحيحي البخاريّ ومسلم وسنن النسائي ومسند أحمد واللّفظ للأوّل: أنّ وفد عبد القيس لمّا قالوا لرسول الله (ص): «إنّ بيننا وبينك المشركين من مضر، وإنّا لا نصل إليك إلّا في أشهر حرم، فمُرنا بجمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنّة، وندعو إليه من وراءنا».

قال: «آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله، وهل تدرون ما الإيمان بالله، شهادة أن لا إله إلّا الله، وإقام الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، وتعطوا الخُمْس من المغنم ...» الحديث[2].

إنّ الرّسول (ص) لمّا أمر وفد عبد القيس أن يعطوا الخُمْس من المغنم، لم

ومغازي الواقدي ص ٦٨٢.

(١) مسند أحمد (٢ / ١٨٦ و ٢٠٢ و ٢٠٧)، وفي سنن الترمذي (١ / ٢١٩) باب اللّقطة من كتاب الزّكاة مع إختلاف في اللّفظ، والأموال لأبي عبيد ص ٣٣٧.

(٢) بصحيح البخاريّ (٤ / ٢٠٥) باب «والله خلقكم وما تعلمون» من كتاب التوحيد، و (١ / ١٣ و ١٩) منه، و (٣ / ٥٣)، وفي صحيح مسلم (١ / ٣٥ و ٣٦) باب «الأمر بالإيمان» عن ابن عبّاس وغيره، وسنن النسائي (٢ / ٣٣٣)، ومسند أحمد (٣ / ٣١٨) و (٥ / ١٣٦).

يطلب إخراج خُمس غنائم الحرب من قوم لا يستطيعون الخروج من حيِّهم في غير الأشهر الحرم خوفاً من المشركين من مضر، وإنّما قصد من المغنم معناه الحقيقيّ في لغة العرب وهو: الفوز بالشيء بلا مشقّة. كما سبق تفسيره، أي: أن يعطوا خُمس ما يربحون، أو لا أقلّ من أنّه قصد معناه الحقيقيّ في الشرع وهو: «ما ظفر به من جهة العدىٰ وغيرهم».

وكذلك الأمر في ما جاء في كتب عهوده للوافدين إليه من القبائل العربيّة وفي ما كتب لرُسله إليهم وولاته عليهم، مثل ما جاء في فتوح البلاذري، قال: «لمّا بلغ أهل اليمن ظهور رسول الله وعلوّ حقّه، أتته وفودهم، فكتب لهم كتاباً بإقرارهم على ما أسلموا عليه من أموالهم وأراضيهم وركازهم، فأسلموا، ووجّه إليهم رُسله وعمّاله لتعريفهم شرائع الإسلام وسُننه وقبض صدقاتهم وجزىٰ رؤوس مَن أقام على النصرانيّة واليهوديّة والمجوسيّة».

ثمّ ذكر هو وابن هشام والطّبريّ وابن كثير واللّفظ للبلاذريّ قال: كتب لعمرو بن حزم بعثه إلى اليمن:

ب ـ «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، هذا بيان من الله ورسوله، ﴿يا أيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾[1] عهد من محمّد النبيّ رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن. أمره بتقوى الله في أمره كلّه، وأن يأخذ من المغانم خُمس الله، وما كتب على المؤمنين من الصّدقة من العِقار عشر ما سقى البعل وسقت السّماء، ونصف العشر ممّا سقى الغرب»[2].

---

(١) سورة المائدة، الآية ١.

(٢) فتوح البلدان (١ / ٨٢) باب «اليمن»، وسيرة ابن هشام (٤ / ٢٦٥ ـ ٢٦٦)، والطبريّ (١ / ١٧٢٧ ـ ١٧٢٩)، وتاريخ ابن كثير (٥ / ٧٦)، وكتاب الخراج لأبي يوسف ص ٨٥، واللّفظ للأوّل. وهناك رواية أُخرىٰ ذكرها الحاكم في المستدرك (١ / ٣٩٥ و ٣٩٦)، وفي كنز العمّال (٥ / ٥١٧).

البعل: ما سقي بعروقه، والغرب: الدلو العظيمة.

ج ـ «ومثل ما كتب لسعد هذيم من قضاعة، وإلى جذام كتاباً واحداً يعلّمهم فرائض الصّدقة ويأمرهم أن يدفعوا الصّدقة والخُمُس إلى وليّه أبيّ وعنبسة أو من أرسلاه»[1].

إنّ الرّسول (ص) حيث طلب من قبيلتي سعد وجذام أن تدفعا الصّدقة والخُمُس إلى رسوليه أو لمن لم يرسلاه إليه، لم يكن يطلب منهما خُمس غنائم حرب خاضتاها مع الكفّار، وإنّما قصد ما آستحقّ عليهما من الصّدقة وخُمس أرباحهما.

د ـ وكذلك ما كتب لمالك بن أحمر الجذاميّ، ولمن تبعه من المسلمين أماناً لهم ما أقاموا الصّلاة واتّبعوا المسلمين وجانبوا المشركين وأدّوا الخُمُس من المغنم وسهم الغارمين وسهم كذا وكذا، الكتاب[2].

هـ ـ وما كتب للفجيع ومن تبعه: «من محمّد النبيّ للفجيع ومن تبعه وأسلم وأقام الصّلاة وآتى الزّكاة [وأطاع][3] الله ورسوله، وأعطىٰ من المغانم خُمس الله، ونصر النبيّ وأصحابه، وأشهد على إسلامه، وفارق المشركين فإنّه آمن بأمان الله وأمان محمّد»[4].

---

(١) طبقات ابن سعد (١ / ٢٧٠)، وجذام: حي كبير من القحطانيّة، نسبهم بجمهرة ابن حزم ص ٤٢٠ ـ ٤٢١، وسعد هذيم من بطون قضاعة ينسبون إلى قحطان، نسبهم بجمهرة ابن حزم ص ٤٤٧.

(٢) بترجمة مالك من أُسد الغابة (٤ / ٢٧١)، والإصابة ٣ / برقم ٧٥٩٣، ولسان الميزان (٣ / ٢٠)، وفي الأخير جاء آسمه مبارك بدلاً من مالك.

(٣) هكذا في أُسد الغابة ورجح عندنا هذا على ما في طبقات ابن سعد: «وأعطىٰ».

(٤) طبقات ابن سعد (١ / ٣٠٤ ـ ٣٠٥)، وأُسد الغابة (٤ / ١٧٥)، والإصابة ٤ / الترجمة ٦٩٦٠، واللّفظ للأوّل في ذكر وفد بني البكاء.

و ـ وما كتب للأسبذيّين:

«من محمّد النبيّ رسول الله لعباد الله الأسبذيّين ملوك عمان، من منهم بالبحرين أنّهم إن آمنوا وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وأطاعوا الله ورسوله، وأعطوا حقّ النبيّ. ونسكوا نسك المسلمين فإنّهم آمنوا وإنّ لهم ما أسلموا عليه، غير أنّ مال بيت النار ثنيا لله ولرسوله، وأنّ عشور التمر صدقة ونصف عشور الحبّ، وأنّ للمسلمين نصرهم ونصحهم، وأنّ لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاؤوا»[1].

إنّ المقصود من حقّ النبيّ في هذا الكتاب هو الخُمْس وحده أو الخُمْس والصفيّ معاً، وقد سبق شرح الصفيّ.

ز ـ وكذلك المقصود من «حظّ الله وحظّ الرّسول» هو الخُمْس في ما كتب «لمن أسلم من حدس ولخم» وأقام الصّلاة وأعطى الزّكاة وأعطى حظّ الله وحظّ الرّسول، وفارق المشركين فإنّه آمن بذمّة الله وذمّة محمّد، ومن رجع عن دينه فإنّ ذمّة الله وذمّة رسوله منه بريئة ...»[2] الكتاب.

إنّ شأن الخُمْس في كلّ تلك الكتب والعهود شأن الصّدقة فيها وهما حقّ الله في أموالهم حسبما فرضه الله فيها.

ويؤكّد ما ذكرناه من أنّ الخُمْس فيها ليس خُمس غنائم الحرب، ويوضّحه أنّ حكم الحرب في الإسلام يخالف ما كان عليه لدى القبائل العربية قبل الاسلام في أن يكون لكلّ مجموعة أو فرد الاختيار في الإغارة على غير أفراد القبيلة وغير حلفائها لنهب أموالهم كيفما اتّفق، وأنّه عند ذاك يملك كلّ فرد ما

(١) مجموعة الوثائق السياسية لمحمّد حميد الله. نقلاً عن الأموال لأبي عبيد ص ٥٢، وصبح الأعشىٰ للقلقشنديّ (٦ / ٣٨٠).

(٢) طبقات ابن سعد (١ / ٢٦٦).

نهب وسلب وحرب، وما عليه سوى دفع المِرْباع للرئيس. ليس الأمر هكذا في الإسلام ليصحّ للنبيّ أن يطالبهم بالخُمُس بدل الرّبع في ما يـثيرون مـن حرب على غيرهم، لا، ليس لفرد مسلم في الإسلام ولا لجماعة إسلاميّة فيه أن يعلن الحرب على غير المسلم من تلقاء نفسه ويسلب وينهب كما يشـاء ويقدر! وإنّما الحاكم الإسلامي هو الّذي يقدّر ذلك ويقرّر وفق قوانين الشرع الإسلاميّ والفرد المسلم ينفّذ قراره، ثمّ إنّ الحاكم الإسلاميّ ـ بعد ذلك ـ أو نائبه هما اللّذان يليان بعد الفتح قبض جميع غنائم الحرب، ولا يملك أحـد الغزاة عدا سلب القتيل شيئاً ممّا سلب، وإنّما يأتي كلّ غاز بما سلب إليهما، وإلّا عدّ من الغلول العار على أهله، وشنار ونار يوم القيامة.

والحاكم الإسلاميّ هو الّذي يعيّن ـ بعد إخراج الخُمس ـ للرّاجل سهمه وللفارس سهمه، ويرضخ للمرأة، وقد يشرك الغائب عن الحرب في الغنيمة ويُعطي للمؤلّفة قلوبهم أضعاف سهم المؤمن المجاهد.

وإذا كان إعلان الحرب وإخراج خُمس غنائم الحرب على عهد النبيّ من شؤون النبيّ في هذه الأُمّة، فماذا يعني طلبه الخُمُس من النّاس وتأكيده ذلك في كتاب بعد كتاب وعهد بعد عهد إن لم يكن الخُمُس في تلك الكتب والعهود مثل الصّدقة ممّا يجب في أموال المخاطبين وليس خاصّاً بغنائم الحرب.

وعلى هذا فلابدّ إذاً من حمل لفظ الغنائم والمغنم في تلك الكتب والعهود على معناهما اللّغويّ: «الفوز بالشيء بلا مشقّة»، أو معناهما الشرعيّ: «مـا ظفر به من جهة العدىٰ وغيره».

أضِف إلى هذا ما ذكرناه بتفسير الغنيمة من أنّ الغنيمة أُصبحت حقيقة في غنائم الحرب في المجتمع الإسلامي بعد تدوين اللّغة لا قبله. ولا يصحّ مـع هذا، حمل ما جاء في حديث الرّسول على ما تعارف عليه النّاس قرابة قرنين بعده، وأمّا ما جاء في بعض تلك الكتب والعهود بـلفظ «حـظّ الله وحـظّ

الرّسول»، أو «حقّ النبيّ»، أو «سهم النبيّ» وما شابهها، فإنّ تفسيرها في الآية الكريمة ﴿واَعْلَمُوا أنّ ما غنمتم مِن شيءٍ فإنّ لِلّهِ خُمسه وللرّسول...﴾ وفي السنّة النبويّة التي تبيّن هذه الآية وتشرحها حيث تعيّنان سهم الله وسهم النبيّ في «المغنم» وهو الخُمْس وهو أيضاً حقّها وحظّها.

وبعدما ثبت ممّا أوردناه في ما سبق أنّ النبيّ كان يأخذ الخُمْس من غنائم الحرب ومن غير غنائم الحرب، ويطلب ممّن أسلم أن يؤدّي الخُمْس من كلّ ما غنم عدا ما فرض فيه الصّدقة.

مصادر المُصْطلحات

من كتب العلّامة العسكريّ

مصادر مُصْطلحات الأُلوهيّة والرّبوبيّة :

الإسم	قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١.
الإله	قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.
الربّ	قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.
ذو العرش وربّ العرش	عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.
الكرسيّ	عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.
الله (جلّ جلاله)	قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.
القيّوم	كتبه العلّامة العسكري بشكل مستقل.
الرّحمٰن الرّحيم	قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.

العبادة قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.

مصادر مصطلحات النّبوّة :

الوحي القرآن الكريم وروايات المدرستين ج ١.

النّبيّ عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.

الرّسول قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.

خليفة الله قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، معالم المدرستين ج ١.

الأئمّة المبلّغون قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١.

الصّحابي والصّاحب قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، معالم المدرستين ج ١.

مصادر مصطلحات قرآنيّة :

القرآن معالم المدرستين ج ٢، القرآن الكريم وروايات المدرستين ج ١.

الكتاب القرآن الكريم وروايات المدرستين ج ١، قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١.

المصحف القرآن الكريم وروايات المدرستين ج ١.

السّورة والآية القرآن الكريم وروايات المدرستين ج ١.

الجزء والحزب القرآن الكريم وروايات المدرستين ج ١.

التلاوة والقراءة والإقراء	القرآن الكريم وروايات المدرستين ج ١.
النّسخ	عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.

مصادر مصطلحات عقائد الإسلام :

مشيئة الله	عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.
البَداء	عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.
الجَبْر والتّفويض	عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.
القَضاء والقَدَر	عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.
الدِّين والإسلام	قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.
الإيمان والمؤمن	قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.
النِّفاق المُنافق	قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، عقائد الإسلام من القرآن الكريم ج ١.

مصادر مصطلحات الإمامة والخلافة :

الخليفة والخلافة	قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، معالم المدرستين ج ١.
أمير المؤمنين	معالم المدرستين ج ١.
الإمام	معالم المدرستين ج ١.

الوصيّ	قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، معالم المدرستين ج ١.
الأمر وأُولو الأمر	معالم المدرستين ج ١.
الشّورىٰ	معالم المدرستين ج ١.
البَيْعَة	معالم المدرستين ج ١.
أهل البيت (ع)	قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، معالم المدرستين ج ١.

مصادر مصطلحات الفقه :

الفقه	معالم المدرستين ج ٢.
الإجتهاد	معالم المدرستين ج ٢.
السُّنّة	قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، معالم المدرستين ج ٢.
البِدْعَة	قيام الأئمّة بإحياء السنّة ج ١، معالم المدرستين ج ٢.
الزّكاة	معالم المدرستين ج ٢.
الصّدَقة	معالم المدرستين ج ٢.
الفَيْء	معالم المدرستين ج ٢.
الصَفيّ	معالم المدرستين ج ٢.
الأنْفال	معالم المدرستين ج ٢.
الغَنيمَة والمَغْنَم	معالم المدرستين ج ٢.
الخُمْس	معالم المدرستين ج ٢.

الفهرس

